



إصدارات مئوية الدولة الأردنية 2021

أ.د. سمير الدروبي

مجامع اللغة العربية

في دمشق وعمّان في عهد الهاشميين

(١٣٣٨ - ١٤٤٣ هـ / ١٩١٨ - ٢٠٢١ م)

الجزء الثاني

مقر المجمع العلمي العربي بدمشق - © عهد الحكومة العربية (الفيصلية)



مجامع اللغة العربيّة في دمشق وعمّان

في عهد الهاشميين

١٩١٨-٢٠٢١ م

مجامع اللغة العربيّة في دمشق وعمّان

في عهد الهاشميين

١٩١٨-٢٠٢١ م

(الجزء الثاني)

تأليف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

عضو مجمع اللغة العربية الأردني

أستاذ الأدب العربي في جامعة مؤتة

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

• مجامع اللغة العربية في دمشق وعمّان في عهد الهاشميين
(١٩١٨-٢٠٢١م)

(دراسة)

• د. سمير محمود أحمد الدروبي

• الناشر: وزارة الثقافة

شارع صبحي القطب
المتفرع من شارع وصفي التل
ص. ب. ٦١٤٠ - عمان - الأردن
تلفون: ٥٦٩٩٠٥٤/٥٦٩٦٢١٨
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email: info@culture.gov.jo

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢١/٦/٣٣٤٨)

٤١,٥٦

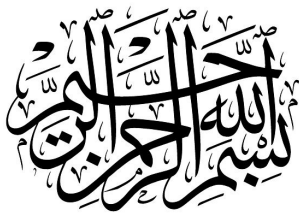
الدروبي، سمير محمود أحمد
مجامع اللغة العربية في دمشق وعمّان في عهد الهاشميين (١٩١٨-٢٠٢١) /
سمير محمود الدروبي - عمان: المؤلف، ٢٠٢١
ج٣ (١) ص
ر. ل.: ٢٠٢١/٦/٣٣٤٨
الواصفات: / التعريب // مجمع اللغة العربية الأردني // الصراع الثقافي // التاريخ الثقافي //
الهاشميون // دمشق // عمان // مجامع اللغة العربية /
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة
المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف 0799677569

ردمك: 978-9957-94-651-7

• جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق
استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval
system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission
of the publisher.



الإهداء

- إلى ملوك الهاشميين الذين كان لهم الدور الحاسم في رعاية المجامع اللغوية ودعمها.
- إلى رجال النهضة العربية الذين كان لهم فضلُ السبقِ والريادة في تأسيس مجامع اللغة العربية الرسمية.
- إلى المُفكِّرين والأدباء واللغويين الذين نجحت دعواتهم الإصلاحية في إحياء اللغة العربية ونهضتها.
- إلى الجنود المجهولين من الشيوخ والمعلمين، والفقهاء والرهبان والقساوسة، الذين علّموا العربية في الكتاتيب والمحاضر، والمساجد والزوايا، والأديرة والكنائس، والمعاهد والمدارس، وحافظوا عليها من الاندثار في عصور العُجْمَة والاستعمار.
- إلى العلماء العاملين الذين نهضوا بأعباء خدمة العربية، ونقل علوم العصر إليها، فكانوا دعاة للتعريب وسداً منيعاً في وجه دعاة التبعية والتغريب.
- إلى كلِّ من أحبَّ هذه اللغة الشريفة ديناً ووطنية، وعقيدة وقومية.
- إلى الزملاء المجمعين الذين أصبحوا حفظةً وسدنةً، وحماةً ودعاةً للغة القرآن الكريم والأمة العربية.
- إلى العلماء من المستشرقين الذين خدموا لغة العرب وتراثهم فهرسة وحفظاً، ودراسة وتحقيقاً، وترجمة ونقلًا وتعريباً للعلوم العصرية.
- إلى كلِّ من تقدّم أهدي هذا العمل الذي جاء تخليداً لذكرى مرور مئة عام على قيام الدولة الأردنية.

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
١١	الفصل الرابع: أسباب فض الحكومة العربية للمجمع وتوقيف أعماله:
١٣	المبحث الأول: قرار فض المجمع وأبعاده.
٢١	المبحث الثاني: الأسباب الاقتصادية ومناقشة صحتها.
٤٥	المبحث الثالث: الأسباب السياسية لفض المجمع وخلفيتها الحزبية.
٦٣	الفصل الخامس: مساعي محمد كرد علي زجهاده لإعادة المجمع للعمل:
٦٥	المبحث الأول: الملك فيصل وكرد علي في دوامة المؤامرات الدولية والدعوات الحزبية.
٨١	المبحث الثاني: الصراع الثقافي بين كرد علي وساطع الحصري (وزير المعارف) الذي أنشأ مجمعاً موازياً.
١٢١	المبحث الثالث: المنافسة الشخصية بين كرد علي وعبد الرحمن الشهبندر (وزير الخارجية) ورده لمشروع إعادة المجمع.
١٤١	الفصل السادس: المجمع العلمي العربي: أمل الوفاء بالوعد الملكي وريادة كرد في تأسيسه:
١٤٣	المبحث الأول: لماذا لم يف الملك فيصل بوعدته بإعادة استئناف العمل في المجمع؟
١٥١	المبحث الثاني: اعتراف المجمعين والأدباء والمفكرين بريادة كرد علي في تأسيس أول مجمع لغوي عربي.
١٧٧	المبحث الثالث: أهم نتائج البحث.
١٨٧	فهرست المصادر والمراجع.

الفصل الرابع

أسباب فضّ الحكومة العربيّة

للمجمّع وتوقيف أعماله

المبحث الأول: قرار فضّ المجمّع وأبعاده.

المبحث الثاني: الأسباب الاقتصادية ومناقشة صحتها.

المبحث الثالث: الأسباب السياسيّة وخلفيتها الحزبيّة.

المبحث الأول

قرار فضّ المجمع وأبعاده

على الرغم من كل تلك النجاحات والإنجازات المُشرفة للمَجْمَع برياسة كرد علي، وجهود أعضائه المخلصين، إلا أنّ الحكومة العربية أصدرت قراراً خطيراً يقضي بفضّ المجمع، ووقف جُلّ أعماله، ولكنها أبقّت فيه رمقاً من حياة، وكان هذا القرار المؤسف المُحزن في الوقت الذي كان فيه المَجْمَع جاهداً في إعلاء شأن العربية، ورفع منارها، ويعمل على إعادتها للحياة لغةً علميّةً، وإداريّةً، وحصاريّةً، من جديدٍ بعد سباتٍ دام قروناً.

لقد صدر قرار فضّ المجمع، وإبقاء عضوين من أعضائه للإشراف على المتحف، ودار الكتب العربية، ونُشر ذلك الخبر المشؤوم في الجريدة الرسمية بتاريخ ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ، الموافق ٤ كانون الأول سنة ١٩١٩م، ونصّه: «المكتبة الظاهرية: صدر الأمرُ ببقاء أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري مدير المكتبة الظاهرية، وأحد أعضاء المجمع العلميّ، مديراً للمكتبة فقط، بعد فضّ المجمع»^(١).

وأردفَ القرارُ السابقُ بآخر نصّه: «في المجمع: تقرّر إبقاء كلّ من الشيخ سعيد أفندي الكرّمي، وأنيس أفندي رزق سلوم من أعضاء المجمع العلمي في وظيفتهما، وكذلك الكاتبان السيد محمّد الشريقي، والسيد حمدي الشهندي»^(٢). علماً بأنّ تعطيل المجمع جاء بعد أن عقد خمساً وسبعين جلسةً من جلساته، أولها بتاريخ ٣٠ تموز، وآخرها في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٩م، كما أنّ تعطيل المجمع كان مخططاً له بليل، ولذلك أعلن فجأةً في الجريدة الرسمية دون أية إرهابات، أو مقدّمات، أو خلافات ظاهرة بين رياسة المجمع والحكومة العربية.

(١) جريدة العاصمة، ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ / ٤ كانون الأول سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٨١،

ص ٣.

(٢) المصدر السابق، العدد ٨١، ص ٣.

ويبدو أن مصدرَ القرارين السابقين، هو الركابي الحاكم العسكري، الذي يُستغربُ منه تجاهلُ رئيس المجمع، وبقية أعضائه الذين لم تردُّ لهم أيَّةُ إشارة، ولم يُنشرْ بعد ذلك أيُّ خبرٍ عن أعضاء المجمع في الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحكومة، وتَمَّ تجاهلُ هؤلاء الرجال الذين عملوا بإخلاص، ودلَّت إنجازاتهم على عملهم، ولم يُلتفت إليهم أو إلى مجمعهم بكلمة شكرٍ أو تقدير، علماً بأنَّ الجريدة الرسمية كانت تُغدق الشكر والثناء على من قدَّم للمجمع ولو كتاباً واحداً.

ومما يدعو للتعجب والاستغراب أيضاً، أن قرار تعطيل المجمع قد جاء في الوقت الذي أصبح فيه مفخرةً من مفاخر الحكومة العربية، وأصبح أنموذجاً رفيعاً للعمل المؤسسي الذي يقوم على القدرات والكفاءات، لا الواسطات والمحسوبيات، فهو مجمع أمة، يقدم الأكفاء والقادرين على العطاء، دون نظرٍ لدياناتهم أو مذاهبهم أو طوائفهم، وأصبح المجمعُ دليلاً على سلامة الموقف السياسي للحكومة، ونصاعته فيما يتعلَّق بالأقليات، التي أصبحت ورقةً يلعبُ بها الفرنسي والإنجليزي؛ لتنفيذ سياسة التجزئة، وتفكيك الوطن الموحد لغةً وثقافةً، وتاريخاً وحضارةً، منذ مئات السنين.

وقد نشرت الجريدةُ الرسميَّةُ نقلاً عن (جريدة النصير) اللبنانية مقالةً تدافع فيها عن الحكومة العربية، التي تتهمها بعض صحف الساحل - أي الصحف اللبنانية الموالية لفرنسا - بالتعصُّب. وجاء ردُّ (النصير) على هذه الصحف السائرة في ركب الاستعمار الفرنسي والحاطبة في حبله، والمدعومة منه دعماً سخياً على النحو التالي: «تتهم بعض صحف الساحل حكومة دمشق بالتعصُّب، وقد فاتها أن المُتعصَّب لا يُفتش عن العلماء، ورجال الفضل والمعارف، دون نظرٍ لطائفة ومذهب، ويسلمهم إدارة البلاد...»^(١).

(١) جريدة العاصمة، ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ / ٤ كانون الأول سنة ١٩١٩ م، السنة الأولى، العدد ٥٥، ص ٤.

وقد اتخذت جريدة (النصير) من تأسيس الحكومة العربية للمجمع العلمي العربي، أقوى دليل على براءة هذه الحكومة من العصبية المذهبية، وبعدها عن التجاذبات الطائفية، والخلافات الدينية، تقول: «لقد ألّفت المجمع العلمي، وبحثت بكلّ قواها عن رجال العلم وعيّنهم به... وقد أصيبت اللغة الوطنية في الماضي بطعنة في صدرها، وأصبح الوطنيون يدرسون العلوم والطب بلغة غير العربية، فتنبّهت حكومة سوريا لذلك، وأنشأت الكلية الطبية، وابتدأ العلماء بتعريب الكتب... هذا المجمع ضمّ إليه معظم رجال سوريا، وهو يبحث بكلّ ما يعود على البلاد والوطن بالفائدة والنفعة، ويبرهن للعالم بمجموعه أنّ الأمة السورية تعمل على رقيه...»^(١)

ولا مندوحة لنا من معرفة الأسباب التي أدت تعطيل المجمع، ووقف أعماله، وهل بدا قصور أو تقاعس من رئيسه أو أعضائه؟ وهل كان قرار وقفه متعجلاً لم يأخذ بالحسبان أهمية هذه المؤسسة الفتية، ولم يقدر إنجازاتها حق قدرها؟ وهل كانت الظروف التي تمرّ بها الحكومة العربية شائكة سياسياً، ومتعثرة مالياً واقتصادياً؟ وهل كانت نفقات المجمع ومشترياته، ورواتب أعضائه باهظة، بحيث يصعب على موازنة الدولة توفيرها؟ وهل كان رئيس المجمع سبباً في إلغائه جرّاء علاقاته التي قد تكون متوترة مع بعض رجال الحكومة؟ وهل كان هناك قوى خفية تسعى لقتل المجمع، وهو ما زال في مهده؟ وإن وجدّت، فمن تكون هذه القوى؟ وما مبلغ قوتها ونفوذها في الحكومة؟ وهل كان تعطيل المجمع قراراً سياسياً؟

إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة المتشابكة التي تستدعي الإجابة عنها، وقد تكون هذه الإجابة ضعيفة ما لم تتمثل الوضع السياسي، والاجتماعي، والعسكري، والاقتصادي القائم آنذاك، علماً بأنّ هذا الوضع كان عاصفاً يُحيط به الغموض والمستقبل المجهول؛ بسبب تطاحن القوتين الاستعماريّتين: إنجلترا وفرنسا على بلاد الشام، وكانت هذه القوى الاستعمارية كالذئاب الطلس التي انقضت على فريستها

(١) جريدة العاصمة، ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ / ٤ كانون الأول سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٥٥، ص ٤.

العزلاء ولا سلاح لها، إلا أصوات الاستغاثة وطلب النجدة، وحالها كحال الجريح الذي يشكو جراحه إلى سباع الطير.

ذكرنا فيما سبق، أنّ قرار فضّ المجمع الصادر بتاريخ ٤ كانون الأول سنة ١٩١٩م، لم يتضمّن أية إشارة تحدّد سبب وقف المجمع، وكأنّ الأمر سرٌّ من أسرار الحكومة التي تحتفظ بها لنفسها، ولا تريد إفشاءها ونشرها بين الناس، ولم تقدّم الحكومة سبباً لتبرير هذا القرار الذي - بلا شك - أثار تساؤلات وتكهّنات كثيرة لدى الرأي العام في بلاد الشام؛ لأنّ تعطيل المجمع مخالفٌ لسياسة الحكومة الفيصلية الهادفة إلى نشر العلم بين الأهالي، «واستهراض هممهم لجمع التبرعات ونشر العلم»^(١)، إضافةً إلى أنّ الأمير فيصل كان منزعجاً من إهمال الشباب دروسهم وكتبهم، وتدخّلهم في الأمور السياسية، نظراً للظروف السياسية المعقدة آنذاك^(٢).

وفوق ذلك، فإنّ فرنسا كانت تراقب بدقة كلّ ما يجري في الحكومة العربية، وتحاول بكلّ الوسائل فرض انتدابها على سوريا، بعد أن فرضته على لبنان، وأسقطت الأعلام العربية المرفوعة على الدوائر في لبنان، وكانت «تودُّ أن يرفرف علمها على دمشق مع قوة عسكرية»^(٣)، كما قال (كليمنصو) للأمير فيصل، ولذا فإنّ وقف المجمع قد يعدُّ عند الفرنسيين دليلاً على تخبُّط سياسة الحكومة العربية، وعدم قدرتها على الحفاظ على مؤسساتها، وبخاصة المجمع العلمي العربي، الذي يُعدُّ أعلاها شأنًا، وأكثرها خدمة للأمة، وقد أصبح المجمع معروفًا لدى الجامعات العلمية في العالم، ولدى كبار المستشرقين الذين كان بعضهم موظفًا أو مستشارًا في وزارات خارجية المستعمرات في الغرب.

وقد عبّر كرد علي عن ذلك: «وقال خصوم العرب: قوم لا ثبات عندنا، والدليل أنّنا أفسدنا بيدنا ما أسسنا، قبل أن تظهر ثمراته»^(٤). علاوةً على الحملات الشرسة التي

(١) قدرى، أحمد: مذكراتي عن الثورة العربية، ط١، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٤) كرد علي، المذكرات، المجلد ١، ص ٢٧٨.

تشنّها فرنسا على الحكومة العربية، وعلى رجالها، بعد أن اشترت ذمم الكثيرين من المرتزقة والعملاء في الداخل، الذين عملوا على تمهيد طريق الانتداب على سوريا، وكان اتّهام الفرنسيين للحكومة الفيصلية بأنّ «حكم فيصل يغلب عليه طابع البداوة، يوجّه فيه المتطرّفون الذين لا يتحملون المسؤوليات في مصير الوطن»^(١).

ويجب ألا ننسى أيضاً أنّ تعطيل المجمع له آثاره السلبية على الرأي العام الدمشقيّ، الذي يعرف محمّد كرد علي منذ أيام الأتراك، فهو صاحب أول جريدة يومية في دمشق، وجريدته (المقتبس) كانت تحمل راية الدفاع عن حقوق المظلومين، وتغطّي القضايا العامة التي فيها مصلحة المواطن، وتعمل على نشر الوعي والتنوير بين الناس، بل إنّ سعيداً الأفغاني عدّها مدرسة تعلّم الناس، يقول: «جريدة المقتبس لصاحبها المرحوم محمّد كرد علي، كانت أيام الأتراك مدرسةً مُوجّهةً مُوعّيةً مُنوّرةً، للعامة والخاصة»^(٢).

ويبدو أنّ قرار تعطيل المجمع كان لا رجعة فيه، وتُرك المجمع وفيه بقية من حياة، وتوقّفت مشاريعه، وتعطلت أعماله، وخابت آماله، وعاد إلى الحور بعد الكور، وإلى الخمود بعد الانبعاث، وإلى القعود بعد الصعود.

أمّا الحالة البائسة التي آل إليها المجمع، بعد أن كان موفور النشاط، عالي الهمة، بعيد الطموح، سريع العمل والإنجاز، فإنّ كرد علي يحدّثنا عنها في مذكراته قائلاً عن الركابي: «وأبقى عضوين اثنين، أحدهما صاحب نوادر يُسليّه في داره، والثاني ينظم له قصائد يمدحه بها، وقضى هذان العضوان أشهراً لم تحدّثهما النفس أن يفتحا البريد اليوميّ، فضلاً عن أن يتّم على يدهما شيءٌ من الأعمال، اللهم إلا إذا كان يُعدُّ من ذلك قراءة الصحف، وتبادل النكات والحكايات، وتناول أكواب الشاي والقهوة، فأصيب المجمع لأول نشأته بهذه الصدمة»^(٣). وحقاً فإنّ الفرس من الفارس، وأنّ الجيش بالقائد، وغياب رئيس المجمع أدّى إلى هذا الخمول.

(١) العجلوني، محمّد علي: ذكريات عن الثورة العربية الكبرى، ط ١، مكتبة الحرية، عمان، ١٩٥٦م، ص ٧٩.

(٢) الأفغاني، من حاضر اللغة العربية، ص ١٤٨.

(٣) كرد علي، المذكرات، المجلد ١، ص ٢٧٨.

وممّا لا شكّ فيه، أنّ تعطيل المجمع، وتسريح خمسة من أعضائه بمنّ فيهم رئيسه وصاحب فكرته، يُعدُّ صدمةً حقيقيّةً، وخسارةً علميّةً كبرى، وبخاصةً إذا أنعمنا النظر في إنجاز العضوين الباقيين فيه، وهما سعيد الكرمي، وأنيس سلوم، ولذا فإنّنا لا ندري من هو صاحب النوادر الذي يسلي الركابي بنوادره، ومن هو الشاعر الذي يمدحه، علماً بأنّ كلا العضوين كان شاعراً.

ووفقاً لما قاله كرد علي، فإنّ العضوين لم يُنجزا أيّ عمل يُذكر، بل أهملتا حتى فتح البريد الذي كان المجمعُ بحاجةً إلى متابعته والردّ عليه، وبخاصةً أنّ توزيع المجمع لمنشوره على المجمع، وكبار العلماء، بدأ يستجلبُ ردودهم، ويستقبل استجاباتهم لنداء المجمع للتعاون معهم، ولرغبته في رفده بمقالاتهم، وكتبهم وآرائهم.

ولا ندري هل كان إهمال بريد المجمع نوعاً من الإحباط واليأس لما حلّ بالمجمع؟ أم كان إهمالاً وتكاسلاً من الكرمي وسلوم؟ أم أنّهما كانا مأمورين بذلك من ساطع الحصري مدير المعارف العام، الذي أصبح المجمع تابعاً له مالياً وإدارياً؟^(١).

(١) انظر: البخيت، محمّد عدنان: الفهرس العام لمجموعة بلاغات المالية العامة لسنة ١٩٢٠م في الحكومة العربية بدمشق، ط ١، البنك الأهلي الأردني، عمان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٣٧.

المبحث الثاني

الأسباب الاقتصادية

لفض المجمع ومناقشتها

من خلال الاطلاع على ما كتبه كرد علي في مجلة المجمع، وفي مذكراته وخططه، فإنه يذكر لنا سببين لإيقاف المجمع: مالي وسياسي. وسناقش السببين كليهما فيما يأتي:

الأول: السبب المالي:

يقول كرد علي في أثناء حديثه عن المجمع: «وفي آخر تشرين الثاني سنة ١٩١٩م، صدر الأمرُ بدعوى الضيق المالي، بصرف رئيس المجمع العلمي وأعضائه، إلاّ عضوين فقط؛ للإشراف على داري الكتب والآثار»^(١). فهل كان صحيحاً أنّ المال هو سبب وقف المجمع؟

للإجابة على السؤال المطروح، فإنّه لا مندوحة لنا من الوقوف على الأوضاع المالية للحكومة العربية، وذلك من خلال الرجوع إلى جريدتها الرسمية، ومن خلال مجموعة بلاغاتها المالية، التي يمكن أن تُجَلِّيَ لنا واقع الأحوال المالية آنذاك في الحكومة العربية.

اللافت للنظر، أنّ كرد علي يرفض هذه الدعوى أو حُجّة (الضيق المالي)، الذي رأته الدولة مُبرراً للإلغاء المجمع، ولكن لا بدّ لنا من تكوين فكرة مختصرة وواضحة عن الأوضاع المالية والاقتصادية، التي كانت تمرُّ بها الحكومة العربية آنذاك، من خلال قراءة بلاغاتها المالية العامة لسنة ١٩٢٠م، ومن خلال جريدتها الرسمية التي تنشر مراسيمها وقراراتها وتوجهاتها.

والمصدران السابقان يشيران إلى تراجع شديد في موارد الدولة المالية، وإلى نقصٍ حادٍّ في ميزانيتها، حاولت الحكومة تلافيه من خلال الآتي:

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٣٤٢.

أ- تهيئة أذهان الناس لقبول إجراءات الحكومة المالية :

فقد نشر راشد البيلاي مقالةً عن تردّي الحالة الاقتصادية في العالم، جرّاء الحرب الكونية الأولى، فالسلعُ غاليةٌ في العالم، ولا تُشترى إلا بالذهب، وانتشرت المجاعات، ومات كثيرون بسبب قلة الغذاء، وأعلن سكرتير وزارة التموين في إنجلترا للملأ أن الطعام في عام ١٩٢٠م سيقلّ قلة عظيمة، ويضرب الكاتب أمثلة كثيرة على سوء الأوضاع في العالم، وأنّ أحواله الاقتصادية مضطربة قلقه^(١). ولا شكّ أنّ مثل هذا المقال يُعبّر عن وجهة نظر الحكومة، وأنّ أزمة الاقتصاد العالمية، وبالتالي لا بدّ للناس من تحمل الضائقة، وقبول الأوضاع.

ب- زيادة حادة في الرسوم والضرائب لسدّ العجز في الميزانية :

فقد صدر قانون مؤقت لمدة سنة واحدة، ينصّ على إضافة خمسين في المئة إلى ضريبة العقارات والأملك، وإضافة خمسين في المئة إلى رسوم الأغنام والإبل، وزيادة مئة في المئة على رسمّي التمتع وبدلات الطريق، وغيرها من الضرائب^(٢). والتمتع ضريبة محصورة بالتجار وأصحاب البضائع الحرة، والرواتب الدائمة، وسمّيت بذلك «لقاء تمتعهم بالتجارة، وحماية الحكومة لمصالحهم»^(٣).

ج- تخفيض عدد الموظفين في الحكومة :

لاحظت الدولة وجودَ زيادة عن اللازم في عدد الموظفين، وجاء في أحد البلاغات المالية: «... إذا تبين أنه يوجد جُباةً زيادةً عمّا هو معيّن في البلاغ الآنف الذكر، يجب على مدير مال القضاء، إعلام المحاسب برقيّاً؛ لأجل إخفاض عدد الجُباة»^(٤). والجباة هم الذين يُحصّلون أموال الحكومة من المواطنين.

(١) انظر: جريدة العاصمة، ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ / ٨ كانون الثاني سنة ١٩٢٠م، السنة الأولى، العدد ٩١، ص ١.

(٢) انظر: جريدة العاصمة، ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨هـ / ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٠م، السنة الأولى، العدد ٩٧، ص ٢.

(٣) جريدة العاصمة، ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٨هـ / ١٤ حزيران سنة ١٩٢٠م، السنة الثانية، العدد ١٣٢، ص ٢.

(٤) انظر: البخيت: الفهرس العام لمجموعة بلاغات المالية العامة لسنة ١٩٢٠م، ص ٣٠.

د- إلغاء بعض الوظائف:

فقد تمّ إلغاء وظائف الحكام العسكريين عامة، ما عدا حاكمي حلب ودير الزور^(١).

هـ- إصدار قانون النقد السوري:

فقد جعل هذا القانون من الذهب معياراً للدينار السوري، والريال السوري، والنيكل تضرب من معدن النيكل، ويكون منها أنصاف القرش وأرباعه، ولما رفض بعض الناس التعامل بالنيكل صدر قرار حكومي يلزمهم بذلك^(٢). قلت: وما زالت لفظة (النيكل) سارية في العامية في الأردن، وإذا أراد العامة الحط من قيمة شيء ما قالوا: «ما يساوي نكلة».

و- منع صرف الذهب للرواتب:

إذ صدر بلاغ مالي بتاريخ ١١ / ١ / ١٩٢٠ م، بـ«عدم صرف الذهب للرواتب البتة، وحصر صرف الذهب بمشتروات وتعميرات وإنشاءات الحكومة»^(٣).

ويتضح ممّا كتبت في الجريدة الرسمية تراجع مخزون البلاد من الذهب، وسحبه منها بطرق التصدير والتهرب، فقد صدر قرار من مجلس المديرين بحلب في ١٩ / ٢ / ١٩٢٠ م يمنع تصدير الذهب، أو إخراجه من منطقتهم التي صُدّر منها ما يزيد على مليوني ليرة ذهبية^(٤).

ودعت الجريدة الرسمية المواطنين إلى حفظ الذهب في الوطن، وحذرت من تصديره، بعد أن اشتدّ كلبُ التجار وحرصهم على تحقيق الأرباح عن طريق تسريب

(١) المصدر السابق، ص ٣٢؛ وانظر: أبو الشعر، هند، «التنظيمات الإدارية للحكومة العربية الفيصلية»، ضمن كتاب بناء الدولة العربية الحديثة، إعداد وتحرير: هند أبو الشعر، مكتبة الأسرة الأردنية، عمان، ٢٠١٨، ص ١٨٤-١٨٨.

(٢) انظر: جريدة العاصمة، ٨ شعبان سنة ١٣٣٨ هـ / ٢٦ نيسان سنة ١٩٢٠ م، العدد ١٢٠، ص ٤.

(٣) البخيت: الفهرس العام لمجموعة بلاغات المالية العامة لسنة ١٩٢٠ م، ص ٦.

(٤) جريدة العاصمة، ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ هـ / ١ آذار سنة ١٩٢٠ م، السنة الثانية، العدد ١٠٥، ص ٤.

الذهب وتهريبه من البلاد إلى خارجها، ونصّ الجريدة: «إنَّ بعض تجار دمشق استوردوا من العراق ثمانين ألف جنيه من الورق المصري، واشتروا بقيمتها ذهباً، وبينما كانوا يخرجون منها ثمانية عشر ألف جنيه من العاصمة، صادرتها دائرة الشرطة»^(١).

وعلاوةً على ذلك، فقد اكتشفت عملية تزيفٍ وتقليدٍ للعملة العثمانية، ونشرت الجريدة الرسمية: «إنَّ الهيئة الاتهامية بسوريا، قد اتهمت بموجب قرارها المؤرخ في ٢٦ حزيران سنة ١٩٢٠م رقم ٢٠٦ إسحاق بن إياهو الحلاق من محلة اليهود، زُقاق الجمعة، بجناية سَكِّ عملةٍ عثمانية تقليداً...»^(٢). وربما كان إياهو واحداً من عصابة يهودية تزيفُ العملة، وهو كحلاق يروّجها في دكانه، ولا يُستغرب الشيء من معدنه، وبخاصة عند اضطراب الأحوال في البلاد، وتغيّر الدول، وكثرة الصراعات والمنافسات الدولية.

وأدرك التجار أنَّ ذهب البلاد يتسرّب ويهرّب عن طريق جشعي التجار إلى خارج البلاد، وأنَّ الفرنسيين والإنجليز ينفذون سياسة مدروسة لتفريغ الشام من ذهبها الذي يُعدُّ العمود الفقري للاقتصاد.

فقد جاء في أخبار جريدة العاصمة ما نصه: «كتب إلينا فريقٌ من التجار في العاصمة، يقولون: إنَّ الذهب يتسرّب من أيدينا بدون أن نشعر، وينتقل إلى أيدي الأجانب خارج البلاد، والسبب في ذلك أن الرئيّة الهندية بخسة الثمن في بغداد، وهي تباع هناك بالذهب، فأصبح تجار حلب، وفريق كبير من تجار العاصمة، يرسلون الذهب إلى بغداد بوسائل متعددة، لمشتري الرئيّة، وإبدالها بحوالات على لندن، وبهذه الحركة أصبح يخرج من دمشق ما لا يقلُّ عن مئتي ألف ليرة ذهبية شهرياً، ويخرج من حلب أضعاف هذا المبلغ»^(٣).

(١) جريدة العاصمة، ٤ شعبان سنة ١٣٣٨هـ / ٢٢ نيسان سنة ١٩٢٠م، السنة الثانية، العدد ١١٩، ص ٦.

(٢) جريدة العاصمة، ٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٨هـ / ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٠م، السنة الثانية، العدد ١٤٩، ص ٧.

(٣) جريدة العاصمة، ٨ شعبان سنة ١٣٣٨هـ / ٢٦ نيسان سنة ١٩٢٠م، السنة الثانية، العدد ١٢٠، ص ٧.

والظاهر أن إنجلترا تعرف أنه قد أزف الوقت لتنفيذ اتفاقية سايكس بيكو، وأن سوريا ستكون تحت الانتداب الفرنسي، ولذا فإنه لا بدّ من سحب ما تبقى من ذهب بلاد الشام وسلبه، عن طريق ترويج العملة الورقية التي سرعان ما تهبط قيمتها، علماً بأنّ الإنجليز والفرنسيين، قد أرغموا الحكومة العربية في دمشق على إنزال القرش المصري منزلة القرش العثماني، الذي كانت قيمته المالية في السوق أعلى، فخسر الناس بذلك خسارة كبيرة، وفوق ذلك، فإنّ الفرنسيين والإنجليز بدأوا يترددون في إعطاء الإعانة الشهرية التي تقدّم لحكومة دمشق^(١).

وبناءً على ما تقدّم عرضه بصورة مختصرة عن الأحوال المالية، فإنّ الحكومة وجدت نفسها مضطّرة لرفع الضرائب، وفرض المكوس، وتقليص النفقات، وإلغاء بعض الوظائف، وقد تزامن ذلك مع حاجتها إلى تشكيل جيش جديد، بعد أن فرض التجنيد الإجباري مع قلة في الموارد.

إنّ قرار وقف الحكومة العربية للمجمع في نهاية تشرين ١٩١٩ كان بدعوى «الضيق المالي»، وهو قرار مبرّر ومقبول في الظاهر، بعد أن وقفنا على جوانب من الأحوال المالية في البلاد آنذاك، ولكن لا بدّ لنا من معرفة مدى إنفاق المجمع، وهل كان بحاجة إلى مخصصات مالية ضخمة، تتطلّبها أعماله الكبيرة المتمثلة في تأسيس دار للآثار، وأخرى للمخطوطات، وإصلاح اللغة الدواوين، وتعريب للمصطلحات العلمية؟ وما الذي أنفقه المجمع على ذلك؟

يبدو أنّ المأخذ الوحيد للحكومة على نفقات المجمع، كان موضوع شراء الآثار والمخطوطات، وقد صدرت هذه الملاحظة من ثلاثة رجال في الحكومة العربية هم:

الأول: الأمير فيصل بن الحسين الذي قال لمحمّد كرد علي معاتباً، أو غاضباً، أو لائماً: «... ألا تخاف الله، نحن في صدد تأليف جيش، وتنظيم حكومة، وأنت بما لك

(١) جريدة العاصمة، ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٨هـ / ١٤ حزيران سنة ١٩٢٠م، السنة الثانية، العدد ١٣٢، ص ١.

من نفوذٍ على أعضاء مجلس الشورى، تأخذ الألوفا من الجنيهاات للمجمع، وداري الأثار والكتب، وتسرف في إنفاقها على بضعة أحجار جلبتها من تدمر؟!»^(١).

أما ردّ كرد على اتهام الأمير فيصل له بالإسراف، وإنفاق الألوفا من الجنيهاات على شراء الأثار والمخطوطات، فقد عبّر عنه بقوله: «فضحكت. فقال: بالله، قل لي كم صُرفَ في هذا الباب؟ فقلتُ له: ليس مقدار ما صُرفَ على ذِكرِ مني الآن وعلى كلِّ، فما أنفقتَه أقلُّ من هذا المبلغ الذي ذكرته سموك، وأرى أن تفضّل وتستأمر رئيس حكومتك.

فسأله عند انصرافي من لدنه، فكان الجواب: إنّه صرف في هذا السبيل نحو خمسة وعشرين جنيهاً فقط»^(٢).

أما موقف الأمير فيصل من كرد علي، عندما وقف على جليّة الأمر، وتبيّن له أنّ ما ذكر عن هذا الإسراف ليس صحيحاً، وأنّ الأمر جرى التزيّد فيه وتضخيمه، ليصبح الألوفا من الجنيهاات، وهو في حقيقة الأمر خمسة وعشرون جنيهاً، فكان كما يقول كرد علي: «واستحى الأمير فيصل أن يعود معي إلى موضوع المجمع وإسرافي بماله، عقبى وقوفه على حقيقة ما أنفقت، وما خفتُ الله فيه»^(٣).

واللافت للنظر، أنّ ردّ كرد علي على الأمير فيصل، كان ردّ الواثق من نفسه، ومن عمله، ولكنّه مع ذلك لا يخفى تحسّسه وتأثره من هذا الاتهام، وبخاصة عبارة «خفت الله فيه»؛ أي في إنفاق مال المجمع الذي هو مؤتمن عليه.

والثاني: علي رضا الركابي الحاكم العسكري ورئيس الوزراء فيما بعد: وقد لام كرد علي على تعجّله في شراء الأثار والمخطوطات، يقول: «قلتُ للركابي وهو يعذلني

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٩.

(٣) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٩.

على تعجُّلي في شراء الآثار والمخطوطات وغيرها»^(١)، ونلاحظ هنا أن كرد علي قد استخدم لفظة (العذل) التي تعني اللوم، ولكنها أشد قوة من اللوم؛ لأنَّ العذل: «الإحراق، فكأنَّ اللائم يتحرق بعذله قلب المعذول»^(٢). ممَّا يدلُّنا على حرقة كرد وأسفه على ما بدا من الركابي صديقه القديم، والرجل القوي في الدولة، وصاحب الفضل في تأسيس المجمع، ودعمه عند قيامه، علماً بأنه لولا إخلاص الركابي، ورغبته الحقيقية في تأسيس المجمع لما كان مجمعُ بدمشق، وربما تأخر بعد ذلك قيام المجمع العربية نصف قرن في الأقل.

أمَّا ردُّ كرد علي الركابي، فقد كان ردًّا منطقيًّا متسلسلاً يقوم على إيراد الحججة، والإقناع بها، بعد المقدمات الواضحة، مع مراعاة التأثير في عاطفة المخاطب، يقول: «إنَّ من الأمور ما يجب عمله بسرعة، ومنها ما يتحتم التريثُ به، وشراء الآثار والمخطوطات من الأمور التي تستدعي العجلة؛ لأنَّ تجَّارها آخذون بتلقُّطها من كلِّ مكان، فلا يبقى إلا التافه بعد برهة قصيرة، ونحن عازمون أن نؤسِّس متحفًا، ودار كتب، تليقان باسم دمشق التاريخي»^(٣). ولا ننسى أن الركابي كان من رجالات دمشق المعدودين منذ أيام الدولة العثمانية، ولا شك في عشقه لدمشق تاريخًا وحضارة وموطنًا.

ولم يكتفِ كرد بذلك الردِّ المقنع، بل ذكَّر الركابي بأنه قبلَ الدخول في الحكومة، نزولاً عند رغبته، وبناءً على إلحاحه، وشرط عليه يومها، أن يشدَّ أزره، ويعاونه على تأسيس المجمع ما دام في الحكم^(٤).

وعندما رأى كرد علي عبوس الركابي وتقطيبه، استشاط غضبًا من سلوكه، وقال له: «إنَّ هذا الكرسي الجالس عليه - في مكتبه بدار الحكومة - لا يبقى لك، وهزرتة هزة

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٨.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، (مادة: عذل).

(٣) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٩.

(٤) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٩.

عنيفةً، فأعني أعمل في هذه الفرصة السانحة»^(١). وقد يظنّ بعض القراء، أنّ ما قاله كرد للركابي مشكوكٌ في صحته، وأنّه لا شاهدَ عليه، ولكنّ القارئ لسيرة كرد التي دوّنها في مذكراته، وما عرف عنه من صدق وجرأة في القول والعمل، وما رُوي من أخباره، يوقن بصحة ما ذكره عن موقفه مع الركابي، ويؤكّد لنا ذلك ما ذكره كرد عن أخلاق الموظفين والوزراء، المبنيّة على المصانعة والنفاق لمن هم فوقهم؛ خوفاً منهم، وحفاظاً على مصالحهم، ولكنّه يسخر من هذه السلوكات غير السوية التي تؤثر المصلحة الفردية على مصلحة الوطن والأمة، يقول: «ما تبدّلت أخلاق العمّال في أدوار ثلاثة، في دور الترك، ودور الفرنسيين، ودور العرب، كان الموظف في هذه العهود مهما علت منزلته، يصانع رئيسه، ولا يراجع في أمر، مخافةً أن يعدّ صاحبه ذلك تطاولاً عليه فيغضب، وكنت إذا قلت لأحدهم: هذا أمر تقرّر على ما يظهر بلا بحث ولا نظر... وهذا الخلق مائل في الوزراء، وضرره منهم أشدّ، أنعم وأكرم بهؤلاء الأوفياء لمصلحتهم الخاصة فقط»^(٢).

والثالث: ناظر المالية صدقي سعيد شقير: الذي ناقش معه كرد علي أمور المجمع، فما كان من شقير إلا أن «عرّض بشراء الآثار، وقال: إنّه ليس من الحكمة أن يُصرف في جلب حجر مثلاً خمسة آلاف جنيه، والحكومة تحتاج إلى مسائل أهمّ بكثير الآن، فلم أفهم مراده؛ لأنّه لم يصرّح بأنّي أنا الذي أنفقت خمسة آلاف جنيه على أحجار تدمر، وكانت المناقشة بعيدة المرمى، عبارة عن درس مالي، صدر عن رجل مقتصد، إلى رجل قد يوصم بالإسراف في أموال الدولة»^(٣).

ويذكر كرد أنّه لم يعدّ لمناقشة موضوع المجمع مع شقير، الذي يبدو أنّه بلغ مسامعه إسراف كرد علي في مال المجمع، ولكنّ ناظر المالية لم يراجع الحسابات المالية الموجودة لديه عن المجمع؛ للتأكّد من مبالغها وطرق إنفاقها، ولذا فإنّ ما قاله

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٧٠.

(٣) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٨٠.

شقيق عن المجمع كان مبنياً على الأقاويل والإشاعات، والأخبار المرسلة، التي ربما كان أكثرها مدسوساً أو مُلَفَّقاً، ولم يبين شقيق حكمه على أساس ما لديه من سجلات رسمية، تتعلّق بنفقات المجمع، ومشترياته من مخطوطات وآثار، علماً بأنّ شقيق في توصياته لإصلاح ميزانية الحكومة، وتحقيق التوازن بين المدفوعات والواردات، لم يُشِرْ من قريب أو بعيد للمجمع، «واقترح إجراء تخفيضات في الميزانية بإنقاص عدد الجيش، والدرك، وإنقاص نفقات فيصل الشخصية...»^(١).

ولو وجد شقيق شيئاً مدخولاً في نفقات المجمع، لضمّنه تقريره، ولما حابى كرد أو جامله في ذلك، علماً بأنّ هذا التقرير طال نفقات الأمير نفسه، ممّا يدلّ على شفافية هذا التقرير وحياده ومصداقيته.

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّنا نخلص إلى الآتي:

أولاً: إنّ القول بأنّ كرد علي قد أسرف في الإنفاق على شراء العاديات والمخطوطات، وبدّد الآلاف من الجنيهات في هذا الباب، كان وهمّاً من الأوهام، وخبراً ملَفَّقاً مبنياً على الدسائس والإشاعات، ولم يكن قولاً صحيحاً يعتمد على الوثائق المالية التي لا يمكن التلاعب بها. وقد تبينّ للأمير فيصل الذي وقف على حقيقة الاتهام، أنّ المبلغ المصروف يقلّ عن خمسة وعشرين جنيهاً، وناظر المالية لم يجد أية شبهة مالية عند المجمع، والركابي اكتفى بعتاب كرد علي شراء الآثار والمخطوطات.

ولو أنّ كرد كان مبدراً في أموال المجمع لشراء الآثار، لما سلم من التشنيع عليه من خصومه الحزبيين، الذين كانت لهم سطوة وقوة في الحكومة، ولأطلقوا عليه سهام الأفلام المؤيِّدة لهم، علماً بأنّ موضوع الآثار كان من المواضيع الحسّاسة لكثرة المستفيدين من الاتجار بها وتهريبها، وقد ذكر لنا كرد علي في مذكراته، ما يدلّ على تشنيع الناس على من لديه شبهة في موضوع الآثار، وأورد لنا خبراً عن عبد الرحمن الكيالي، وزير المعارف والعدل في حكومة جميل مردم بك، فقد زار الوزير كرد علي

(١) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص ٢٢٠.

في بيته، وقال له: «إنّه اتصل بي من مصدر وثيق، أنّ الأمير جعفر الحسيني مدير دار الآثار، يتجر بالعاديات بصورة غير محلّلة؛ أي يسرقها، فتأثرت لهذا الكذب الصراح، وقلت: إنّ الأمير يقلّ من يضارعه في نزاهته من عمال الجمهورية، ولو كان يستحلّ أن يسيء استعمال وظيفته، لعدّ اليوم من كبار الأغنياء، وإذا أنا سرقت فيكون جعفر قد سرق، وسراق الآثار والمتجرون بها يتهمون الأستاذ الحسيني بهذه التهمة الشنعاء؛ لأنه سلّم بعضهم إلى القضاء؛ لمحاولتهم إخراج آثار سورية إلى خارج الحدود»^(١).

ومرّ بنا سابقاً، أنّ كرد علي هو الذي أشار على الأمير فيصل بتأسيس دار للآثار، تحفظ بها آثار بلاد الشام التي تفرّقت أيدي سباً بعد أن كثرت الحفريات الأجنبية، وحفريات سراق الآثار، وسُرقت هذه الكنوز الثمينة التي هي الشواهد المادية على ما مرّ بهذه البلاد من حضارات، فاستجاب الأمير لمقترح كرد علي، وأصدر الركابي الحاكم العسكري قانوناً لحماية الآثار، ثمّ ألحقت مهمة الإشراف الفني عليها بالمجمع، الذي أصبح شوكة في حلق الانتهازيين المنتفعين من هذه التجارة الرائجة، ولذا فإنّ كرد علي - بلا شك - كان واحداً من أخصامهم، وممن طاردوا تجارتهم قانونياً، وأضحت دار الآثار في المجمع مباءة للآثار.

ولذلك فإنّه ليس من المستغرب نشر إشاعة إسراف المجمع، وتبديده للأموال في شراء الآثار من قبل المنتفعين والمهريين والمتاجرين بالآثار، قياساً على الخبر السابق الذي رواه كرد علي عن الكيالي وزير المعارف والعدل.

ثانياً: إنّ عمل المجمع في البحث عن الآثار وشرائها، كان عملاً مؤسسياً دقيقاً، يتمّ من خلال اللجان، ممّا يعني عدم وجود الإسراف، وينفي شبه الفساد المالي، فهناك لجنة من المختصين والخبراء في معرفة الآثار، وتقدير قيمتها الأثرية والمالية، وكانت هذه اللجنة تجتمع مرتين أسبوعياً في المجمع؛ للنظر فيما يعرض عليها من القطع الأثرية.

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١٣، ص ٨١٠-٨١١.

وهناك لجنة ثانية تبحث عن الآثار خارج دمشق، وتجلب ما يمكنها جلبه منها، وتكتب التقارير عن جولاتها في البلاد، وتدوّن الملاحظات عن رحلاتها، ولجنة ثالثة تتقصى الآثار في دمشق، وتزور الأبنية التاريخية، من مساجد، ومدارس، وترب، وتكاي، ومقامات، وبيوت قديمة، وتنسخ ما تجده من الكتابات والنقوش^(١).

ثالثاً: إنَّ محمّد كرد علي قد ردّ تهمة الإسراف في الإنفاق على الدولة نفسها، التي رأت فيما أنفقه المجمع على ابتياع الآثار والمخطوطات تبذيراً، وقال للركابي رجل الدولة: «وأموال الدولة تُبدّد، واحسب ما يأخذه المجمع من بعض ذاك الإسراف، ثم تشهد النتيجة»^(٢).

ولا مندوحة لنا من السؤال هنا، هل كانت أموال الدولة تُبدّد فعلياً؟ وفي أيّ الأبواب كانت تُبدّد، إن صحّت مقولة كرد علي؟ وهل كان هناك إسراف وتبذير في نفقات الدولة ومصروفاتها؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال الخطير، الذي يتضمّن صيغة الاتهام لرجال الدولة بتبديد أموالها، وكثرة نفقاتها ومصاريفها التي يمكن الاستغناء عنها، لا يكون إلا بالرجوع إلى مصادر ذلك العصر، ومن حسن الحظ أنّ بعض أصحاب هذه المصادر، كانوا جزءاً من الجهاز الإداري والمالي والعسكري في الدولة نفسها.

لقد كانت مصادر دخل الحكومة متعددة، وتأتي من: الضرائب على العقارات، والرسوم في المحاكم، ورسوم الطوابع، وما يُدفع على الماشية وغير ذلك، وعلمنا سابقاً أنّه قد تمّ رفع الضرائب بنسبة قد تصل أحياناً إلى مئة في المئة، ولكنّ أهمّ مصادر دخل الحكومة كان من المبالغ التي تعهّدت القيادة العامة للحلفاء بدفعها إلى الحكومة العربية، بدلاً من الضرائب الجمركية التي تستوفى في الموانئ اللبنانية

(١) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي: «نشأة المجمع العلمي العربي»، ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، المجلد ١، ص ٤.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٩.

والفلسطينية التي يسيطر عليها الإنجليز والفرنسيون، وكان الإنجليز يدفعون مبلغاً وقدره مئة وخمسون ألف جنيه مصري، والفرنسيون يدفعون مثلها شهرياً، ولكنهم بدأوا يترددون في دفع المبالغ كاملة مع نهاية عام ٢٠١٩م، بعد انسحاب جيوش الحلفاء من المنطقة الشرقية (دمشق، حلب، حمص، حماة، الأردن).

وكانت هذه الأموال تُسلم للأمير فيصل؛ لكونه ممثل القيادة الحليفة في سوريا، ويقوم الأمير بتسليمها إلى (الموظفين المختصين)، بعد أن تُقتطع منها نفقات الأمير، وما تستلزمه الأعمال الوطنية، التي ليست من اختصاص الحكومة، كالدعاية الوطنية، واستمالة الأشخاص المزعزي الإيمان الوطني، ولا سيما في الساحل»^(١).

وقد قدّر أحد الباحثين الغربيين^(٢)، أنّ المعونة التي تدفعها القيادة العامة للحلفاء، تعادل (٧٥٠,٠٠٠) دولار، يُخصص منها مئتا ألف دولار لنفقات الأمير الشخصية، ويبدو أنّ هذا المبلغ الذي يُشكّل ثلث ما يدفعه الحلفاء، لم يكن كافياً لنفقات الأمير، التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم، فقد جاء في مجلة المنار: «... ومع هذا أمكن لحكومة الاستقلال، أن تقيّد الملك براتب محدود، لم يكن راضياً به على كثرته، وكان يستهلك راتب كلّ شهر في أوله، أو قبل بُدو هلاله، ويطلب من وزارة المالية سلفةً بعد سلفة، فلا ينال ما يطلب، ولا أكثره بسهولة، وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها»^(٣).

ويشكو محمّد رشيد رضا، وهو من رجال ذلك العهد، والعارفين بأسراره وخفائاه، من فساد بعض الموظفين في بلاط الأمير، إذ وصلت الجرأة بأحدهم إلى حدّ سرقة دفتر الخزينة الخاصة غير مرة، ومع ذلك لم يتخذ أيّ إجراءٍ أو عقوبةٍ ضدّه - ويبدو أنّه كان معروفاً - يقول رضا: «وأغربُ من هذا أنّ بعض الموظفين في بلاط الملك، سرق

(١) قدرى، أحمد: مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١١٦.

(٢) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص ٢٢١ (حاشية ٣ نقلاً عن Howard).

(٣) رضا، محمّد رشيد: (الرحلة السورية الثانية)، مجلة المنار، ١٩٢٢م، المجلد ٢٣، ص ٣١٤.

دفتر الخزينة الخاصة مرتين، ولم يشك أحدٌ علم بذلك في سببه... ولم يُعاقب، بل لم يُحاكم، بل لم يجرِ في البلاط تحقيقٌ بشأنه»^(١).

ويؤكد على وجود الإسراف والسرقة في قصر الأمير فيصل، يقول: «وكان الإسراف في قصره كثيراً، وفيه سرّاق من كلِّ صنف، وأناسٌ لا يهتمّون لغير مصالحهم»^(٢)، وإذا كان هذا هو الحال في قصر الملك الذي يبدو أنّه لم يكن قادراً على ضبط من لا يخافون الله في قصره، فما هو الحال في بقية دوائر الحكومة؟!

أمّا الباب الثاني من أبواب النفقات، فهو الدعاية الوطنية، التي يظهر أنّها كانت تحتاج إلى الكثير من المال، وقد قامت الحكومة العربية بدعايتها الوطنية من خلال النوادي والجمعيات، ودور الاعتماد والصحافة التي كان منها:

أ- دار الاعتماد العربي في بيروت: وقد أقامت الحكومة العربية، ويرأسها ضابط عربي لتكون مقابل دار الاعتماد الفرنسي في دمشق، التي يرأسها ضابط فرنسي، وكانت دار الاعتماد العربي في بيروت التي تخضع للاحتلال الفرنسي، بمثابة السفارة ودار الحكومة بالنسبة للمسلمين، الذين ترفض أغلبيتهم الاحتلال الفرنسي، وتريد الانضمام لأمّها دمشق، في حين أنّ غالبية الموارنة والكاثوليك كانوا مشايعين لفرنسا، وراغبين في انتدابها، أمّا الأرثوذكس، فقد كانت ميولهم عروبية، وكانت الحكومة العربية تعزّز ميلهم العروبيّ بالدعاية والمال والتشجيع، ممّا كان له أكبر الأثر في موافقتهم وموالاتهم للحكومة العربية.

إنّ نفقات الحكومة العربية على النوادي والجمعيات -التي يبدو أنّها كانت كبيرة- كانت رداً على عمل الاستعمار الفرنسي، الذي جعل من دار الاعتماد الفرنسي بدمشق مركزاً لاستقطاب العملاء الموالين لفرنسا، التي تغلّغت دعايتها في كثير من نواحي الشام، وأصبحت بعض الزعامات المحلية ممّن باعوا أنفسهم وأمتهم للغزاة،

(١) رضا، محمّد رشيد: (الرحلة السورية الثانية)، مجلة المنار، ١٩٢٢م، المجلد ٢٣، ص ٣١٧.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٣١.

يتظاهرون بالولاء لفرنسا، ويعلنون تأييدها، ويطالبون بوصايتها على كلّ الشام، وكان ذلك «نتيجة لما كانت دار الاعتماد الفرنسي تقدّمه من مكافآت، ثم صار يذهب بعض أقارب هؤلاء وغيرهم إلى بيروت، فتغدق عليهم السلطات الفرنسية المال والثياب، واتّسع الأمر حتى صرنا نرى المئات يذهبون أسبوعياً إلى بيروت، ويعودون بالأموال والهدايا»^(١).

لقد أدركت الحكومة العربية خطرَ ما يقوم به الانتداب الفرنسي، من إفسادٍ للذمم وشراءٍ للولاء، وتجنيدٍ للمرتزقة والعملاء، وكلفت الأمير عادل أرسلان بمعالجة هذا التخريب الفرنسي، ولكنه عجز عن ذلك^(٢).

وفوق ذلك، فإنّ سلطات الانتداب الفرنسي كلّفت المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون، العارف بأحوال الشرق العربي، بأمرِ استمالة الناس للانتداب الفرنسي، وأمدّته بالأموال الطائلة التي أغدقها على بعض الرؤساء الروحيين والصحفيين والأدباء، وسخّرهم لخدمة هدف فرنسا في سلخ جبل لبنان، والأقضية والنواحي التي لم تكن مرتبطة بالجبل عن سورية^(٣).

وكان ردّ الحكومة العربية هو دفع المال ودعم المؤيدين لها، وتثبيتهم على موقفهم الوطنيّ إزاء كلّ العروض والإغراءات المادية الضخمة، التي تعرضها سلطة الانتداب الفرنسي، وهذا ما عبّر عنه أحمد قدري، يقول: «... استمالة الأشخاص المزعزعى الإيمان الوطني، ولا سيما في الساحل»^(٤).

لقد شعر الإنجليز والفرنسيون بأثر هذه الدعاية الوطنية في تعطيل مشروعهم العدوانيّ الهادف إلى تمزيق بلاد الشام إلى دويلات، وخلق ما يسمّى بلبنان الكبير،

(١) دروزة، محمّد عزة: مذكرات محمّد عزة دروزة، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ج ١، ص ٣٨٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٣) انظر: الألوسي، جمال الدين: محمّد كرد علي، ط ٢، وزارة الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) قدري، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١١٦.

فأرسل اللنبي خبيراً فرنسياً، وآخر إنجليزياً بحجة تنظيم ميزانية الحكومة العربية، ثم استدعى الإنجليز خبيرهم، وبقي الثاني، ويعلّل أحد الباحثين الغربيين ذلك، بأنّ الحكومة العربية لم تستفد من الخبير الفرنسي لمعارضة الركابي، الذي رفض أن يقدم له الحسابات اللازمة... بل قدّم له سجلات مزيفة؛ بسبب أنّ قسماً كبيراً من المعونة الشهرية للحكومة، ينفق على الدعاية ضد فرنسا... وهذا ما عرقل مهمته من أجل دراسة الوضع المالي، ووضع ميزانية معقولة^(١).

ويبدو أنّ الركابي شعر بأن وجود الخبير الفرنسي يمثل تدخلاً سافراً في شؤون الحكومة العربية؛ لذلك قدّم له السجلات الماليّة المزيفة، وقرّرت الحكومة العربية الاستغناء عن الخبير الفرنسي، واستعانت بخبير لبناني قام بتقديم عدة حلول، منها: تقليص الجيش والدرك، وتخفيض ميزانية الملك، ووقف المساعدات المالية والعسكرية التي تقدّم للحجاز^(٢).

ب- النادي العربي: إذ أسست الحكومة العربية النادي العربي بدمشق، وله فروع في حلب وكبرى المدن الشامية الأخرى، ولما كان النادي المقام بدمشق هو أكبر هذه النوادي، أُعدّ ليكون بمثابة البيت القومي لعناصر جمعية العربية الفتاة، التي جعلت من النادي واجهة علنية لها، وفيه يستقبل ضيوف الجمعية وأنصارها^(٣).

وقد ركّز النادي الأدبي على عنصر الشباب الذين تجري تعبئتهم بالروح الوطنية، ويستمعون إلى ما يلقى فيه من خطب ومحاضرات، وما يُعقد من ندوات ومناقشات سياسية وفكرية؛ لتأهيلهم وتحضيرهم سياسياً وفكرياً للمستقبل^(٤).

(١) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص ٢٢٠-٢٢١.

(٣) الريماوي، سهيلة: الحكم الحزبي أيام العهد الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠م، ط ١، مكتبة مجدلاوي، عمان، ١٩٩٧م، ص ٣٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٥.

وقد اختارت الحكومة العربية الخطابة والخطباء في نادي دمشق؛ ليكون التأثير قوياً في شبيبة النادي، واهتمت باختيار خطيب مفعوه من علماء الدين؛ لقوة تأثير علماء الدين في المجتمع آنذاك من ناحية، ولتجنب الصدام بين الأفكار القومية والوطنية التي تطرح في النادي، مع الأفكار المتوارثة منذ قرون، القائمة على الرابطة الدينية، دون غيرها من الروابط من ناحية أخرى، يقول أحمد قدري: «وكان لولب النادي العربي في دمشق، الشيخ عبد القادر المظفر اليافي المولد، وكان المظفر خطيباً كثير النشاط، دأب الحركة، منتسباً لعلماء الدين، الأمر الذي سهّل عليه القيام بواجبه في النادي، وترويج الدعاية الوطنية التي كانت الظروف تستوجب اتباعها»^(١).

ولم تقتصر سياسة النادي الأدبي على الاستعانة بالخطباء من المسلمين فحسب، بل استعانت بالخطباء المسيحيين؛ لترسيخ الروح الوطنية، وبث النزعة القومية في المجتمع. فقد ذكرت (العاصمة) الجريدة الرسمية، خبر شروع الخطيب المصقع، الخوري يوسف اصطفان، في إلقاء سلسلة محاضرات في النادي العربي على «أهل الصناعات، طائفة بعد طائفة، يبين لهم فيها معاني العاطفة الوطنية، وتأثيرها في حياة الأمم، وواجبات السوريين على اختلاف مذاهبهم نحو وطنهم، وحفظه من التجزؤ والتقسيم...»^(٢). علماً بأن هذه المحاضرات الهادفة إلى تعزيز النزعة الوطنية، وغرس الروح القومية، كانت تلقى في الوقت الذي كثر فيه الاستعمار الفرنسي عن أنيابه، وكشف عن تعصُّبه البغيض بمنع خطباء المساجد في بيروت والساحل من ذكر الحسين بن علي -زعيم الثورة العربية- والدعاء له في خطبهم في المساجد، كما أنهم حرّضوا صحفهم المأجورة على اتهام الحكومة العربية بدمشق بالتعصُّب^(٣).

(١) قدري، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١١٧.

(٢) انظر: جريدة العاصمة، ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ / ١٨ أغسطس سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٥١، ص ٢؛ جريدة العاصمة، ٦ ذي الحجة سنة ١٣٣٨هـ / ١ أيلول سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٥٥، ص ٤.

(٣) انظر: جريدة العاصمة، ١٧ رمضان سنة ١٣٣٧هـ / ١٦ حزيران سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٣٥، ص ٣.

وكانت الحكومة العربية تعلن عن سياستها وأهدافها من خلال هذه النوادي الأدبية، وعندما قام الأمير فيصل بزيارته لمدينة حلب في شهر حزيران عام ١٩١٩م، ألقى خطابه المشهور في النادي الأدبي بحلب، ومما جاء فيه: «... وكنا نودُّ أن يكون الكلام في غير هذا النادي الذي لم يُعد إلا للعلم والأدب، والخطابة الاجتماعية، إلا أنني اضطررتُ إلى الكلام فيه، إذ لم يتيسر أوسع منه...». واعتذار الأمير فيصل، لا يدفع عن النادي الغرض الأساسي الذي أقيم من أجله، وهو التوعية الحزبية عن طريق المحاضرات والخطب.

وكان النادي يُقيم الحفلات التكريمية والتوعوية للوجهاء، وشيوخ القبائل، والزعامات المحلية، من مختلف أرجاء بلاد الشام. وقد أقام النادي الأدبي بدمشق حفلاً تكريمياً في شهر كانون الأول عام ١٩١٩م، وجاء في جريدة العاصمة، ما نصّه: «أقام النادي العربي مساء الثلاثاء الماضي، حفلة تكريم لآل الفائز الكرام، زعماء بني صخر، ولحضرات زعماء بني حسن الأماجد، ومشايخ المحارمة والغنيمات، ولوجهاء عمّان والسُّلط، ورؤساء الشراكسة في تلك الجهات، وغير هؤلاء من سراة القنيطرة والجولان، فكانت فريدة في بابها، بما تجلّى فيها من الشعور الوطني الصادق، وعقد فيها من عهد الشرف الوثيقة»^(١).

وفوق ذلك، فإن أعمال النوادي قد اتسعت، واستقطبت الناهيين من الشبيبة في أغلب المدن الشامية، وزاد الإقبال عليها يوماً بعد يوم؛ لزيادة الوعي بالوطنية، فعقدت مؤتمرها في دمشق في شهر تشرين الأول من عام ١٩١٩م. وقررت الأندية العربية أن يكون كل واحد منها متّحداً مع النادي العربي بدمشق، وأن يكون اجتماعها سنوياً، وأن هدفها جميعها هو إحياء المجد العربي، وأن تصدر مجلة باسم النادي العربي، وأن تُفتح قاعات للقراءة والتعليم في كل النوادي، إلى غير ذلك من القرارات^(٢).

(١) جريدة العاصمة، ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ / ٤ كانون الأول سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٨١، ص ٤.

(٢) انظر: جريدة العاصمة، ١٤ محرم سنة ١٣٣٨هـ / ٩ تشرين الأول سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٥٦، ص ٥.

ج- جمعية النهضة الأدبية: يبدو أنّ مجموعة من وجهاء دمشق قد قاموا بتأسيس هذه الجمعية، بوحى من جمعية العربية الفتاة، وكان سامي البكري رئيساً لهذه الجمعية، التي تضمّ عدداً من الوجهاء والشيوخ والمتعلمين بدمشق، وعندما أقيمت حفلة الجمعية في شهر أغسطس من سنة ١٩١٩م حضرها الأمير فيصل، والحاكم العسكري، والأمراء، ورهط من أهل العلم والأدب، وقرأ الشيخ عبد القادر الخطيب، أحد الأعضاء المؤسسين للجمعية، شكر الجمعية الأمير فيصل على قبوله للرئاسة الفخرية للجمعية^(١).

والظاهر أنّ هذه الجمعية كانت موضع نظر الأمير فيصل، ومحلّ رعايته المعنوية والمادية، وعندما أصبح ملكاً أزرها بقوة، ويدلُّ على ذلك ما قدّمه لها من دعم ماليّ سخّيّ، فقد نشرت الجريدة الرسمية خبر تبرّع الملك للجمعية: «أنعم جلالة ملك البلاد السورية على (جمعية النهضة الأدبية) بمئتي جنيه، تُصرف في سبيل غايتها الحسنة، ومقاصدها النافعة، وخصّص لها -أيّده الله- في كلّ شهر خمسين ليرة مصرية، تُعطى من جيبه الملكي الخاصّ، فجمعية النهضة الأدبية تسدي جلالته واجب الشكران، وتفخر أنّ كلّ هذه المنحة السامية مسبوقه بعناية خاصة من لدن جلالته بها، ووقوف تامّ على نياتها، ومشاهدة ذاتية لمسير أحوالها، ولا غروّ فهي حسنةٌ من حسناته، وأثرٌ من آثاره التي ينويها لهذا الوطن المحبوب»^(٢).

د- الجرائد والصحف: يبدو أنّ حزب العربية الفتاة، قد شجّع بعض الصحفيين الموالين له، أو هم من أعضائه على إصدار عدد من الجرائد منها: جريدة (الاستقلال العربيّ) التي كان معروف الأرنؤوط رئيساً لتحريرها، وجريدة (المفيد) أصدرها يوسف حيدر، وخير الدين الزركلي، وجريدة (القلم) التي أصدرها عجاج نويهض، وعبدالله النجار، وجريدة (القدس الشريف) لحسن صدقي الدجاني،

(١) انظر: جريدة العاصمة، ١١ ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ / ٧ أغسطس سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٤٨، ص ٥.

(٢) جريدة العاصمة، ١٧ رجب سنة ١٣٣٨هـ / ٥ نيسان سنة ١٩٢٠م، السنة الأولى، العدد ١١٤، ص ٦.

وجريدة (الفجر) التي أصدرها المحامي توفيق الناطور، وكانت هذه الجرائد يُعلن عن صدورها في الجريدة الرسمية، التي كانت تردف الإعلان عن صدورها بالعبارة التالية: «نرجو لها سعة الانتشار في خدمة الجامعة العربية»^(١).

وكانت هذه الجرائد تتصدى لمن يهاجمون الرابطة القومية، والجنسية، واللغوية للأمة العربية، فبعض المُدرّسين -ممن تأثروا بالدعاية الفرنسية- كانوا يغرسون في أذهان طلابهم أنهم فينيقيون وآراميون، وأنّ دماءهم ممزوجة بالدماء اليونانية والرومية، فردّت جريدة (المفيد) ذلك، وندّدت «ببساطة الذين تخفى عليهم مرامي الجانحين إلى هذه الأقوال الباطلة، فيتشدقون بها، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا»^(٢).

وردّت عليهم أيضاً جريدة (الاستقلال العربي) التي صدرت أعدادها بمقالة عنونها بـ «نحن عرب ليحيى العرب»، مُبيّنة في مقالها أنّ الفينقيين هم أجداد السوريين، وأنّ الفينقيين يعودون في أصلهم إلى جنوب جزيرة العرب، وكذلك فإنّ الآراميين الذين جاءوا من العراق، يعودون في أصلهم إلى جزيرة العرب^(٣).

ويشير محمّد عزة رزوة في حديثه عن خير الدين الزركلي، إلى تلقي جريدة (المفيد) المساعدات المالية من جمعية العربية الفتاة السريّة، ومن الدولة أيضاً، يقول: «ولمّا قام عهد فيصل، اندمج فيه ونشط، وانضمّ إلى جمعية الفتاة، واشترك مع يوسف حيدر، الذي كان هو الآخر قد انضمّ إلى هذه الجمعية في إصدار جريدة (المفيد)، التي كانت لسان حال الجمعية بصورة غير رسمية، وكان [الزركلي] قويّ القلم، لاذع النقد، وكانت الجريدة تتلقى بعض المساعدات المالية من صندوق الجمعية، وبواسطتها من خزينة الحكومة»^(٤).

(١) جريدة العاصمة، ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٧هـ / ٢٧ حزيران سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٣٨، ص ٤.

(٢) جريدة العاصمة، ١١ ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ / ٧ أغسطس سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٤٨، ص ١.

(٣) انظر: المصدر السابق، العدد ٤٨، ص ١.

(٤) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، المجلد الأول، ص ٤٠٣.

واللافت للنظر، أن الزركلي كان سكرتيراً لهيئة جمعية العربية الفتاة، وكان شاهد عيان على نشاطاتها التي جعلت بعض الصحفيين يُصدرون صحفهم بدعم من الجمعية، التي تمدهم بالدعم المالي؛ لتكون صحفهم لسان حال الحكومة، بصورة غير رسمية؛ كيلا يحسب كل ما تنشره الصحف على أنه رأيها، بينما تقوم بتحريكهم، وإطلاق ألسنة أقلامهم دفاعاً عنها، ودعاية لسياساتها وأهدافها، وهو أمر مشروع، ولكن المؤسف أن هذه الأموال تُبذل بسخاء على رجال الصحافة، وتُحجب عن دعم المجمع.

وبناءً على ما تقدّم، فإن ما أنفقته الحكومة العربية على النادي العربي بفروعه المتعددة في بلاد الشام، وعلى مؤتمراته وحفلاته ومحاضراته، وضيوفه، ونفقات مقرّاته، ورواتب العاملين هو - بلا شك - مبالغ ضخمة في مقاييس ذلك العصر. وفوق ذلك، فإنّ مخصصات جمعية النهضة الأدبية، وما أُغدق عليها من إعطيات وتبرّعات، يمكن أن يُلحق بنفقات النوادي الأدبية، إضافةً إلى ما أنفق في الدعاية الوطنية، وما دفع من الهبات والعطايا، لغاية استمالة الأشخاص الذين وسموا بـ «المزعزعى الإيمان الوطني في الساحل والداخل».

ويتبين لنا ممّا ذكر آنفاً، تنبيه خبراء المال على إسراف الحكومة في المال العام، ودعوا إلى إنقاص نفقات الملك التي ربما أُعطي أغلبها لتأليف قلوب الزعامات المحليّة، وشيوخ العشائر، ووجهاء المدن، وكبار الضباط وغيرهم، ممّن اعتادوا على أخذ المال من الدول، وكانت لهم شرهات وعطايا ومنح، يقدمها الأمير جذباً لهم، وتصديداً للفرنسيين الذين يحاولون شراءهم.

وكلّ ما تقدّم يُعلّل لنا سرّ غضب كرد علي من الركابي عندما عطل المجمع، وممّا قاله كرد له في ذلك المقام دفاعاً عن مؤسسة المجمع: «... إنّ هذا الكرسي الجالس عليه - في مكتبه بدار الحكومة - لا يبقى لك، وهزته هزة عنيفة، فأعني اعمل في هذه

الفرصة السانحة، وأموال الدولة تُبدد، واحسب ما يأخذه المجمع من بعض ذلك الإسراف، ثم تشهد النتيجة»^(١)

فالمسألة المالية، وفي ضوء ما تقدّم عرضه من كثرة أبواب النفقات، التي يمكن أن يكون بعضها نافعاً ومهماً في تدعيم الدولة العربية، وتوطيد أركانها، ليست هي الحُجّة المقنعة في تعطيل المجمع، الذي يُعدُّ بقاؤه أهمّ وأنفع من بعض هذه النفقات؛ لأنّ المجمع مؤسسة حيوية لخدمة الدولة، التي تقوم دعامة الوطنية عندها على أساس اللغة، والتي تريد أن تنفض عن بلاد الشام غبار سياسة التتريك بل سوادها، والمجمع هو الرافعة الأساسية، والعقل المخطّط والفاعل لنهضة اللغة في دواوين الدولة، وصحافتها، ومدارسها، ومعاهدها العلمية، وإصلاح ما خلفته سياسة التتريك.

وفوق ذلك، فإنّ اللغة العربية هي الأساس الفكري الذي يوحد أبناء الوطن الواحد، ويعزز أواصر الترابط بينهم، وحبّ العربية هو الطريق القويم لمن يفضل استقلال بلاده، ويرفض استعبادها واستعمارها من الغزاة والمحتلين، وحاجة الأمة الواحدة إلى المجامع اللغوية كحاجتها إلى استقلالها وتحرّرها، وضرب المجمع يعني ضرباً للروح الوطنية، وهدمه يُعدُّ هدماً لأهمّ قواعدها وأركانها، وبخاصة أنّ الفرنسيين الذين يريدون تحطيم استقلال البلاد، يرسخون، بكلّ قوة، وجود لغتهم، التي بدأت تُفرض بالقوة في المحاكم، وجُعِلت لغةً رسميَّةً للمحامين في لبنان.

وقد نشرت جريدة (العاصمة) عتاباً ولوماً، بل توبيخاً تحت عنوان «إلى شبيبة لبنان: تذكروا أنّكم لبنانيون، وأنّ العربية لغة لبنان، كيف تعملون على استبدالها لتجعلوا سواها لغةً رسميَّةً في لبنان؟ كيف تعملون على تعميم فنّ المحاماة بلغةٍ ليست بلغتكم، ولا شريعتكم شريعتهَا؟»^(٢).

(١) كرد علي، المذكرات، ٢٧٩/١.

(٢) جريدة العاصمة، ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ/ ١٥ كانون الأول سنة ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٨٤، ص ٥.

المبحث الثالث

الأسباب السياسية

لفضّ المجمع وخلفياتها الحزبية

إنَّ الوقوف على حقيقة الأسباب السياسية ومناقشتها ولا سيما ما تعلق منها بالمجمع، يستدعي الوقوف على ما قاله كرد بهذا الخصوص من جانب، والتحقق من علاقاته بكبار بعض السياسيين في الحكومة العربية، وفحص هذه العلاقات، ومعرفة مجرياتها، والتدقيق في أحوالها وملابساتها من جانب آخر.

وكتب كرد علي ترجمة ذاتية مختصرة، ذيل بها عمله الكبير (خطط الشام)، ومثل هذا النوع من السير الذاتية المختصرة، مألوفٌ لدى كبار المؤرخين في التراث العربي، أمثال: لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة)، والسخاوي في (الضوء اللامع)، والسيوطي في (حسن المحاضرة)، وغيرهم من الأدباء والمؤرخين الذين يكثر خصومهم، وتصوّب إليهم سهام الاتهامات مع بعض أقرانهم وأندادهم.

وكرد في ترجمته الذاتية المكثفة، لا يتعد كثيراً عن أهداف القدماء، وغاياتهم في الترجمة لأنفسهم، فالرجل بقي صاعداً في علمه وأدبه، وأصبح من أعلام الشام في زمانه، ونجح في إقناع الحكومة العربية بأهمية تأسيس مجمع علمي عربي، يعمل على الارتقاء باللغة العربية في أول دولة يكون حكامها عرباً في العصر الحديث. ولكن هذا المشروع الناجح سرعان ما تمّ تعطيله، وهو ما زال في خطواته الأولى التي يبدو أنها أكبر بكثير من عمره القصير.

فقد شرع كرد في تأسيس المجمع في الثامن من حزيران سنة ١٩١٩م، واستمرّ يعمل بدأبٍ متّصل، ونشاطٍ منقطع النظير، وعقد أكثر من سبعين جلسة، وتخير مقرأً عظيمًا للمجمع ولدار الآثار، وأثرى خزانة كتب الظاهرية بنفائس المخطوطات ونوادرها، وأنقذ كثيراً من آثار الشام من أيدي سرّاقها وتجارها - كما أسلفنا -.

ولكن لم تَرُقْ هذه النجاحاتُ الباهرة للمجمع للحاسدين والفاستدين، الذين يسوؤهم النجاح، ويناوئون أهله ورجاله، ولذلك وبعد أقل من ستة أشهر على تأسيس المجمع، تمَّ تعطيله، ووقف اندفاعه وصعوده، يقول كرد في خطته: «وفي آخر تشرين الثاني سنة ١٩١٩م، صدر الأمر بدعوى الضيق المالي، بصرف رئيس المجمع العلمي وأعضائه، إلا عضوين فقط؛ للإشراف على دار الكتب والآثار. وكان ذلك تشفيًا من بعض الأحزاب، التي لم أشأ أن أسايرها على العمياء، ودمتُ منعزلاً في داري...»^(١).

وكي تتمكّن من معرفة تأثير العامل السياسي في تعطيل أعمال المجمع، وصرف رئيسه وغالبية أعضائه، فإنه لا بدّ لنا من تجلية علاقات رئيس المجمع، وعقله المفكر، وقائده المخطّط مع أبرز الأحزاب والتيارات السياسية، ومع العناصر والشخصيات الفاعلة والموجّهة لسياسة الحكومة التعليمية والإدارية آنذاك.

ويمكنّ توضيح ذلك من خلال علاقات كرد علي المتشابكة مع بعض الأحزاب السياسية، التي أشار إلى دورها السلبي تجاه المجمع، ونصّ صراحةً على أنّ فضّ المجمع، وتعطيل مسيرته الناجحة، كان «تشفيًا من بعض الأحزاب، التي لم أشأ أن أسايرها على العمياء»^(٢). وذكر أيضاً أنّ الملك فيصل، قد خذل المجمع بتأثير من «أرباب الأحزاب»^(٣)، علماً بأنّ كرد علي كان عارفاً بأساليب التضييل والانتقام التي يمارسها بعض رجال السياسة^(٤)، وكان حريصاً على أن يُجنّب المجمع الخوض في أمور السياسة، والخلافات المذهبية والعقدية.

والسؤال المطروح الآن: ما هي الأحزاب التي أوقفت المجمع، وتركته مشلول الحركة بعد بضعة أشهر من انطلاقته الموفّقة؟ وما مقصد كرد من قوله: «ولم أشأ أن أسايرها على العمياء»؟

(١) كرد علي، الخطط، ج٦، ص٣٦٢.

(٢) المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٢.

(٣) كرد علي، المذكرات، ج١، ص٢٨٠.

(٤) المصدر السابق، ج٤، ص١٠٦١-١٠٦٢.

إنَّ الإجابة عن السؤالين الآنفين، تتطلب منّا الوقوف على أهمّ الأحزاب القائمة في تلك الفترة، وما هي أهدافها؟ وما مدى تأثيرها في الدولة؟ وهل كان كرد علي منخرطاً في الحياة الحزبية؟

أمّا أهمّ الأحزاب القائمة -آنذاك- ذات التأثير الفاعل بقوة في المشهد السياسي، والتي نرى ضرورة الحديث عنها لقوة ارتباطها بالحديث عن المجمع، ورئيسه الذي يبدو أنه لم يكن على وئام معها، وبخاصة العربية الفتاة، والتي يبدو أنها لم تكن راضيةً عن كرد علي، ومواقفه منذ بداية الحرب العالمية الأولى، وحتى نهاية العهد الفيصلي، ولعلّ الوقوف -ولو بصورة مختصرة- على طبيعة هذه الأحزاب، وأهدافها، وطريقتها التنظيمية، يُلقي لنا مزيداً من الضوء على موقفها من كرد وموقفه منها، وأهمّ هذه الأحزاب:

أ- جمعية العربية الفتاة أو حزب العربية الفتاة

وهي جمعية سرّية، شكّلها مجموعةٌ من الشباب العرب، بعد انقلاب الاتحاديين على السلطان عبد الحميد، وإعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م، والمبدأ الذي تقوم عليه هذه الجمعية هو مبدأ القومية العربية، وأنّ العرب أمة واحدة، لها حقوقها الطبيعية كسائر الأمم، وهدف الجمعية هو نهضة الأمة العربية، حتى تفكّ في مصاف الأمم الحيّة وتلحق بها علمياً وإدارياً واقتصادياً.

وعضوية الجمعية مقصورةٌ على العرب، ومفتوحةٌ أمامهم، وينصّ النظام الداخلي للجمعية، على أنّ القيادة فيها «قيادة مركزية مطلقة جماعية، تتركز بين يدي اللجنة العليا»، ولذا فإنّه يتوجّب على كلّ عضو فيها التقيّد بقراراتها، ولو كانت مغايرة لرأيه^(١).

(١) الريماوي، سهيلة: الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ط١، مجدلاوي، عمان، ١٩٩٧ م، ج١، ص٢٦.

أما الشرارة التي أضرمت نيران الحماس في نفوس الشباب العرب، ودعتهم إلى تأسيس هذه الجمعية، فهي أنه بعد المؤامرة الماسونية اليهودية الكبرى على اقتلاع السلطان عبد الحميد من الخلافة^(١) بأربعة أيام فقط، ظهرت طورانيةً بعض الأتراك بالتهجُّم على العرب، والإساءة إليهم، والتشهير بهم، وبدت بجلاء «حملة شباب الأتراك وصحافتها على رجالات العرب الذين كانوا في حاشية السلطان عبد الحميد، مثل عزت العابد، وأبو الهدى الصيادي، ونعتهم إياهم بنعوت قبيحة، وإطلاقهم هذه النعوت لتصيب العرب جميعاً»^(٢).

ومن أوائل أعضاء جمعية العربية الفتاة: عوني عبد الهادي، ومحمد رستم حيدر، وعبد الغني العريسي، وتوفيق الناطور، وأحمد قدري، الذين جعلوا مقرها في باريس سنة ١٩٠٩م، ثم انتقلت إلى بيروت سنة ١٩١٢م، ثم إلى دمشق سنة ١٩١٤م، وكان للجمعية فروع في كثير من المدن الشامية، إذ نشطت الجمعية في التحري عن الأعضاء الصالحين للانضمام إليها^(٣).

وقد اهتمت جمعية العربية الفتاة، وصول الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق في ١٩ أيلول سنة ١٩١٥م، إذ حلَّ ضيفاً على عطا باشا البكري، فاتصلت به الجمعية لغاية ضمّه إليها، يقول أحمد قدري، أحد مؤسسي الجمعية، وأصدقهم في رواية أخبارها - كما يقول خير الدين الزركلي - : «.. ودرسنا فكرة إدخاله [الأمير فيصل] في عداد أعضاء الجمعية، فوجدنا فيه تربة خصبة، وهو ما كنا نتمنّاه، فسلكناه في عقد أعضاء الجمعية، ورجونا منه التوسُّط لدى السلطات العليا للإفراج عن المعتقلين الوطنيين العرب في عاليه»^(٤).

(١) انظر: طوران، مصطفى: أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة: كمال خوصة، ط٤، دار السلام، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، صص ٢٥-٣٥.

(٢) دروزة، محمد عزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٤٩م، ص ٤٨١.

(٣) انظر: قدري، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١٢؛ آل جندي، أدهم، شهداء الحرب العالمية الكبرى، ط١، مطبعة العروبة، دمشق، ١٩٦٠م، ص ١٤.

(٤) قدري، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ٤٦.

ولا ريب في أنّ ضمّ الأمير فيصل للجمعية يُعدّ نصراً وقوةً لها، ممّا سيؤدّي إلى تمدّدها وانتشارها، وبخاصة في الحجاز، كما أنّه أصبح أملاً لقيادة عربية ناهضة، تبرّغ من أرض الحرمين، وتنجز للأمة استقلالها ووحدتها، إلا أنّ وساطة الأمير لدى جمال باشا السفاح لم تكفل بالنجاح، ولم تسفر عن أية نتيجة، وعاد فيصل إلى الحجاز، ولكن تكرّرت الاتصالاتُ بينه وبين الجمعية التي «قدّمت إليه الاقتراحات، التي طلب أبوه أن يطلبها منهم؛ لتكونَ أساس ما سوف يطلبه من بريطانيا من عهود ووعود وحدود»^(١).

وقد زادت ملاحقة الاتحاديين لأعضاء الجمعية، وجدّ جمال باشا في الفحص عنهم وتعقّبهم، وفي التشديد عليهم وتعذيبهم، وفعل الديواني الحربي في عاليه أفاعيله الإجرامية في سنتي ١٩١٥، و١٩١٦، إلاّ أنّه لم «يتمكّن من كشف اسم الجمعية بالرغم من شدة المحاولات والإرهاقات، وفضّل أعضاء العربية الفتاة الموت على الحياة، والتضحية في سبيل المبدأ، دون التلميح إلى ذكر اسم الجمعية، أو ذكر اسم أحدٍ من أعضائها، حتى إنّ شكري القوتلي أحد أعضائها، فضّل الانتحار بقطع شريان يده، على أن ييوح باسم الجمعية، أو يُشير إلى أحدٍ من أعضائها»^(٢).

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، خرج بعض أعضائها من دمشق، والتحقوا بالأمير فيصل، الذي يقود الجيوش العربية الزاحفة نحو بلاد الشام، إلى أن دخلوا إلى دمشق مع فيصل في مطلع تشرين الثاني عام ١٩١٨ م.

وكانت جمعية العربية الفتاة تتّسم بالسرية والكتمان طيلة الفترة التركية، ولم ترغب في الكشف عن أعضائها في عهد الحكومة العربية، على الرغم من ازدياد عدد أعضائها، بعد توافد الشبان العرب على دمشق، فضمّت إليها من رأته منهم صالحاً لتنظيم الجمعية^(٣).

(١) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) الريماوي، الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ج ١، ص ٣٠-٣١.

(٣) انظر: دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٦٧.

وأنشأت جمعية الفتاة «حزب الاستقلال» ليكون واجهة حزبية علنية لحزب الفتاة السري، وانبثقت عنه: اللجنة الوطنية العليا، وهي واجهة الحزب الجماهيرية، والجمعية العربية الفلسطينية، وهي واجهة الحزب في الدفاع عن عروبة فلسطين، وحزب التقدم، وهو الواجهة النيابية للحزب داخل المؤتمر السوري^(١).

وقد أجرت هيئة العربية الفتاة بعض التعديلات على نظامها الداخلي، بخصوص شروط قبول الأعضاء، أهمها: أن يكون العضو عربياً مخلصاً لأُمَّته، وأن يكون متميزاً بالعلم والأدب والوجاهة. وأباحت للأعضاء الانتساب إلى جمعيات أخرى، وأصبحت الهيئة الإدارية للجمعية تختار أعضائها بالانتخاب، وسمحت بدخول العسكريين بعد أن كانت مقتصرةً على المدنيين، وسمحت لنفسها أن تضمَّ بعض الأعضاء دون انتخاب، وكانت الهيئة الإدارية هي المسيطرة على الحكومة سيطرةً فعليةً.

ومع بداية العهد الفيصلي، بدأت جمعية العربية الفتاة، بتطبيق برامجها وأهدافها على الحكومة العربية ومن خلالها، فأمرها فيصل، وبطانته وكبار موظفي قصره من أعضائها، والحاكم العسكري علي رضا الركابي، وياسين الهاشمي رئيس مجلس الشورى - وهما أقوى وأهم شخصيتين في الحكومة - من منسوبيها، وكثير من أعضاء المؤتمر السوري الذي هو بمنزلة البرلمان من أعضاء العربية الفتاة، التي «صارَت تُعتبر حزب فيصل وعماده، وكانت الدولة بأمرها ورؤسائها، يعتبرونها كذلك، ويتعاملون معها على هذا الاعتبار، بحيث لم يكن يقضي أمراً ويهْمُ بعمل، أو يصدر أمراً، ويعيّن موظفاً كبيراً، إلا وكان لها رأيٌ أو يدٌ فيه، أو علمٌ مسبقٌ به»^(٢).

وقد حرصت جمعية العربية الفتاة، على أن يكون الجهاز الإداري، والسياسي، والعسكري في الدولة، وفقاً لمقاييسها وأهدافها، فسعت إلى ضمَّ من رأته مناسباً من

(١) انظر: الريماوي، الحكم الحزبي في سوريا، ج ١، ص ٣٥-٣٦.

(٢) دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٩١.

كبار الموظفين في الدولة إليها، وأبعدت من لم يتفق معها في أهدافها القومية، أو رأته غير مخلص لتوجهاتها، فحققت من خلال هذه المقاييس أو المعايير، هيمنة على دوائر الدولة ومؤسساتها، وضمنت ولاء كبار الموظفين في تنفيذ قراراتها.

وكانت الجمعية هي التي ترشّح كبار الموظفين، وكانت ترشيحاتها وقراراتها «تلقى التجاوب في الأعم الأغلب، وكان أعضاء الجمعية في قصر فيصل ودوائر الحكومة، أعواناً لها على تنفيذ قراراتها، وتبليغاتها، وترشيحاتها، وتوجيه الأمور في الاتجاه الذي تقرّره»^(١).

ب- حزب الاستقلال

إنّ هذا الحزب خرج من عباءة جمعية العربية الفتاة، التي بلغ عدد أعضائها مئتين تقريباً، ورغبة من الجمعية في الحفاظ على سرّيتها، وتكتمها على أعضائها، قرّرت هيئة الفتاة إنشاء هذا الحزب؛ ليكون واجهةً علنيّةً للفتاة؛ تمهيداً لجذب الأشخاص من المثقفين النشطاء في العهد الفيصلي، وبخاصة الذين لم تنطبق عليهم مقاييس الفتاة في التنظيم، ويرجع تاريخ تأسيسه إلى ١٩١٩/٢/٥ م على الأرجح.

وقد أوعزت جمعية الفتاة لأعضائها كافةً من القدامى والجدد، بضرورة الانتساب للحزب ودعمه، ودخله كثير من أعضاء المؤتمر السوري غير الدمشقيين، وكانت أهدافه تقوم على: تحقيق الاستقلال، والوحدة، ونهضة الأمة، حتى تلحق بمصاف الأمم الراقية^(٢).

واجتمع عددٌ كبيرٌ من أعضائه وأقرّوا برنامجه، وقانونه الداخلي، وهيئته الإدارية، ويذكر أسعد داغر أنّ عدد أعضائه بلغ خمسة وسبعين ألفاً، من المدنيين والعسكريين، ومن أبرز أعضاء هذا الحزب: الأمير فيصل، الأمير زيد، ياسين الهاشمي، علي رضا

(١) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٩١.

(٢) انظر: دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٤١٩؛ الريماوي، الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ج ١، ص ٤٥.

الركابي، شكري القوتلي، إبراهيم هنانو، خير الدين الزركلي، عوني عبد الهادي، جميل مردم، آل البكري، بعض الأمراء الشهابيين، يوسف العظمة، عبد الرحمن الشهنندر، فارس الخوري، أسعد داغر، الشيخ تاج الدين الحسني، وغيرهم من رجالات العهد الفيصلي^(١).

وقد جذب هذا الحزب كثيراً من الأتباع الذين طمعوا في المنافع والمكاسب والمناصب؛ لأنه حزب الدولة الحاكم، وله الهيمنة على مفاصل الدولة، فكثر فيه الطمّاعون والنهّازون للفرص، الذين لا همّ لهم غير مصالحهم، وكان الارتباط بين هيئة حزب الاستقلال، وهيئة العربية الفتاة وثيقاً وقويماً، وكانت قرارات الهيئتين متوافقة ومتطابقة إلى حدٍّ كبير، بل إنّ قرارات الحزب كانت صدى لقرارات هيئة الفتاة واقتراحاتها^(٢).

ج- الحزب الوطني السوري

وُلِدَ الحزب الوطني السوري في مطلع عام ١٩٢٠م في غضون النزاع الشديد القائم بين جمعية العربية الفتاة وحزب الاستقلال من جانب، وحكومة الركابي الحاكم العسكري من جانبٍ آخر، وبخاصة بعد مشروع اتفاق فيصل - كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، الذي تمّ بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٢٠م، القاضي بتعهّد الحكومة الفرنسية أن تمنح معونتها لسورية، وأن تضمن استقلالها، ويتعهد فيصل بطلب المستشارين والمدربين والموظفين الفنيين من فرنسا؛ لتنظيم الإدارة المدنية والعسكرية، بشرط أن يعترف فيصل باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي، إلى غير ذلك من الشروط التي تضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي؛ تنفيذاً لاتفاقية سايكس بيكو^(٣).

(١) انظر: داغر، أسعد، مذكراتي على هامش القضية العربية، مكان وتاريخ النشر غير مذكورين، ص ١٠٧، الريموي، الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ج ١، ص ٤٥-٤٩.

(٢) انظر: دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٤١٩.

(٣) انظر: قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١٥٤-١٥٧.

ويبدو أنّ جميع معيّة الأمير، كانوا يشجّعونه على هذا الاتفاق مع كليمنصو، وقد خرج عن رأي هذه المعيّة أحمد قدرى الذي كتب إلى جمعية العربية الفتاة بمقاومة هذه الاتفاقية، وبدأت الجمعية بحملة إعلامية قويّة ضد هذه الاتفاقية، فتحرّكت الجماهير رافضةً لمشروع الاتفاقية، وقرّرت الجمعية المقاومة، ولم يتمكن الركابي من إقناعهم بعدم جدوى مقابلة القوة بالقوة؛ خوفاً من العواقب الناجمة عن تفاوت القوة الهائل بين الحكومة العربية وفرنسا، فقدّم الركابي استقالته للأمير زيد نائب الأمير فيصل، وأصدرت الجمعية قانون الخدمة العسكرية لستة أشهر^(١).

ومما قاله الركابي في الكتاب الذي رفعه للأمير فيصل، والمؤرخ بـ ١٨ كانون الثاني ١٩٢٠م، وشرح فيه ظروف استقالته: «...الأشخاص جماعة الفتاة والاستقلاليين لا صفة لهم، ولا يمثّلون إلا أنفسهم، ولا يهتمّهم الوطن ولا دفاعه، ولا تهمّهم سوى غايات مكنونة في نفوسهم... كما أنّي لا أقدر أن أرى حكومة غير مسؤولة، تسيطر على حكومة مسؤولة، تمثيلاً للدور الاتحادي البائد، وأعتقد أنّ الحكومة التي تسيّر على رغائب الأشخاص أو الأحزاب، غير المسؤولة، فمصيرها ومصير الوطن معها إلى الخراب، وعليه فإمّا أن يعتمد عليّ ويعاضدني؛ لأتمكن من قمع هذه الفوضى قبل استفحالها أكثر ممّا هي عليه، وإمّا أن يظهر ارتياحه لسياسة المذكورين فأنسحب...»^(٢).

واللافت هنا، أنّ الركابي كان مستاءً جداً من تدخل جمعية العربية الفتاة وحزب الاستقلال في شؤون الحكومة، وأنّ الفتاة أصبحت تمارس الدور الذي كانت تقوم به جمعية (تركيا الفتاة) في توجيه سياسة الاتحاديين في نهاية الدولة العثمانية، ممّا أدّى إلى الكوارث الكبرى، والفجائع العظمى التي مزّقت الدولة، وأدّت إلى تفكّكها، وأوغرت عليها صدور أهالي ولاياتها، وبخاصة العربية منها، بعد بطش الاتحاديين ومظالمهم على يد أحمد جمال باشا السفاح.

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٠-١٥١.

(٢) قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١٧٠.

ومما جاء في كتاب الركابي المذكور آنفاً، للأمير فيصل: «إنه كان من الواجب أن أتمم كل شيء، وأثبت مكاني، وأقاوم كل مشاغبة وفوضى، لحين تشریف سموكم، ولكن خطة نوري السعيد، وتمايل سمو أخيكم المعظم إليه، وإلى سياسة الأشخاص المذكورة، وارتياحه لانسحابي أملاً بما هو أرجح وأنجح، وحراجه الموقوف، وعدم مساعدة الوقت، اضطرني لأن أنسحب لكي تتشكل بعدي حكومة، تأتي بالخورق؛ لحفظ الوطن، وتخط خطة أقوم وأعدل من خطتي المدونة في مطاوي عريضتي...»^(١).

ومما هو جدير بالملاحظة، قوة هذا الكتاب الذي رفعه الركابي إلى الأمير فيصل، شارحاً فيه أسباب استقالته، ومبيناً سوء الأحوال، التي قد تؤدي بالحكومة إلى شرّ مآل، فالكتاب قويّ الصياغة، متين الأسلوب، دقيق الألفاظ، مشرق العبارات، وهو بلا شك إنشاءً أديب بارع الإنشاء، ولذا فإنه من المستبعد أن يكون هذا الكتاب من كتابة الركابي الرجل العسكري، الذي تثقف ثقافة عسكرية، والمرجح لديّ أن من أحكم صياغة هذا الكتاب هو كرد علي؛ لأن لغة الكتاب قريبة جداً من لغته، بل تكاد أن تكون هي هي، علماً بأن صداقة الرجلين كانت متينة، على الرغم مما شابها من شوائب السياسة، وعكرها ما عكرها من الصراعات الحزبية.

وقد أنهى الأمير فيصل حكومة الركابي الحاكم العسكري بتاريخ ٢٦ كانون الثاني عام ١٩٢٠م، وشكل حكومة مجلس مديرين برئاسة أخيه الأمير زيد، وعين أمين التميمي معاوناً له، وعلي رضا الركابي مديراً للحربية، وساطع الحصري للمعارف، ورشيد طليح للداخلية، وأحمد حلمي للمالية، ويوسف العظمة لرئاسة أركان الحرب العامة^(٢).

ويبدو أنّ هذه التعيينات، قد أثارت سخط الأعيان والوجهاء، والإقطاعيين والأرستقراطيين من الدمشقيين، الذين تمتّ ترصيتهم بعد تعيين عبد الرحمن اليوسف

(١) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٢) انظر: قدرتي، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١٧١.

رئيساً لمجلس الشورى، وتعيين علاء الدين الدروبي -الذي كان والياً للشام- رئيساً لمستشاري الإمارة^(١).

وفي ظلّ هذه الظروف السياسية المضطربة، ومن خلال هيمنة جمعية العربية الفتاة، وحزب الاستقلال، وجد الحزب الوطني السوري التربة السياسية الخصبة لنموه وترعرعه، وبخاصة بعد مباركة الأمير فيصل قيام هذا الحزب، بعد أن واجه معارضةً قويّةً من جمعية العربية الفتاة، بعد اتفاه مع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، يقول محبّ الدين الخطيب: «... فجاهرته العربية الفتاة بالمعارضة الصريحة، وفي اجتماع لها معه في منزل الحاكم العسكري العام، الفريق رضا باشا الركابي، سمع تصريحاتٍ متعددةً، بأنّه فرد من جماعة، وأنّه ينبغي له ألاّ يقطعَ بأمرٍ إلاّ بموافقة من يتكلّمون باسم الأمة، ومن يحملون أمانتها، وفي جواب منه على خطبة ألقاها توفيق الناطور في ذلك الاجتماع، قال لهم: أنا لا أكون ملكاً ختّاماً، ومهمته أن يختمَ على ما يقرّره غيره»^(٢).

وفوق ذلك، فإنّ كثيراً من أعضاء العربية الفتاة كانوا من العراقيين والفلسطينيين، واللبنانيين، والحلبيين، إضافة إلى الدمشقيين، فشعر كثيرٌ من الأرسطراطيين والوجهاء، والزعماء التقليديين، والشيوخ الدمشقيين، أنّ مراكزهم في دمشق أصبحت مهددةً، وأنّ إخوانهم العرب قد شغلوا بعض الوظائف والمراكز المهمة في الحكومة العربية، ممّا أدى إلى إثارة النزعة الإقليمية عند بعض وجهاء دمشق وأعيانها، ومنهم محمّد كرد علي، الذي كان مجاهراً بذلك؛ حفاظاً على مصالحهم التي بدت وكأنّها أصبحت مهددةً «وبدأ تلاشي نفوذ الأسر الوجيّهة على الحياة السياسية، ليحلّ محلّه نفوذ المثقفين، لا فرق بين مواطنهم، ومذاهبهم، ومراكزهم الاجتماعية»^(٣).

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٢) الخطيب، محب الدين: سيرة جيل، مخطوط، نقلًا عن الريماوي: الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ج ١، ص ٥١، حاشية (١).

(٣) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ص ٦٤.

وذكر أسعد داغر، أنه كان يسمع باللجنة الوطنية المؤلفة من عامة الناس، وهي الواجهة الجماهيرية لحزب الاستقلال، «تنديداً شديداً ببعض الأعيان، وذوي النفوذ من أبناء الأسر الدمشقية الكبيرة»^(١)؛ لأنّ مقاييس الاحترام في المجتمع الدمشقي قد تغيّرت، فالاحترام كان سابقاً على أساس انتماء الشخص للأسر ذات النفوذ والقوة والتاريخ في الزعامة، وأصبح الآن قائماً في العهد الجديد على أساس الوطنية، بل إنّ بعضَ وجهاء هذه الأسر، الذين أرادوا الانضمام إلى حزب الاستقلال، لم تُقبل عضويتهم، رغم تدخل الأمير فيصل^(٢).

وزادت نقمةٌ كثيرٌ من أعضاء الحزب الوطني السوري، على إخوانهم العرب في الحكومة العربية، متّهماً إياهم بأنهم «يتمتعون بخيرات ومراكز بلدهم، ويعرضونه في الوقت نفسه للأخطار الداخلية والخارجية»^(٣).

وعمل الفرنسيون على تأجيج هذه الخلافات والنزعات^(٤)، بين الحزب الوطني السوري، وجمعية العربية الفتاة، وحزب الاستقلال، وحزب العهد، وبخاصة أنّ أحزاب: الفتاة والاستقلال والعهد، كانت معارضةً بقوة لاتفاق الأمير فيصل مع كليمنصو، ولكنّ الحزب الوطني أبدى تأييده لهذا الاتفاق^(٥).

أما المبادئ والأهداف التي يقوم عليها هذا الحزب، فلم تبعد كثيراً عن أهداف جمعية العربية الفتاة، وأهمّ مبادئ حزب الاستقلال: استقلال سوريا بحدودها الطبيعية، وتقوية الصلات القومية والأدبية بين الشعوب العربية، والنهوض العلميّ للأمة العربية، حتى تلحق بالأمم الراقية، والتساوي في الحقوق المدنية والسياسية

(١) داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ١٠٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٠٩-١١٠.

(٣) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٤٢١.

(٤) انظر: قدرتي، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١٣١.

(٥) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٤٢١.

بين أبناء الوطن السوري، وقيام حكم ملكي ديمقراطي نيابي برئاسة الملك فيصل، ومؤازرة الأمير في ما يطلبه لمصلحة البلاد^(١).

وكان الانتساب للحزب والقبول فيه قائماً على أساس طبقيّ، إذ كان باب الانتساب إليه مفتوحاً لأبناء الذوات، والوجهاء، والأعيان، ونصّ نظامه الداخلي على أن يكون له هيئتان: الهيئة الإدارية، وتتألف من ستة عشر عضواً، والهيئة الاستشارية، وعددها خمسة وعشرون عضواً^(٢)، منهم: الشريف ناصر، وعبد الرحمن اليوسف، وفوزي البكري، وعلاء الدين الدروبي، وراشد مردم، وعلي العسلي، وعطاء الأيوبي، وبديع المؤيد العظم، وأنور البكري، وشريف الكيلاني، والشيخ تاج الدين الحسني، وعمر العابد.

وكان محمّد كرد علي من أعضاء الهيئة الإدارية في الحزب الوطنيّ، وهو الذي صاغ المبادئ والأهداف التي قام عليها الحزب، يقول أحمد قدري: «فقد اجتمع الأرسقراطيون، وشيعتهم في دار بديع المؤيد، ووضعوا الأسس التي تأسس بموجبها الحزب، وهي وإن كانت لا تختلف عن مبادئنا [حزب الاستقلال] بالظاهر، غير أنّها منظّمة ومنمّقة أحسن تنميق، كيف لا وقد أشرف على تسطيرها كاتب الشام محمّد كرد علي، الذي انضمّ إلى هيئة الحزب الإداريّة؛ بسبب عدم تعاون الفتاة معه؛ لمماشاته جمال باشا خوفاً من بطشه، إلّا أنّ الأشخاص القادرين فيه، كانوا معروفين بمماشاة كلّ سلطة قائمة؛ للحفاظ على نفوذهم، وتأمين منافعهم»^(٣).

ونصّ قدري السابق يكشف لنا بوضوح عن حقيقة المؤامرة التي حيكت ضد المجمع العلميّ العربيّ، وتمخّضت عن صرف رئيسه كرد علي، وصرف ستة من أعضائه، ففضية وقف المجمع، وشلّ حركته وهو في أوج عطائه وصعوده بقوة، كانت بفعل دسائس جمعية العربية الفتاة ومكائدها، ونتيجة لحملتها المتواصلة على كرد

(١) انظر: الريماوي، الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ج ١، ص ٥٢.

(٢) الريماوي، الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي، ج ١، ص ٥٣.

(٣) قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٧٢-١٧٣.

علي، الذي يتسم بحرية فكره وعمق نظرتة للأمر، ويبدو أنه لم يوافق العربية الفتاة على مشاريعها، ولم يكن على مقاييسها التي تشترط: الإخلاص والاستعداد لقبول أفكارها القومية، أو أنه أنف أن يكون عضواً في حزب الاستقلال، الذي كان واجهته للعربية الفتاة، ولذا فإن حملتهم على كرد، وضربه من خلال المجمع، كان بتخطيط العربية الفتاة، التي رأت كرد علي المجمع، ورأت المجمع كرد علي، فكادوا مكيدتهم، وأرجعوا تعطيل المجمع وتقييد نشاطه، إلى أسباب مالية بينا تهافتها وبطلانها فيما سبق.

فالمال لم يكن دافعاً لفض المجمع، بل السياسة والحزبية، والمكائدات وتصفية الحسابات، كانت العامل الحاسم في ذلك، وهذا يؤكد لنا صحة ما ذكره كرد، بأن صرفه من المجمع كان «تسفيماً من بعض الأحزاب التي لم أشأ أن أسايرها على العمياء»^(١)، ومن تكون هذه الأحزاب غير العربية الفتاة، وما تفرع عنها من أحزاب.

وفوق ذلك، فإنه ربما كانت هناك عداوات، ومشاحنات، ومنافسات، ومكائدات بين كرد علي، وبعض أعضاء الفتاة خلال فترة هيمنة جمال باشا السفاح على بلاد الشام أو قبلها، لا سيما أن كرد علي هو أول من أصدر جريدة يومية في دمشق سنة ١٩٠٨م بعد إعلان القانون الأساسي في الدولة العثمانية، وتميزت (المقتبس) بسعة أخبارها، وفائدة موضوعاتها، وقوة تحريرها، «وقد عانت الجريدة كثيراً من جزاء الصراحة والحرية والنقد، فقامت السلطة لإيقافها، أو تخفيف حدتها، فحاولت ذلك باللين حيناً، والتهديد أحياناً، وإقامة الدعاوى المختلفة»^(٢).

أمّا مؤاخذه جمعية العربية الفتاة لكرد علي مماشاته لجمال باشا خوفاً من بطشه، فإن كثيراً من كبار الضباط العرب الذين كانوا في حزب العهد العربي، ثم أصبحوا من أعضاء العربية الفتاة وحزب الاستقلال، كانوا يعملون مع الأتراك في الجيش وفي

(١) كرد علي: خطط الشام، ج ٦، ص ٣٤٢.

(٢) الدهان: محمد كرد علي حياته وآثاره، ص ٢٨-٢٩.

الإدارة، كعلي رضا الركابي، وياسين الهاشمي^(١)، ونوري السعيد، ويوسف العظمة، وساطع الحصري، وكانوا في أعلى الرتب العسكرية والمدنية في دولة الترك، وغيرهم. وعلاوةً على العسكريين وكبار الضباط، فإنَّ بعض الأدباء والكتّاب والصحفيين والشعراء، كانوا يعملون مع جمال باشا السفاح، فخير الدين الزركلي بقي مدللاً لدى السفاح، ولم يلبس البزة العسكرية، ومدحه بأربع قصائد -لا توجد في ديوانه المطبوع- فأعفاه من الخدمة العسكرية، وشكيب أرسلان كان مقرباً من جمال باشا السفاح، وكان يقبل شفاعته -أحياناً- في المطلوبين أو المرشحين، أو المغضوب عليهم عند جمال باشا، وقد تحدّث عن ذلك أرسلان نفسه في مشاهداته^(٢).

وزيادة على الصحفيين والإداريين، والكتّاب وكبار الضباط، فإنَّ الأمير فيصل كان يتردّد إلى جمال باشا السفاح، فقد حلَّ عليه ضيفاً في دمشق قبل الحرب العالمية الأولى، وفي مطلع ١٩١٦م عاد الأمير فيصل ومعه مجموعة من المتطوعين الحجازيين للاشتراك في حملة جمال باشا على قناة السويس، ورافق الأمير فيصل جمال باشا، وأنور باشا إلى المدينة المنورة؛ لتفتيش قوى الجيش المرابطة فيها، وقوى المتطوعين، ثم عاد جمال باشا إلى دمشق^(٣).

وبناءً عليه، فإنَّ اتصال كرد علي بجمال باشا السفاح، لا يختلف عن غيره ممن أصبحوا -فيما بعد- رجال الدولة العربيّة، وكتب كرد بعد ذهاب السفاح بسنوات أنه هو الذي أنقذ حياته من بطش الاتحاديين، والولاة العثمانيين، يقول: «استعبدني جمال باشا الكبير؛ لأنّه حماني منذ وافي هذه البلاد من دسائس الدسّاسين»^(٤). ولذا فإنّه لا يقبل أن نحمل كرد جرائر السفاح التي لا حول له ولا طول بها، بل إنَّ بعضاً ممّن

(١) انظر: قدرتي، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ٤٠.

(٢) انظر: أرسلان، شكيب: «كوارث سورية في سنوات الحرب»، مجلة المنار، ١٣٤٠ هـ/ ١٩٢٢م، المجلد ٢٣، ص ١٢١-١٣٢.

(٣) انظر: قدرتي، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ٤٦-٤٩، كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٣٠.

(٤) كرد علي: المذكرات، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠.

كانوا مخبرين للسفاح، أصبحوا في العهد الفيصلي رافعين للشعارات الوطنية، وعندما بطش الإفرنسيس بالحكومة العربية، أو شرّدوا فيصلاً ورجال دولته، اندسّ بعضهم خادماً للغزاة، وأصبح انتدائياً كريهاً، بينما قام كرد بإنقاذ علم الدولة العربية، وحفظه في المجمع؛ خوفاً من الفرنسيين الذين أرادوا سلبه.

الفصل الخامس

مساعي محمد كرد علي وجهاده لإعادة المجمع للعمل:

المبحث الأول: الملك فيصل وكرد علي في دوامة المؤامرات
الدولية والدعوات الحزبية.

المبحث الثاني: الصراع الثقافي بين كرد علي وساطع الحصري
(وزير المعارف) وإنشاؤه مجمعا موازيا.

المبحث الثالث: المنافسة الشخصية بين كرد علي وعبد
الرحمن الشهبندر (وزير الخارجية)، وردّه لمشروع إعادة
المجمع.

المبحث الأول

الملك فيصل وكرد علي

في دوامة المؤامرات الدوليّة

والدعوات الحزبيّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ قرار تعطيل المجمع كان له وقع شديد على كرد علي، وعلى أعضائه وهم من جلة علماء الشام آنذاك، وعلى كلّ محبّي اللغة العربية الساعين إلى إعادتها للحياة. فكيف تلقى كرد هذا القرار الجائر الذي دُبّرَ بلبيلٍ حالِكٍ، وحاكته الدسائس السياسية؟ وهل سلّم بقرار الحاكم العسكري الأمر بفضّه؟ وما المحاولات والمساعي التي قام بها لغاية بعث الحياة في المجمع، وإعادته للعمل واستئناف نشاطه؟ ولمعرفة هذه المحاولات، وما بذله كرد من مساعٍ لإعادة العمل إلى المجمع، يمكن أن نقف على علاقات كرد وصلاته الحميمة وغير الحميمة، ومواقفه من بعض أصحاب المقامات، وكبار رجال الحكم والإدارة في الحكومة العربية، وأول هؤلاء الأشخاص أصحاب السلطة والنفوذ، والحوّل والطول، والإبرام والنقض، والعقد والحل في الحكومة هو:

الأمير فيصل بن الحسين:

تعود علاقة كرد علي به وبإخوته إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما زار فيصل دمشق، وحلّ ضيفاً على أحمد جمال باشا السفاح، وفي تلك الزيارة أصبح الأمير صديقاً حميماً لكرد الذي كان يدعوهُ إلى بيته، ويخلو به الساعات الطوال، يقول كرد: «فتأكّدت الصداقة بيننا، وكنتُ أخلو به ساعاتٍ، ونتفاوض أموراً كثيرة، ويبوح كلٌّ منّا لعشيرته، بما لا يبوح به لأقرب الناس إليه»^(١). وكان فيصل يستأذن جمال باشا أحياناً بالتخلّف عن مائدته؛ ليكون ضيفاً مع بعض أصدقائه عند كرد علي؛ هروباً من جو الرّسميات في معسكر جمال باشا.

(١) كرد علي، المذكرات، ج١، ص ١٣٠.

وعندما قرّر فيصل أن يغادر دمشق إلى الحجاز؛ خوفاً من غدر جمال باشا في منتصف آذار سنة ١٩١٦^(١)، اقترح فيصل على كرد علي أن يصحبه إلى مكة، ولكنّ كرد اعتذر عن ذلك، بأنّ الترك سينكبون عياله إذا هرب مع فيصل، وتعلّل بأنّ صحته لا تحتمل عيش البوادي، فقبل فيصل اعتذار كرد عن عدم السفر معه^(٢).

وعندما دخل فيصل مع الجيش العربي دمشق مظفراً في مطلع تشرين الأول سنة ١٩١٨م، طلب من أحمد كرد علي أن يكتب إلى شقيقه محمّد كرد المقيم في إستانبول بالحضور إليه، فحضر محمّد كرد علي، وزار الأمير الذي استقبله استقبالاً أخوياً، وقدم له دعماً مالياً لإعادة إصدار جريدته (المقتبس)، التي كانت معطّلة في نهاية حكم الأتراك^(٣).

وفي ضوء العلاقة المتينة والصداقة الأخوية بين الأمير فيصل وكرد، الذي عاد من إستانبول بناءً على طلب من فيصل، فإنّ كرد يحمّل الأمير فيصل جزءاً من مسؤولية وقف المجمع، ويُعدّ موقف فيصل الذي لم يتخذ إجراءً حاسماً عند فضّ المجمع، تقاعساً عن الانتصار للمجمع، وتثبيطاً للقائمين بأمره، وتخاذلاً عن دعم مسيرته، يقول: «نعم لم يلقَ المجمع العلمي من السلطات الوطنية تنشيطاً، بل لقي تثبيطاً، فالأمير الذي له الحق أن يفاخر، بأنّ المجمع أنشئ في أيّامه، خذله بهزل الهازلين، وأرباب الأحزاب»^(٤).

لقد صدر قرار تأسيس المجمع بتاريخ ٨/٦/١٩١٩م، ونشرت جريدة (العاصمة) الجريدة الرسمية خبر فضّ المجمع بتاريخ ٤/١٢/١٩١٩م؛ أي بعد أقل من ستة أشهر على تأسيسه، دون ذكر المبررات والأسباب الداعية لذلك.

(١) انظر: قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ٤٨-٤٩.

(٢) انظر: كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٣٠-١٣١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣١.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٠.

ولمعرفة موقف الأمير فيصل من المجمع، لا بدّ لنا من معرفة الظروف والتقلبات، والتطورات والأحوال السياسية التي نشأ المجمع في جوّها، وأول هذه الأحداث هو سفر الأمير إلى مؤتمر الصلح في فرساي؛ ليمثل والده الحسين بن علي في ذلك المؤتمر، وللمطالبة بتنفيذ الوعود التي قطعها الإنجليز للشريف حسين بخصوص نيل البلاد العربية، التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية، حريتها واستقلالها، وتوجّه الأمير فيصل إلى باريس في ٢٢/١١/١٩١٨م، على متن مركب حربي إنجليزي، فوصل إلى مرسيليا في ٢٦/١١/١٩١٨م، واستقبلته السلطات الفرنسية أميراً حجازياً جاء زائراً لفرنسا، وليس قائداً عربياً جاء لتمثيل والده في مؤتمر فرساي، وقد حاولت فرنسا إبعاده عن المؤتمر بكلّ طريقة ممكنة، لكنّ مساعي إنجلترا نجحت في إقناع الفرنسيين بحضوره المؤتمر، ممثلاً للحجاز، وتمكّن من بسط القضية العربية، وطالب بحق العرب في الاستقلال والحرية، وتقرير المصير.

لكنّ فرنسا أنكرت عليه حق الكلام باسم سورية، واستعانت ببعض الموارد لتمثيل سورية في المؤتمر، ثم اتصلت بجميل مردم بك الذي كان في باريس؛ للكلام باسم سورية، ولكنّ الوفد المرافق للأمير، وهم: نوري السعيد، ورستم حيدر، وفائز الغصين، وأحمد قدري، حذروا جميل مردم من التكلّم باسم سوريا، علماً بأنّ مردم، والوفد المرافق للملك كانوا من جمعية العربية الفتاة، ولذلك قبل مردم طلبهم، ونكص عن تمثيل سورية^(١).

وعندما عقد مؤتمر فرساي بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٩١٩م، وجد الرئيس الأمريكي ولسن، أنّ الصراع كان على أشده، بين فرنسا وبريطانيا على سوريا، ووجد أنّ موقف بريطانيا وفرنسا مخالفٌ لدعوته في تحقيق مبادئ العدالة والحقّ في السياسة العالمية، وأعلن حق الشعوب الضعيفة في تقرير مصيرها، وأعلن أنّ حكومته لن ترضى عن أيّ انتداب مفروض فرضاً، وقرّر تشكيل لجنة عرفت باسم (لجنة كرين)، هدفها استفتاء

(١) انظر: دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٤٤-٣٤٥؛ قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ٩٠-١٠٩.

الأهالي في البلاد التي تريد تقرير مصيرها، ووافقت بريطانيا وفرنسا على اقتراحه، وكانت بريطانيا تظن أن الاستفتاء في سورية سيكون في صالحها لا في صالح فرنسا، وأنها ستتحالف مع سورية بعد الاستفتاء، وتتمكن من اقتلاع النفوذ الفرنسي من المنطقة.

وقد أثارت بريطانيا «بواسطة عملائها فكرة الاستقلال المقترن بالوحدة السورية في المناطق الثلاثة، فإذا لم توافق عصبة الأمم على ذلك، إلا بشرط قبول الانتداب، فليكن الانتداب لأمريكا، فإن لم تقبله فلبريطانيا العظمى، مع رفض انتداب فرنسا»^(١).

وقد عدَّ الأمير فيصل إرسال لجنة كرين نصراً، وعاد إلى سورية بعد أن أمضى قرابة أربعة أشهر تقريباً في بريطانيا وفرنسا، وخلال هذه الفترة التي قضها الأمير فيصل ووفده في بريطانيا وفرنسا، بعث فيصل إلى كرد علي كتاباً بخطه، يقول فيه: «إنَّ الإنكليز السكسونيين (إنكلترا وأميركا) يُعاونوننا على نيل استقلالنا، وأننا سنحرزه، ويوصي ألا أعبأ بغير هذا، وأن أرفض كل قول يخالفه»^(٢).

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت إلى كرد، وهو رئيس مجلس المعارف، ولكنَّ كرد يعقَّب على هذه الرسالة بقوله: «وأظنه كان يقصد بكلامه تضليل عقلي، وربما كان جماعته أشاروا إليه بالكتابة إليَّ في ذلك»^(٣)، والاحتمال الثاني هو الأقرب للصواب؛ لأنَّ مرافقي الأمير كانوا يعرفون مكانة كرد في مجتمع الوجهاء والأعيان الدمشقيين، الذين يمكن أن يحرفوا رأي كرد تجاه الفرنسيين، ويدفعون ليكون من دعاة الانتداب الفرنسي.

ويبدو أنَّ الحرب الإعلامية بين دعاة الانتداب الإنجليزي، ودعاة الانتداب الفرنسي كانت على أشدها، وبخاصة أن بعضاً من أعيان دمشق كان لديهم ميل واضح

(١) الحكيم، يوسف: سورية والعهد الفيصلي، ط ٢، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٠٠.

(٢) كرد علي: المذكرات، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٨.

للفرنسيين، وربما راجت بعض الإشاعات القائلة بأنَّ كرد من الميَّالين لفرنسا بحكم إتقانه للفرنسية، وإعجابه بحضارتها ومجامعتها؛ لذلك سأله الأمير زيد الذي كان نائباً عن أخيه فيصل الذي كان غائباً لحضور مؤتمر فرساي، سؤالاً مختصراً ودالاً عن سبب عدم حبِّ الإنجليز له، فقال كرد لزيد: «ربّما يطمع الإنكليز أن يماشيه المراء بدون بحث ولا سؤال، وأنا أحبُّ أن أضع رجلي على صخر؛ مخافة أن أتهوّر إذا سرتُ في الرمل، فأدار وجهه إلى الحائط، وأحسبه ظنَّ بأنِّي أعرض بوالده في هذا الجواب»^(١).

وربما قصد كرد بذلك أنَّ الحسين بن علي وثق بالإنجليز وعهودهم، بينما كانوا يتآمرون على البلاد العربية، دون أن يعلم باتفاقهم مع فرنسا على تقاسم الأرض العربية، التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية.

وقبل مغادرة الأمير فيصل فرنسا، اجتمع به (كليمنصو) رئيس وزراء فرنسا، وأخبره بأنَّ القوات الفرنسية، ستحلّ محلّ القوات الإنجليزية التي ستسحب من المنطقة الشرقية (دمشق، وحلب، وحمص، وحماة)، فرفض الأمير ذلك، وعندما وصل إلى دمشق بتاريخ ٥ أيار ١٩١٩م، قال للناس كلمته التاريخية: «إنَّ الاستقلال يؤخذ ولا يعطى»، ودعا الناس إلى رصّ الصفوف، والتمسك بمطلب الاستقلال التام الناجز، وتبليغ رغباتهم إلى لجنة الاستفتاء الدولية التي سيكون موعد وصولها مع نهاية شهر حزيران ١٩١٩م»^(٢).

وقبيل وصول لجنة كراين الأمريكية، وبينما كان الأمير ورجاله يبذلون قصارى جهودهم في تعبئة الناس؛ لرفض الانتداب الفرنسي، وتفضيل أن تكون بريطانيا هي الدولة المنتدبة على سوريا، استدعى الأمير فيصل كرد علي الذي كان يشغل منصباً

(١) كرد علي: المذكرات، ج ١، ص ١٢٧.

(٢) انظر: قدرتي، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٠٥-١٠٨.

رسمياً في الدولة، وهو رئاسة المجمع العلمي، الذي لم يمضِ شهر على تأسيسه، وطلب منه الأمير فيصل دعم رغبة الحكومة العربية بأن يكون الانتداب لبريطانيا.

يقول كرد: «استدعاني الأمير فيصل ليلاً، وطلب إليّ أن أدعوَ الشاميين ليقولوا بانتداب إنجلترا عليهم، فيؤحّد الانتدابُ في أرض العرب، وكانت اللجنة الأمريكية على وشك الشخوص إلى سورية؛ لتسأل أهلها رأيهم في الدول التي يفصلون أن تنتدب عليهم، فقلتُ: كان عليكم أن تأمروا بذلك قبل ستة أشهر على الأقل، ولإعداد الأفكار لقبول هذا الرأي. فقال: في الوقت متّسع لمن يعمل، ويمكن تدارك ما فات، وأنت بما لك من الثقة عند القوم، تدعوهم فيستجيبون لك، وكان وراءه صديقي الدكتور أحمد قدري، يشير إليّ ألا أناقشه، وأن أظهر امتثال أمره، فسكتُ»^(١).

ويتّضح لنا من خبر المقابلة، التي تمّت بين الأمير فيصل وكرد علي، رغبة الأمير في قيام كرد بالدعاية لقبول الانتداب البريطاني على سوريا، عن طريق جريدته (المقتبس) ذات المصداقية والسمعة المحترمة في المجتمع الدمشقي، وعن طريق قدرات كرد في المحاضرة والخطابة في النوادي والجمعيات، وفي مجلسه الخاص في بيته، الذي يتردد إليه كثيرون من أهل العلم والثقافة والوجاهة والزوار الأجانب.

وفوق ذلك، فإنّ تأثير كرد على الطبقة المثقفة في دمشق كان متجنّزاً وقويّاً، وتعدّ مجلته (المقتبس) العلمي والأدبي مدرسة تتلمذ على موضوعاتها كثيرٌ، ونهلوا من فوائدها وكنوزها العلمية والأدبية، يقول أستاذنا شكري فيصل -رحمه الله-: «يُحدّثني الذين يعاصرون (المقتبس) كيف كانوا يترقبون صدورهم، وكيف كانوا يتلقّفون أعداده، وكيف كانوا يتحلّقون حول مقالاته وأخباره، لقد دخل المقتبس حياة جيل كبير من قدامى المثقفين، فأضاء لهم الطريق، وقرن في حياتهم بين معارفهم التي كانوا يعرفون، وبين المعارف الجديدة التي أتاحتها لهم... ودخل كذلك حياة جيل كبير من ناشئة المثقفين، فأوقد في صدورهم العزم، وابتعث عندهم العمل في نطاق الثقافة

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٢٧.

العربية...»^(١). وهذا ما يفسّر لنا طلبَ الأمير فيصل من كرد دعوة أهل الشام لقبول الانتداب البريطاني.

ويبدو أنّ تعلُّلَ كرد بضيق الوقت اللازم، للتأثير في الرأي العام، لم يكن مقبولاً لدى الأمير، الذي ردّ عليه قائلاً: «في الوقت متّسع لمن يعمل»، ولذا فإنّ حجة كرد بدت للأمير حجةً واهيةً، بل هي عذر الذي لا يرغب في المؤازرة والعمل، ولذلك أشار إليه أحمد قدرى، وهو مستشار الأمير، وصديق كرد أن يمثل للأمر.

ويبدو أنّ خبر هذه المقابلة، قد شاع في حاشية الأمير، وأكثرهم أعضاء في جمعية العربية الفتاة، وفي اللجنة الوطنية، وحزب الاستقلال، وحزب العهد، ولذلك فإنّ هذه الأحزاب وغيرها في اليوم التالي للمقابلة، أرسلت خطاباتها لكرد تحثّه على إبداء رأيه أمام اللجنة الأمريكية عند حضورها، يقول: «ومن الغد وردت عليّ كتبٌ من الأحزاب بدمشق، يطلبُ إليّ كلُّ حزبٍ منها، أن أذهبَ إلى اللجنة الأمريكية، وأذكر لها رأيي، ومن هذه الأحزاب من يطالب بالاستقلال التام الناجز، لا حماية ولا وصاية، ومنها من يشير ضمناً إلى القول بالانتداب الإنكليزي، وكانت الصيغة التي لُقِّنَها القومُ: «نريد انتداب أمريكا علينا، فإن لم يكن فإنك لترا، ونرفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً»^(٢).

وكانت استجابة كرد علي لطلب الأحزاب سلبيةً، ولم يذهب إلى اللجنة الأمريكية، ولم يطلب انتداباً لأيّ دولةٍ على سورية.

ويبدو أنّ سلبية كرد، وعدم الاستجابة للأمير فيصل، إذ لم يقدّم بالدعاية اللازمة لقبول الانتداب الإنجليزي، وموقفه الراض لما طلبته منه الأحزاب المهيمنة على الدولة، كانت مقدّمات وإرهاصات لفضّ المجمع بعد ذلك بأشهر؛ لأنّ رئيسه قد أصبح عنصراً غير متوافق مع سياسة الأمير والأحزاب في أحلك الظروف التي تمرُّ بها

(١) فيصل، شكري: «محمّد كرد علي من خلال المقتبس»، ضمن كتاب «كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٢٧.

الحكومة، وأصبحت الأحزاب مُوغرة الصّدر على كرد، ترصد عليه الأخطاء، وتعدُّ له الزلات، وأخذت تنشر عن المجمع إشاعة إسرافه في إنفاق المال العام، التي فندناها فيما سبق، وبيناً تهافتها وبطلانها، بل وصل الأمر إلى عتاب الأمير لكرد علي بتبذيره في شراء العاديات والآثار، وإلى الركابي الحاكم العسكري الذي لامه على التعجّل في شراء المخطوطات والآثار، علماً بأن كل ذلك كان مجرد مكاييد حزبية، وحملات إعلامية، سوّدت صفحة المجمع، وشوّهت صورة رئيسه.

وبناءً على ما تقدّم عرضه من موقف كرد من الملك والأحزاب، فإن قرار الركابي كان رضوخاً لإرادة الأحزاب، فأمر بصرف كرد وستّة من أعضاء المجمع بعد أشهر قليلة، ممّا أدى إلى شلل شبه تام لأعمال المجمع، ولكن بقيت فيه **دماءً** من حياة، وبقيّة من روح، وبقي اسمه، ممّا جعل كرد مصمّماً على إعادته للعمل من جديد، ولو بعد حين، وبقي مترقّباً للفرصة السانحة، وللظروف المواتية، التي يمكن أن تخدم قضية المجمع وتؤدي إلى بعثه من جديد.

وعندما أنهت لجنة كرين الأمريكية مهمتها في بلاد الشام، عادت إلى واشنطن في نهاية شهر آب من عام ١٩١٩، وكانت نتيجة الاستفتاء: أنّ غالبية سكان المنطقة الشرقية، تريد حكومة وطنية دستورية برئاسة الأمير فيصل، وأنّ الأهالي يفضلون أن تكون أمريكا دولة متتدبة عليهم، وإن لم تقبل فبريطانيا، وأنّ غالبية سكان المنطقة الغربية (لبنان) يرغبون في انتداب فرنسا^(١).

لكنّ بريطانيا أعلنت رفض انتدابها على سوريا رسمياً بتاريخ ٩ أيلول ١٩١٩، وبعد إبلاغها لفيصل بيوم واحد، دعتة للحضور إلى إنجلترا على الأيّتأخر وصوله عن ١٦ أيلول، وسافر فوراً، ولم يصل إلا في ١٨ أيلول، إذ تمّ تأخيره وتعويق وصوله عمداً؛ لمنعه من حضور توقيع الاتفاق البريطاني الفرنسي؛ للبدء بتطبيق اتفاقية سايكس - بيكو في سورية في يوم ١٥ أيلول، وبذلك تخلّى الإنجليز عن مناصرة العرب، بعد أن

(١) انظر: الحكيم، سوريا في العهد الفيصلي، ص ١٠٥.

تخلّت لهم فرنسا عن الموصل، وعن شرق الأردن، وأصبحت سورية منطقة انتداب للفرنسيين.

وتوجّه الأمير وحاشيته إلى فرنسا، ونصحته بريطانيا بالاتفاق مع (كليمنصو) رئيس وزراء فرنسا التي عيّنت (غورو) مندوباً سامياً لها في سورية، وبدأ (غورو) بفرض الانتداب بقوة السلاح في الجهة الغربية، واضطرّ الأمير إلى الموافقة على مشروع ما سمّي باتفاق فيصل - (كليمنصو) بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ م - الذي أشرت إليه سابقاً - ثم عاد ووصل إلى دمشق في منتصف كانون الثاني ١٩٢٠ م^(١).

وقد زار الركابي الأمير فيصل عند عودته، شاكياً له من سوء الأوضاع، وتغوّل الأحزاب على الحكومة، وأنّ ذلك مُؤذِنٌ بخراب الوطن^(٢)، وشرح له الركابي ما آلت إليه الأمور، في رسالة استقالته التي سبق إيرادها، ورَجَّحنا أن تكون مدبجة بقلم محمّد كرد علي.

وقد أُسس الحزب الوطني السوري بتاريخ ٢٦ / ١ / ١٩٢٠ م في ظلّ هذه الظروف الحالكة، التي استفرد بها الفرنسيون بالقرار، بعد تخليّ بريطانيا عن الأمير فيصل، وكان كرد من أعضاء الهيئة الإدارية في الحزب الوطني، وهو حزب الأعيان والأرستقراطيين، والوجهاء والذوات من الدمشقيين الميّالين إلى قبول الانتداب الفرنسي؛ خوفاً من الكارثة التي ستحيق بالبلاد في حالة مواجهة فرنسا، التي حشدت أكثر من مئة ألف من جنودها المدجّجين بالأسلحة الثقيلة، والطائرات والمدرّعات، في الوقت الذي كانت الحكومة العربية لا تمتلك إلا القليل من الأسلحة القديمة والذخائر والجنود، علماً بأنّ الحكومة العربية قد طلبت من بريطانيا الموافقة على تشكيل جيش عربي، من ثلاثة ألوية، وأن يكون عدد قوات الأمن ثمانية وعشرين ألفاً، لكنّ الإنجليز قابلوا هذا الطلب بالسخرية^(٣).

(١) انظر: قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٣٥-١٦٢.

(٢) انظر: قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٧٠-١٧١.

(٣) انظر: الموسى سليمان: مذكرات الأمير زيد، ط ٣، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠١١ م، ص ٢٣٩.

وعقد المؤتمر السوري أولى جلساته في السادس من آذار سنة ١٩٢٠، برئاسة هاشم الأتاسي، وألقى فيه الأمير فيصل خطاباً تاريخياً، أكد فيه على الحرية والاستقلال والنهضة، ومما جاء فيه:

«... فقد انتشرت اليوم فكرة الاستقلال بين الشعوب، وانقضت عن أفئدتها، فلن تزول بعد الآن... فالأمة العربية لا تقبل بعد اليوم أن تُستعبَد... إننا لا نطلب من أوروبا أن تمنحنا ما ليس لنا فيه حق، بل نطلب منها أن تصدق على حَقِّنا الصريح، الذي اعترفت لنا به، كأمة حيّة تريد حريّةً واستقلالاً تاماً..»^(١). لكن الواقع -آنذاك- يدلّ على أنّ صرخة الحرية والاستقلال، كانت شكوى الجريح للغربان والرخم كما تقول العرب في حِكْمِها.

وأقرّ المؤتمر السوري بالإجماع استقلال سورية بكامل حدودها الطبيعية، بما في ذلك فلسطين، التي رفض المؤتمر أن تكون وطناً قومياً لليهود، وأقرّ مبايعة الأمير فيصل بن الحسين ملكاً، وتمت مبايعته في الثامن من آذار سنة ١٩٢٠ م^(٢). ثمّ شكّلت الوزارة الأولى برئاسة الركابي في اليوم التالي لإعلان الاستقلال، وأصبح الحزب الوطني ممثلاً في هذه الحكومة.

بيد أنّ فرنسا وإنجلترا كانتا طامعتين في اقتباس بلاد الشام، واقتطاع فلسطين منها، ورأتا في قرارات المؤتمر السوري تحدياً لهما، ورفضتا قراراته بالاستقلال، وفرض الأمر الواقع، وأعلن لويد جورج في الثامن عشر من آذار سنة ١٩٢٠ م في مجلس العموم البريطاني، أنّ بريطانيا وفرنسا لا تعترفان بما تمّ أخذه في دمشق من قرارات، ودعا فيصل لحضور مؤتمر الصلح في أوروبا^(٣)، ولكن فيصلاً أرسل نوري السعيد لحضوره، وهو المؤتمر المعروف بمؤتمر سان ريمو الذي عقد في الرابع والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ م.

(١) الحكيم، سورية والعهد الفيصلي، ص ١٣٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١٣٨؛ قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٨١.

(٣) انظر: قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٩٦.

وقامت فرنسا وبريطانيا بتقسيم البلاد العربية، وجعلتا فلسطين وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني، ولبنان وما تبقى من سورية تحت الانتداب الفرنسي، ونالت هذه القرارات الجائرة المتسلطة على إرادة أهل سورية، موافقةً ذلك المؤتمر الذي اقتصر حضوره على إيطاليا واليابان، ولم تحضره روسيا وأمريكا^(١).

وتحت وطأة الضغط الشعبي وازدياد مطالب الوطنيين، ورغبة العربية الفتاة وغالبية الأحزاب في المقاومة -بعد قرارات مؤتمر الصلح- قدّم الركابي استقالة حكومته، ونصحه الملك بالتريث في الأمر، فردّ الركابي بالقول: «لا يسعني الصبر على ما أشاهده في العاصمة، وفي المؤتمر السوري خاصةً، من تهوُّر وإفراط في المطالب، ممّا قد يؤدي إلى فقد النظام، وإلى الاضطراب على الحدود، وينذر بسوء المصير»^(٢).

وكلف الملك فيصل هاشم الأتاسي، بتشكيل وزارة دفاع وطني، فتألّفت بتاريخ ٣ أيار ١٩٢٠م، وقد دخلها لأول مرة وزيران شابان هما: عبدالرحمن الشهبندر وزيراً للخارجية، ويوسف العظمة وزيراً للدفاع، وألقى الشهبندر بيان الحكومة أمام المؤتمر السوري، مبيناً أنّ خطة الحكومة تهدف إلى الاستقلال التام، ووحدة سورية بحدودها الطبيعية، ورفض التدخل الأجنبي، وقد حظي الشهبندر والعظمة بمنزلة رفيعة لدى الأحزاب الوطنية، والمجاهدين الثائرين على الوجود الفرنسي؛ لتمسّكهما بفكرة المقاومة، وتشدّدتهما في المبادئ الوطنية^(٣).

وحاول الملك الرجوع إلى اتفاقيته السابقة مع كليمنصو، التي لقيت مقاومة من العظمة والشهبندر، ولكنّ الأخير وافق عليها، وتمّت موافقة مجلس الوزراء على تلك الاتفاقية^(٤).

(١) انظر: الحكيم، سورية والعهد الفيصلي، ص ١٥٥.

(٢) الحكيم، سورية والعهد الفيصلي، ص ١٥٧.

(٣) الحكيم، سورية والعهد الفيصلي، ص ١٥٨-١٥٩.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ١٦٢-١٦٥.

لكن قبول الحكومة العربية لاتفاقية (فيصل - كليمنصو)، لم يكن مقنعاً للجنرال (غورو)، الذي عيّنته فرنسا مندوباً مفوضاً سامياً، وقائداً لجيوشها في سورية، وبدأ في مطلع شهر تموز عام ١٩٢٠م بحشد جيوشه تمهيداً للانقضاض على دمشق، وأرسل إنذاراً مؤرخاً بالربيع عشر من تموز، يطلب فيه خلال أربعة أيام: قبول الانتداب الفرنسي، والتعامل بالورق النقدي السوري اللبناني، والسماح بوجود الضباط الفرنسيين في محطات السكك الحديدية، ومعاينة أعداء فرنسا^(١).

وقبل الملك الإنذار بتاريخ التاسع عشر من تموز، لكن ذلك لم يمنع (غورو) الذي تمادى في الغطرسة والتشدد والشطط في طلباته، وتمت الموافقة على قبول الانتداب كاملاً، وفقاً لطلب غورو^(٢)، الذي كان مصمماً على دخول جيوشه عاصمة بني أمية، وطالباً تغيير حكومة الأتاسي، فغيّرت، لكن ذلك لم يجد نفعاً، فتصدى له البطل يوسف العظمة بجيشه القليل العدد والعتاد، ومن معه من المناضلين، في وقعة ميسلون في الرابع والعشرين من تموز، ورزق الشهادة مع عددٍ من إخوانه، مثبتاً أنّ هذه الأمة لا تلين قناتها، وأن دخول الأعداء لدمشق لا يكون بدون مقاومة، وأنّ طريقهم لن تكون مفروشة بالورود.

وخرج الملك فيصل في حالة عصيبة محزنة من عاصمته دمشق، ومعه كثيرٌ من رجاله، في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠م، وعند هذا التاريخ كانت نهاية الحكومة العربية التي دامت أقلّ من سنتين.

إنّ عرضنا الموجز لأهمّ الأحداث والمجريات، والتغيّرات السياسية والوزارية والحزبية، كان ضرورياً لمعرفة الظروف التي مرّ بها المجمع في الأشهر الأخيرة من حياة الحكومة العربية، وللوقوف على جهود رئيسه المعزول محمّد كرد علي، وكيف حاول أن ينقذ سفينة المجمع التي فقدت جُلّ رجالها، وأصبحت على وشك

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٨٣-١٩٢.

الغرق؛ بسبب الأمواج العاتية من حملات الأحزاب والسياسيين، الذين ناصبوا كرد العدا لعدم مطاوعته لهم على الذهاب إلى لجنة كرين الأمريكية، ولرفضه الانتداب البريطاني، أو غيره كما بينا فيما سلف.

ويبدو أن كرد قد نجح في تقديم معروض يطلب فيه إعادة المجمع للعمل في ظلّ تلك الظروف المضطربة سياسياً، وبعد تشكيل وزارة هاشم الأتاسي، بتاريخ الثالث من أيار عام ١٩٢٠م، التي ضمّت علاء الدين الدروبي وزيراً للداخلية، وهو من الحزب الوطني الذي كان كرد عضواً فيه، وفارس الخوري وزيراً للمالية، وهو صديق لكرد ومن المدافعين عن المجمع، وعبد الرحمن الشهبندر وزيراً للخارجية، وهو صديق قديم لكرد، وساطع الحصري وزيراً للمعارف.

وقد أشار كرد إلى طرح قضية المجمع أمام وزارة هاشم الأتاسي قائلاً: «ولمّا توقّف المجمع، بصنع أبواب الأغراض، عرضت وزارة المعارف لائحةً على مجلس الوزراء؛ لاطراد أعمال المجمع، فطرحها وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، بدعوى الاقتصاد، وأراد الملك فيصل أن يتلافى ما فرط، ووعد أن يوعز إلى حكومته بإعادة المجمع إلى سالف حاله، ولم يبرّ بوعدِهِ»^(١).

إنّ ما قاله كرد أعلاه بخصوص اللائحة المعروضة أمام مجلس الوزراء؛ للمطالبة بإعادة استئناف أعمال المجمع كما كان عند تأسيسه، يُعدُّ من أهمّ الأخبار المتعلقة بتاريخ المجمع في عهد الحكومة العربية في دورها الأخير، وإذا ما أردنا الوقوف على حقيقة الصورة، وكشف أبعادها كاملة، فإنّه لا بدّ لنا من الوقوف عند شخصيتين مهمّتين في الحكومة العربية، وهما: ساطع الحصري وزير المعارف، والشهبندر وزير الخارجية، ومدى تأثيرهما على **قضية** المجمع.

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٨٠.

المبحث الثاني

الصراعُ الثقافِيُّ بين كرد علي وساطع الحصري

وزير المعارف الذي أنشأ مجمعا موازيا

تعود علاقة كرد علي بساطع الحصري إلى أيام رئاسة كرد لمجلس المعارف، عندما كان علي رضا الركابي، حاكماً عسكرياً لدمشق عام ١٩١٩م، إذ رأى كرد أنّ مجلس المعارف يتكوّن من مجموعة من المشايخ الذين يقتصر علمهم على المعارف والعلوم الدينية، فرأى كرد أنّ يستقطب عنصراً مختصّاً بأمور التعليم والتربية الحديثة، فكتب ساطعاً داعياً إيّاه للحضور إلى دمشق، لكنّ ساطعاً تجاهل دعوته، ويبدو أنّ بعض تلاميذ ساطع قاموا له بدعاية واسعة في الحكومة العربية التي وفد عليها ساطع في شهر شباط أو آذار ١٩١٩م، فعينه الركابي -مكرهاً- مديراً عاماً للمعارف، يقول كرد علي: «فاضطرّ الركابي بإصرار بعض الأحزاب، أن يرضى به مديراً للمعارف، فلزمت عندئذٍ داري، وكان ما تمّ على غير إرادة الركابي»^(١).

وقد ضمّ ساطع إلى جمعية العربية الفتاة بعد مجيئه من بلاد الترك، والعربية الفتاة هي القوة الحاكمة فعلياً في ذلك العهد، وقلّما يصل شخص إلى منصب رفيع في الحكومة إلا برضاها، أو بتنسيب منها، كما بيّنا سابقاً، وهذا ما يفسّر لنا قول الركابي الذي لم يستطع -على قوته في الحكومة- أن يقاوم إصرار الجمعية على تعيين ساطع، علماً بأنّ ساطعاً كان راغباً عن الارتباط بأية حركة إصلاحية عربية بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨م^(٢).

ويظهر أنّ مجيء ساطع المفاجئ لدمشق، وتسلمه واحداً من أعلى المناصب المهمة في الحكومة، رغمًا عن مشيئة الركابي، جعل الركابي يوجّه اللوم لكرد علي بقوله: «أنت الذي جنيت على نفسك، بامتداحك الرجل، واستدعائك له. وكتم عني

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٧.

(٢) الجواهري، محمّد مهدي، ذكرياتي، ط ١، دار الرافدين، دمشق، ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٦.

ما جرى على عادة السياسيين في التكتّم»^(١) من جانب، ويوجّه الركابي اللوم لنفسه قائلاً: «إنني لا أعذر»^(٢) من جانبٍ آخر.

ويحقّ للباحث أن يتساءل: ما الذي كتّمه الركابي عن كرد بخصوص ساطع؟ وما سرُّ هذا الصعود السريع لساطع إلى أعلى مناصب الحكومة؟ وما طبيعة العلاقة القائمة بين ساطع وكرد؟ وهل أثّرت في مسيرة المجمع؟ وما الذي جعل ساطعاً مقرباً جداً من الملك فيصل في سوريا ثم في العراق فيما بعد؟ وهل من قوى خفية تقف وراء ساطع، وتحركه من وراء ستار؟ وهل كان له دور في وقف المجمع وتعطيله؟ أم أنه كان من الداعمين لإعادة المجمع للعمل؟ وللإجابة على هذه الأسئلة وغيرها نودُّ أن نورد النقاط الآتية:

- وُلِدَ ساطع بن محمّد بن هلال الحصري الحلبي الأصل، في صنعاء سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م، إذ كان والده رئيس محكمة فيها^(٣).
- نشأ ساطع، وتعلّم في إسطنبول وغيرها من بلاد الترك، يقول كرد علي: «حُمِلَ من أرض العرب، إلى بلاد الترك طفلاً، فنشأ نشأة تركية، واقتبس أخلاق من عاش بينهم، وسرى على طرائقهم»^(٤).
- تخصصّ ساطع في (التربية)، وألّف باللغة التركية اثني عشر كتاباً مدرسياً، كانت تدرّس في المدارس التركية، وأصدر بالتركية مجلة في (التربية)، كانت الأولى في موضوعها في لغة الترك، وأسّس مدرسة نموذجية اشتهرت في بلاد الترك، وكان مديراً لدار المعلمين العالية في إسطنبول^(٥).

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٧٠.

(٤) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٨٨٠.

(٥) الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٧٠، دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٩٦.

• كانت لغته العربية ضعيفة، عندما ترك تركيا وقدم إلى الحكومة العربية بدمشق، ويصفه كرد حال عودته: «وعد إلى مسقط رأسه (يقصد أرض العرب)، وهو في الكهولة، أعجم طمطم، لا يعرف العربية، ولا تثقف بثقافة الإسلام»^(١). وتحدث دروزة عن لغة ساطع قائلاً: «وكانت لغته العربية ضعيفة، حينما جاء من الأستانة إلى دمشق، عقب دخول الأمير فيصل، فبذل جهده حتى أتقنها، قراءةً وكتابةً ونحواً وصرفاً، غير أنه كان يلكن فيها بلكنة تركية»^(٢). وقد أكد لي حقيقة ضعف ساطع الحصري باللغة العربية، سعيد التل، الذي سمعه يتحدث العربية بلكنة أعجمية.

يتضح أن ساطعاً على كثرة مؤلفاته التي جاوزت الخمسين، لم يتمكن من إتقان العربية إتقاناً يليق بمفكر يدعو إلى القومية، التي عمودها اللغة، ويذكر لنا الزركلي وهو صديقه: «كان أصدقاؤه، يساعدونه في إصلاح لغتها قبل الطبع»^(٣). ويظهر أن ساطعاً قد تعلم العربية لغةً ثالثةً، وهو على أبواب الأربعين من عمره، في أيام الحكومة العربية، وعله ذلك كما يقول (كليفلاند)^(٤): «ولمّا كان ساطع عثمانياً شمولياً، منقطعاً عن جذوره العربية، لغةً وثقافةً، ومتمتعاً بشهرة ومكانة مرموقتين، فإنه كان ذا مصلحة أكيدة في بقاء الحالة اللاقومية»^(٥).

• بلغ ساطع الحصري أوج شهرته في ظل هيمنة جمعية الاتحاد والترقي وتمددها، التي قامت بانقلابها على السلطان عبد الحميد، وشوّهت صورته، ولقّبت بالسلطان الأحمر، علماً بأنه لم يُرِقِ الدماء، وكانت هذه الجمعية قد اتّبعَت قاعدةً وضع كبار رجال الدولة وزعمائها في صفوفها... وهذه الجمعية السرية «كانت على عهد ظهورها، تُحرِّكُ بجبروتها أركان المملكة العثمانية الشاسعة، وتهزُّ بقوتها عرش

(١) كرد علي، المذكرات، ج٣، ص ٨٨٠.

(٢) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج١، ص ٣٩٦.

(٣) الزركلي، الأعلام، ج٣، ص ٧٠.

(٤) الجواهري، ذكريات، ج١، ص ١٦١.

(٥) كليفلاند، وليام ل.: ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، تعريب: فيكتور سحاب. ط١، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٨١؛ وانظره، ص ٥١؛ وانظر: الجواهري، ذكرياتي، ج١، ص ١٦٧.

السلطان عبد الحميد، فلما دُعِيَ الشيخ فواز (شيخ قبيلة بني صخر)، إلى هيئة جمعية الاتحاد والترقي، جِيء به إليها معصوب العينين؛ ليقسم يمينها المُغلظة على السيف والمصحف، فيقول بحضور بعض الأمراء العسكريين، وكبار رجال المملكة من أعضائها: «أقسم، وبديني، وبشرفي، إنني لا أفرق بين العناصر العثمانية إلى آخره». ولكنَّ الشيخ فواز وجد اليمين طويلة وثقيلة على لسانه، فاقتلع العصاة عن عينيه، وقال: «والله لا أقسم على هذه اليمين... ولكنني أقول: والله إن صدقتم صدقنا، وإن بقتم بقنا (غدرنا)»^(١).

وهذا مثال يصوِّر لنا قوة نفوذ هذا التنظيم السريّ، الذي هيمن على الدولة العثمانية في آخر عهدها، وهدمها من أساسها، وأدى إلى ثورة العرب عليها؛ لقسوة هذا الحزب وشيوع مظالمه ضد العرب أكثر من غيرهم من الأجناس.

• وبقي ساطع محافظاً على الانتماء إلى العثمينة وإصلاح أوضاعها، وهي عنده فوق كلِّ اعتبار، «وكان ولاؤه يتّجه صوب الرابطة العثمانية الشاملة، ورغب في بقاء السلطنة وتجديد شبابها»^(٢). وكانت دعوة ساطع إلى إحياء السلطنة العثمانية قائمة على «اعتماد القيم الغربية»^(٣)، لا الإسلامية.

• كان ساطع مبتعداً عن الحركات الإصلاحية العربية التي نشأت في أخريات أيام الدولة العثمانية؛ أي بعد ١٩٠٨م في الأستانة، وعلى الرغم من كونه صديقاً لعبد الكريم الخليل، أحد قادة حركة الإصلاح العربية، ورئيس المنتدى الأدبي العربي في الأستانة، والذي أعده جمال باشا السفاح في بيروت سنة ١٩١٦م، قال ساطع عندما بُلِّغَ بخبر صدور الحكم عليه بالإعدام: «إنَّ ذلك لا يهمني»^(٤).

(١) الحكيم، حسن: صفحة في حياة الشهبندر، ط١، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الأردن، ١٩٩٤م، ص٤٥.

(٢) كليفلاند: ساطع من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ص٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص٧٦.

(٤) الجواهري، ذكرياتي، ج١، ص١٦٩.

• ظلَّ ساطع مخلصاً لفكرة (العثمينة)، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م، ففرَّ إلى الأمير فيصل في بداية الحكومة العربية ١٩١٩م؛ لأنَّه أصبح شبه مطلوب من القوميين الأتراك، وهذا ما يُفسَّر «هذه النقلة من الرابطة العثمانية إلى الرابطة العربية، بين ليلة وضحاها»^(١).

• اتَّسم ساطع بقوة الشخصية، وقوة السطوة، وعظم الاعتداد بالنفس، وعُرف بالجرأة في القول، يقول عنه صديقه محمَّد عزة دروزة: «وهو شديد الاستقامة، شديد التصلُّب في رأيه، شديد الجرأة في قول ما يراه حقًّا، والثبات عليه»^(٢). ويذهب كرد علي إلى أنَّ ساطعاً كان متعالياً على غيره من العلماء، الذين رأى أنَّهم دونه، فهو لا قرين له في السؤدد والفضل، ولا ضريع له في العلم والفهم، يقول: «وكان لسانُ حاله أنا شخص، ولا كالأشخاص، والعارفون كلُّهم دوني»^(٣).

ويصف كرد علي ساطعاً باللَّدد في الخصومة، ومحاولة انتقاص أولي الفضل، والطعن فيهم شخصياً وعلمياً، والعمل على اقتلاعهم من طريق مجده وطموحه، وبخاصة إذا رأى فيهم منافسين خطيرين، يقول: «ولمَّا أيس من الظهور من طريق العلم، لم يرَ أحسنَ من أن ينتقص أهل الفضل، ويُبعدهم جهده عن الحظيرة التي لا يريد أن يشركه فيها أحد»^(٤).

ويظهر أنَّ مقصود كرد علي من هذا الكلام، ما وقع عندما قدِم ساطع من الأستانة، وعيَّن مديراً للمعارف بدلاً منه؛ نتيجةً للضغط الذي مارسه بعض الأحزاب على الركابي الحاكم العسكري - كما بيَّنا سابقاً - .

ويزيد كرد علي الأمر وضوحاً، بخصوص تعيين ساطع مديراً للمعارف قائلاً: «كان له أنصار، أكثرهم من الذين ما كان من مطمع لهم في الالتفاف حوله، إلاَّ معاونته

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٩.

(٢) دروزة، مذكرات محمَّد عزة دروزة، ج ١، ص ٣٩٦.

(٣) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٨٨٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٣، ص ٨٨٠.

على دنياهم، فهياًوا له دعايةً واسعةً النطاق، خُذعَ بها من خُذع، واقتنع بصحتها من اقتنع، وبها وصل رياسات كان جماع رأس مالها دعايات... شهرة تقوم على الدعاية المصطنعة، ويغذيها النيلُ من مكانة أصحاب المكنات، ودعوى عريضة لا يتجاهر بتصديقها إلا من اضطرَّهم الزمن إلى أن يكونوا مرؤوسيه»^(١).

وقد يشكُّ القارئ في مدى مصداقية كرد فيما قاله أعلاه؛ لأنَّ الرجلين كانا من الأقران، وكلام الأقران بعضهم ببعض قد يكون مشكوكاً في صحة بعضه، وقد قيل قديماً أنَّ شهادة الأقران بعضهم على بعض لا تُقبل، على ما في هذا القول من تعسُّف؛ لأنَّ بعضَ الرجال يجعلونَ الحَقَّ والنصفة ميزاناً يزنون به أعمالهم وأقوالهم.

ولكنَّ محمَّد عزة دروزة يذكر لنا في مذكراته خبراً إذا دلالة مهمة عن ساطع، الذي كان يحيط نفسه بأصدقائه ومعارفه، ويُسدي إليهم من الفضل والإحسان، ما يجعله منَّة في أعناقهم، وبالتالي يضمنُ ولاءهم ونصرتهم له في أيام الشدائد، وعند اصطدام الأقران، يقول دروزة في معرض حديثه عن الملك فيصل: «ولمَّا صار ملكاً على العراق، أرسل لي ساطع الحصري الذي كان التحق به، رسالةً يدعوني فيها إلى العراق؛ لأشارك في بناء الدولة في أيِّ عملٍ أقترحه»^(٢). وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ساطعاً أرسل إلى آخرين ممَّن كانوا معه في دمشق مثل هذه الرسالة، أو ما هو في معناها، ونلاحظ هنا أنَّه ترك لدروزة حرية اختيار المنصب والعمل الذي يريد، وهذا أمرٌ يدلُّ على ما لساطع من نفوذ، وصلاحيات واسعة جداً في العراق.

• عُرِفَ ساطع بأنه من دعاة العلمانية، والليبرالية، والتغريب، وكما هو معروف فإنَّ العلمانية نشأت في أوروبا في القرن السابع عشر^(٣)؛ لأنَّ الكنيسة كانت تتصدى

(١) كرد علي، المذكرات، ج٣، ص ٨٨١.

(٢) دروزة، مذكرات محمَّد عزة دروزة، ج١، ص ٣٧٧.

(٣) انظر: سكوت، جون: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة: محمَّد الجوهري، محمود الرشيد، محمَّد محيي الدين، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ج٢، ص ٣٦١.

للعلم، وتطارد العلماء، فدعت العلمانية إلى فصل الكنيسة عن الدولة، ورفضت القول بالحقّ الإلهي للملوك في الحكم، وحاربت الإقطاع المتحالف مع الكنيسة. وتقوم العلمانية على مبادئ: الفصل بين الدين والدولة، وحرية التفكير والتعبير والممارسة الدينية، وعدم التمييز بين الناس على أساس العقائد الدينية، ولكن العلمانية الفلسفية تهدف إلى النأي بالحكومة عن الأعمال والمؤسسات الدينية، هادفةً إلى تقليص دور الدين في المجتمعات، وفي حياة الناس.

ومما يؤكّد لنا قوة (العلمنة) وهيمنة الفكر العلمانيّ على ساطع الحصري، الكتاب الذي ألفه المستشرق الروسي تيخونوفا، وقد وسم كتابه بـ(ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي)، ومن أهمّ النتائج في هذا الكتاب:

• أنّ ساطعاً قد «أرسى التيار العلمانيّ في الفكر القومي العربي، ووضع أول نظرية علمانية في القومية العربية».

• أنّ ساطعاً «ينفي أن يكون الدين عاملاً من عوامل تكوين الأمة العربية».

• يؤكّد (تيخونوفا) على «مأثرته الجليّة في طرح أفكار تقدمية، مثل: استبعاد الإسلام من بين مقومات الأمة العربية، وفضحه للجوانب الرجعية في دعوات الرابطة الإسلامية، وبرغم ما نجده اليوم من أنّ مؤلفين عديدين يرون في مشاعر العرب الدينية أساس القرابة المعنوية للأمة»^(١).

أمّا دور الليبرالية عند جميل صليبا فهي: «مذهب الحرية، وهو مذهب سياسي فلسفي، يقرّر أنّ وحدة الدين ليست ضرورةً لتنظيم الاجتماعي الصالح، وأنّ القانون يجب أن يكفل حرية الرأي والاعتقاد. والليبرالية كانت ردة فعل لمظالم الكنيسة وبطشها، الذي كان سبباً في قيام الثورات في الغرب، ويرى الفيلسوف راسل: أنّ اسم

(١) تيخونوفا: ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي، ترجمة: توفيق سلوم، ط ١، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٧، ص ٨، ١٢، ١٥، ٨٩.

الليبرالية أقرب إلى الغموض، ومن أهم أسباب غموض مصطلح الليبرالية غموض مبدأ الحرية^(١) الذي يختلف الناس فيه، وبالتالي لا يمكن ضبطه.

وتقوم الليبرالية على تقديس العقل، إذ هو قادرٌ على تحديد المصالح والمفاسد دون الوحي والنصوص الدينية، ولذا فإن الليبرالية قريبةٌ من العلمانية في أفكارها وأهدافها.

ولا يخفى على الباحثين في التاريخ العربي الحديث، أن الاستعمار الغربي قد بثّ الإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي، منذ مطلع القرن التاسع عشر، وأنفق عليها أموالاً طائلة، ورُصدت لها الصناديق المائيّة الضخمة، وأصبحت أعدادها كأعداد الجيوش، وتسَلَّلت لأرض المسلمين بدعوى التطبيب والعمل الخيري؛ فأنشئت المدارس والجامعات والمعاهد والمستشفيات، وكانت لها مؤتمراتها التبشيرية والاستعمارية^(٢)، ولا شك في أن التبشير من أذرع الاستعمار الغربي الحديث، وهو عادةً ما يسبق الجيوش، ويُمهد الطريق للاحتلال.

وكان المُبشّرون يراقبون التعليم في المدارس العربية، مدركين دوره وأهميته في رسم مستقبل المجتمعات، ولذلك فإنّ القسيس زويمر في سنة ١٨٩٢م، أنكر على صاحب تقرير رُفِعَ إليه، إغفاله ذكر المدارس، «إذ إنّ المدارس أحسن ما يُعوّل عليه المُبشّرون في التحكم بالمسلمين»^(٣). وكانت إنجلترا المستعمرة لمصر هدفاً لنقد المُبشّرين؛ «لأنّ تعليم الدين الإسلامي جبري في المدارس المصرية، والحكومة المصرية هي التي تنفق عليه...»^(٤).

ويبدو أنّ حرب الغرب على القرآن الكريم وعلى اللغة العربية، كانت ضارية، وأعدت لها الخطط الكثيرة، وحشدت لها جيوش من المفكرين والمستشرقين

(١) انظر: <http://www.dorar.net/enc/mazahib/238>

(٢) انظر: شاتليه. أ. ل: الغارة على العالم الإسلامي، لخصها ونقلها إلى العربية: محب الدين الخطيب، مساعد اليافعي، ط ٤، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٩٨هـ، ص ٤١.

(٣) انظر: شاتليه. أ. ل: المرجع السابق: ص ٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٣.

والمبشرين؛ لأنَّ القرآن هو الأساس الذي تقوم عليه الحضارة العربية الإسلامية والدين الإسلامي، ولأنَّ القرآن هو النصُّ المقدَّس بلسان عربي مبين، ولا يمكن تحريفه أو تغييره، ولذا فإنَّه الحافظ للعربية من الزوال، والاندثار والانقراض، كغيرها من اللغات البشرية التي تتساقط أو تتحول من لغة إلى أخرى، أو تموت عبر كَرِّ القرون، وتبدُّل الأجيال، والأمثلة التاريخية على ذلك كثيرة: «فقد شهد التاريخ موت الهيروغلوفية لغة الفراعنة وبناء الأهرام! وشهد التاريخ موت اللغة الإغريقية واللغة اللاتينية، وهما لغتان لإمبراطوريتين بلغتا في القوة شأواً عظيماً... وربما يتبادر للذهن مباشرة، أنَّ العربية لم تمت لأنها لغة دين، وهذا صحيح.

ولكن يبقى السؤال ملحاً، لماذا ماتت الآرامية وهي لغة المسيح، وهي لغة دين، إذ هي لغة الإنجيل وبها نزل؟ بل ولماذا تراجعت العبرية، وهي لغة التلمود والتوراة: كتاب الملة اليهودية؟ واليهود أكثر الخلق دهاءً، وأعظمهم مكرًا، وأشدَّهم كيداً وتديراً، وأكثر الناس حرصاً على تراثهم وثقافتهم، كيف ماتت هذه اللغات واندثرت؟ ولم تمت العربية، ولم تبدل، ولم تتحوَّل!«^(١).

ولا ريب في أنَّ الإجابة على السؤال المتقدم، المتعلِّق بعدم موت العربية أو تحوُّلها إلى لهجات، هو القرآن العظيم، ولذا كان «الهدف المركزي للمستشرقين والمبشرين هو تحريف القرآن، ومحاولة زعزعته بضرب حرفه العربي، وهدم لغته الفصحى، وتشجيع اللهجات العامية، يقول المستشرق واللغوي والمبشر الجاسوس الإنجليزي (وليم جيفورد) بالكراف (١٨٨٨ م): «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يُمكننا حينئذٍ أن نرى العربيَّ يتدرج في سبيل الحضارة، التي لم يبعده عنها إلا محمَّد وكتابه»^(٢).

(١) الطيب، عبد المجيد: منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية، ط٣، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام، مكة المكرمة، ١٤٣٩هـ، ص ٢٢؛ وانظر: هاريسون، ديفيد: عندما تموت اللغات، ترجمة: محمَّد مازن جلال، ط١، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، ص ١٩، ٣٩١-٣٩٣؛ تراسك، ر.ل: لماذا تتغير اللغات، ترجمة: محمَّد مازن جلال، ط١، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، ص ١٧٤-١٨٧.

(٢) شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٣٥.

وكان المستعمرون حريصين أشدَّ الحرص على تغريب التعليم في البلاد العربية، يقول المستشرق هاملتون جب: «والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب، هو أن نتبيّن إلى أي حدّ، يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادئ الغربية، وعلى التفكير الغربي... هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيلَ غيره»^(١).

وفوق ذلك، فإنّ جماعة (تركيا الفتاة) السريّة، والمطاردة في زمن السلطان عبد الحميد، كانت تهاجم التعليم الديني، فولّي الدين يَكِن كان من أشدّ المناصرين لهذه الجمعية، فرّاً إلى مصر، وحماه اللورد (كرومر)، وكان (يَكِن) يدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الغربية، ويهاجم رجال الدين «ويتهّمهم بأنهم سبب البلاء، وموطن الداء، بل ويهاجم الدين نفسه، ساخراً بقيمه وشعائره، مستبدلاً بها القيم التي كان يدعو إليها اللبراليّون من اللادينيين في أوروبا»^(٢). علماً بأنّ الاتحاديين أو جماعة الاتحاد والترقي الذين هيمنوا على الحكم في الدولة العثمانية بعد انقلابهم على السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م، كانوا هم الواجهة العلنية لـ (تركيا الفتاة)، كما عُرف الاتحاديون بقرهم من الماسونية العالمية وموالاتهم لها^(٣).

ويبدو أنّ المحافل الماسونية في تلك الفترة، قد تغلغت في الدولة العثمانية، ودخلها كثير من الأتراك والعرب، وأنّ شبكة الماسونية قد تمدّدت بشكل واسع، وخرطت الكثيرين في سلكها، يقول أحمد أبو ملحّم في حديثه عن نجيب عازوري: «أنشأ محفلاً ذا شكل ماسوني، بطقس إسكتلندي، يهدف لتحرير الأمة، ولم يمض وقت طويل حتى احتضنت البلاد العربيّة فروعاً لمحفّل القاهرة، كانت الشبكة محكمة، تضمّ كلّ الأفراد والمشايخ، والأشراف وأبناء كبار العائلات، والضباط والطلاب»^(٤).

(١) حسين، محمّد محمّد: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج٢، ص٢١٦.

(٢) حسين، محمّد محمّد: المرجع السابق: ص٢١٨.

(٣) حسين، المرجع السابق، ص٢، ص٧٩.

(٤) عازوري، نجيب: يقظة الأمة العربية، نقله إلى العربية وقدم له: أحمد أبو ملحّم، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٧.

ويذكر لنا كرد أيضاً أنّ المحافل الماسونية كانت منتشرة في تركيا وبلاد الشام، وأنّ هذه المحافل عرضت عليه الدخول في محفلها في مصر والشام، وأنّها كانت «تذكر لي المرغبات فيها، والغنائم المتوقعة منها»^(١). إنّ قوة انتشار هذه المحافل، وتغلغلها في نخبة المجتمع من وجهاء ومثقفين، وموظفين وأمرء وطلاب، وما تعرّضه على من انضمّ إليها من الامتيازات والترقيات، تجعلنا غير مستبعدين أنّ ساطعاً كان واحداً من رجالها الغرّ الميامين، الذين يحملون لواء العلمنة واجتثاث الدين من التعليم.

وتزداد لدينا الأمور وضوحاً، إذا عرفنا أنّ ساطعاً كان من أقطاب التربية والتعليم في دولة الاتحاديين، اللاهثين وراء التغريب والعلمنة للمجتمع وللتعليم، والساعين إلى إبعاد الدّين عن المؤسسات التعليمية في الدولة التركية، بل تقليص دور الدّين وتأثيره في الحياة والمجتمع، يقول ساطع: «إنّ وحدة اللغة لم تصبح من القوى الفاعلة في تكوين الدول، وتوجيه السياسات، إلا في القرن الأخير، وإلا بعد أن فقدت (وحدة الدّين) قوتها، وتأثيرها في هذا المضمار... كما أنّ تأثير (وحدة اللغة) في السياسة لم ينته بانتهاء القرن المذكور، بل ازداد شدةً في القرن الذي نعيش فيه، وهو لا يزال مستمرّاً وشديداً»^(٢).

قلت: إنّ ما قاله ساطع أعلاه، يمكن أن يردّ عليه من كلامه، ومما دونه في كتابه الرائع (يوم ميسلون)، الذي يُعدّ وثيقةً تاريخيةً، تصوّر الروح الصليبية الكريهة التي جاء بها الإفرنسييس إلى بلاد الشام، فقد ذكر ساطع ما أورده الجنرال غوابه -قائد الفرنسيين في معركة ميسلون التي وقعت في الرابع والعشرين من شهر تموز ١٩٢٠م- : «أنا في دمشق! إنّ هذا الاسم كان يمثّل لي شيئاً خرافياً، عندما كنت أقرأه في سجلات عائلي، وأنا بعد في سن الطفولة، أنّ جان مونغولغيه، الجدّ البعيد لجدي من جهة لويز، كان وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م، ونُقِلَ إلى مدينة دمشق.

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٢) الحصري، ساطع: الأعمال القومية، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩م، ق ٤، ص ٢٨٦٨.

إنَّه كان من السواد الأعظم، ولذلك لم يعامله «السراقون» المعاملة الحسنة، التي كان يختصُّ بها الفرسان اللامعون... أو ليست (العدالة العليا) هي التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية، أن يدخل المدينة المقدسة ظافراً منصوراً؟^(١).

وهل نسي ساطع تهديد (غورو) ووعيده للحكومة العربية بدمشق، وهل نسي إهانة غورو له عندما ذهب إليه سفيراً، فقابله بكلِّ جفاءٍ واحتقار، وعندما قال (غورو) في خطابه في بيروت سنة ١٩٢٠م: «إنني سليل الصليبيين الذين دوَّخوا هذه البلاد في غابر الزمن، وقد أتيتُ إلى هنا لأتممَّ ما تركه أولئك الأبطال»^(٢).

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ساطعاً كان عارفاً بهذا، وعارفاً بدخول (اللنبي) للقدس دخول الفاتحين، بعد أن حشد ثلث مليون مقاتل؛ عشرات الآلاف منهم جُلَّهم من المرتزقة والهنود والأستراليين وغيرهم، وضحت الحامية العثمانية بخمسة وعشرين ألفاً من الشهداء دفاعاً عن القدس، وقال (إدموند اللنبي) عبارته المشهورة «الآن انتهت الحروب الصليبية»، وكتبت جريدة نيويورك هيرلد الأمريكية في ١١ ديسمبر عام ١٩١٧م تحت عنوان: «القوات البريطانية تنقذ أورشليم بعد ٦٧٣ سنة من حكم المسلمين». وما تلا ذلك من احتفالات شملت كلَّ أوروبا، ودقَّت أجراس الكنائس فيها لعدة أيام؛ ابتهاجاً بانتصارها على المسلمين، واحتلالهم للقدس.

ولكنَّ ساطعاً كان مأموراً بأن يعمل على انتزاع الدِّين من التعليم، وموظفاً لتقليص دور الدين في حياة المجتمع، وعلمنة المناهج في المدارس. والحربُ على الدِّين تعني الحرب على القرآن الذي هو أساس اللغة العربية، التي بقيت ببقاء القرآن الذي هو الكتاب السماويُّ الوحيد الذي يُقرأ بلغته الأصلية التي أنزل بها، وهي العربية الخالدة لتخليد القرآن لها، وحفظها من دسائس وحمولات المنافقين والغزاة على مدار خمسة عشر قرناً.

(١) الحصري، يوم ميسلون، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) العظمة، عبد العزيز: مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها)، ط ١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م.

ويبدو أنّ تنفيذ ساطع لمشروع إضعاف التعليم الدينيّ، ومحاولة زعزعته في المدارس، قد بدأ أيام الحكومة العربية بدمشق، وقد قوبل ذلك بسخط شعبيّ وشكوى متكررة من ساطع وزير المعارف، وكَثُرَ تذرُّمُ العلماء من سياسة ساطع التي هزّت مكانة الحكومة العربية بين الناس، وقد وصف لنا ذلك المفكّر الكبير محمّد رشيد رضا، عند زيارته لدمشق سنة ١٩٢٠م، يقول: «... وكان بعضُ العلماء والعامّة، يُكثرون الطعن في وزير المعارف خاصة، ويزعمون أنّه يريد إضعاف الدِّين في المدارس، وتعويد البنات فيها على التّهتُّك، وطالما راجعوني في هذا قبل إعلان الاستقلال وبعده، متوسّلين بي إلى السعي معهم لدى الأمير ثمّ الملك بعزله، فكنت أنصح لهم بالتأني، وأحسب حساباً لتعوّد الشعب الافتيات على الحكومة، ولا سيما الطامعين منه في أعمالها ومناصبها، وأرى أنّ السعي لتلافي الخلل، وإقناع الحكومة بإصلاح ما يُنتقد عليها بحقّ، أحسن عاقبة من إطماعهم فيها، وقد ذكرتُ رأيي هذا لمدير المعارف، ثم وزيرها؛ ليكونَ على بصيرةٍ من أمره»^(١).

ويبدو لي أنّ رضا لم يتوانَ عن مراجعة الملك فيصل وأخيه الأمير زيد بالسخط الشعبيّ على ساطع، ورغبة الناس في إقالته من وزارة المعارف، ويبدو أنّ ما شكاه منه علماء دمشق وعامتها بخصوص ما فعله ساطع من إضعاف الدِّين، وتعويد للبنات على التّهتُّك، هو امتداد لما فعله الاتحاديون في تركيا، يقول شكيب أرسلان: «فقد أحدثَ ظفر الدولة في الدردنيل، نشوةً ظفر عند رجال الاتحاد والترقيّ، حملتهم على قرارات غريبة عجيبة، من جعلتها سفور النساء بعد أن كان ممنوعاً...»^(٢). ومعروف أنّ معركة الدردنيل أو جناق قلعة، قد وقعت سنة ١٩١٥م، في الوقت الذي كان فيه ساطع مشرفاً على التعليم في الولايات العثمانية، ممّا يدلّ على تبنيّه لسياسة إبعاد الدين من المناهج والحياة الاجتماعية.

(١) رضا، محمّد رشيد: «الرحلة السورية الثانية»، منشور ضمن مجلة المنار، سنة ١٩٢٢م، الجزء الرابع، المجلد ٢٣، ص ٣١٧.

(٢) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ط ١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م، ص ١٨٥.

ومما هو جدير بالذكر أيضاً، أنَّ (جريدة القبلة) التي كانت تصدر في مكة المكرمة، نشرت مقالةً بعنوان: «خطر الاتحاديين على الأخلاق والدين»^(١)، بيّنت فيها خطر الاتحاديين على الدين، وأنهم ينفذون خطةً مرسومةً في تدمير العقائد، ومعاداة الدين، وإفساد أخلاق النساء، وأنَّ جرائد الاتحاديين بدأت تجاهر بذلك، وتدعو إليه، بل وصل بهم الأمر إلى وصف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّها أشع السير.

وقد نُفذت هذه السياسة التعليمية في العلمنة، في الوقت الذي كان فيه ساطع يؤلّف المناهج المدرسية، ويصدر مجلته (التربية)، وهي أول مجلة من نوعها في اللغة التركية كما ذكرنا من قبل.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ ما فعله ساطع كان مضرّاً باستقلال هذه الحكومة الفتية، ويشكّل خطراً وتحدياً لمجتمع إسلامي محافظ، ولكن لماذا يُسكّت عمّا يفعل ساطع، في حين أنَّ جريدة القبلة كانت تهاجم ما فعله الاتحاديون.

ولكنَّ نجم ساطع بقي ساطعاً في المعارف حتى آخر أيام الحكومة العربية، يقول محمّد رشيد رضا متمماً كلامه السابق: «... ولم يقف تأثيرُ ضعف الحكومة في الشعب عند هذا الحدِّ، بل أفضى أخيراً بالساختين والطامعين، أن تجرّوا على السعي لهدم الاستقلال، والتزلّف إلى الأجانب، فقوي الحزبُ الوطنيُّ المتّهم بموالاته فرنسا، وهو الذي كان يرأسه عبد الرحمن باشا اليوسف، حتى إنّه بلغ الحكومة، أنّهم عزموا على تأليف وفدٍ فيه سبعةٌ من حملة العمائم، وسكنة الأثواب العباب، يرسلونه إلى باريس لطلب الانتداب الفرنسي على جميع البلاد السورية، ولم تفعل الحكومة شيئاً»^(٢).

قلت: إنّ ما خطّط له الحزب الوطنيُّ مُستنكراً، وبخاصة بعد إعلان الحكومة العربية استقلالها، عندما تخلّت عنها بريطانيا، وطلبت منها التفاهم مع فرنسا، ووافق الملك

(١) انظر: جريدة القبلة، ١٢ رجب ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م، العدد (٧٥)، ص ٢.

(٢) رضا، محمّد رشيد: «الرحلة السورية الثانية»، ج ٤، مجلد ٢٣، ص ٣١٧.

على مشروع فيصل - كدمينصو، ولكنّ ما فعله ساطع من علمنةٍ للتعليم، وتهميش
للدين في المناهج، أثار غضباً شعبياً عظيماً على المعارف التي يشرف عليها ساطع،
الذي طالب كثيرٌ من الناس بعزله، ولا شكَّ أنّ رضا قد أخبر الملك وشقيقه زيداً بتذمّر
الناس من وزارة ساطع، ولكنّ الملك لم يحرك ساكناً، وربما كان غير قادر على قلقلة
ساطع من موقعه؛ لقوة الجهة الداعمة له، التي ربما كانت حزبية، وربما كانت أجنبية،
وربما كانت ماسونية، تحركه من وراء ستار؛ لتنفيذ سياساتها في التعليم في الأرض
العربية، علماً بأنّ من سياسة الشريف الحسين بن علي مهاجمة الاتحاديين الذين
جعلوا من الدين والأخلاق الإسلامية هدفاً يهاجمونه، ويرغبون في اقتلعه من حياة
الناس، وقد أشرنا إلى المقالة المنشورة بجريدة (القبلة).

وعلاوةً على ذلك، فإنّ المقرّرات الدراسية في الدولة العربية الهاشمية في الحجاز،
كانت تركّز على تدريس القرآن والعلوم الدينية، وعلى الاهتمام الشديد باللغة العربية
وعلموها، وقد ظهر ذلك في معرض الحديث عن المدارس الابتدائية: «مدة الدراسة
فيها أربع سنوات، ويدرس فيها القرآن الكريم مجوّداً، وعلم التجويد، ومبادئ أصول
التفسير من تفسير الآيات الأخلاقية وحفظها، وعلم التوحيد... وعلم الفقه...
والصّرف والنحو، ومبادئ البلاغة، وآداب اللغة العربية، والإنشاء، والتمرّن على
الخطابة، والإملاء العربي، والقراءة العربية...»^(١).

وقد عبّت هند أبو الشعر على المقرّرات الدراسية في الحكومة الهاشمية، التي تُعدّ
الحكومة العربية بدمشق امتداداً لها، ومنها استمدّت شرعية دخولها لدمشق وقيامها
بها، فتقول: «هذه هي إذن خطة الدولة العربية الهاشمية التي تحمل راية الثورة العربية
الكبرى في بناء محور التعليم، وهو كما يلاحظ خط يخدم تطلعات الدولة في التأسيس
لتخريج جيل يخدم الدولة، ويعمل في وظائفها ويديرها، وهذا يعني تأسيس العاملين
دينياً، وتأهيلهم في مجال اللغة العربية التي تُعتبر أساس وحياة الدولة وبنائها القومي،

(١) جريدة القبلة، غرة صفر، سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م، العدد (٣٠)، ص ٢.

الذي يستند إلى علوم القرآن الكريم، وهذه قاعدةٌ أساسيةٌ من قواعد شخصية الدولة العربية الهاشمية، التي تجمع الروح الدينية المعنوية والقومية العربية...»^(١).

وقد يبدو لبعض القراء أن ما ذكر أعلاه عن ساطع مجرد حدس وتخمين، أو هو نتيجة لموقف فكري من ساطع، والذي أقوله: إن الوقائع التاريخية، المؤيدة بالوثائق، تدلّ على أن ساطعاً كان مؤيداً بدعم خارجي منظم فيما يتعلق بتهميش التعليم الديني، وعلمنة المناهج الدراسية، وقد تكشّفت لنا مواقفه - فيما بعد - من خلال مشروع جامعتي: الأشبال، وجامعة آل البيت في العراق، فعندما نودي بالأمر فيصل ملكاً على العراق في الحادي عشر من تموز سنة ١٩٢١م، وتوجّ في الثالث والعشرين من آب من العام نفسه برعاية ودعم من الإنجليز، بدأ ببناء مؤسسات الدولة العراقية الحديثة، وكان حريصاً على إنشاء جامعة عراقية، فقدم له وزير المعارف هبة الله الشهرستاني، مشروع (جامعة الأشبال)، بناءً على طلب الملك فيصل، ولكن ساطعاً الذي كان يشغل منصب مدير المعارف العام في العراق للفترة ١٩٢٣-١٩٢٧م، انتقد المشروع بشدة، وأنه عديم الجدوى، ولا يخدم مصلحة العراق الوطنية، فصرف النظر عنه^(٢).

والظاهر أن الملك فيصل كان راغباً في تأسيس جامعة للعراق، فعهد لفهمي المدرس، الذي كان أميناً للبلاط الملكي، بتأسيس جامعة آل البيت؛ لتكون جامعة عصرية. والمدرّس شخصية علمية عراقية مشهود لها بالخبرة والكفاءة، والاطّلاع على التعليم الجامعي وأنظمتها في كمبرج، والسوربون، والقاهرة، وكان مدرّساً جامعياً في الجامعة العثمانية (دار الفنون) لمدة خمسة عشر عاماً، وقرّر مجلس الوزراء العراقيّ انتخابه أميناً للجامعة في شهر نيسان من عام ١٩٢٤م^(٣).

(١) أبو الشعر، هند: ذاكرة الثورة العربية الكبرى ونهضة العرب، ط١، مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ق١، ص١٨٦.

(٢) انظر: الجميل، سيار: «الملك فيصل الأول والتأسيس العلمي الحديث (جامعة آل البيت في العراق ١٩٢٤-١٩٣٠م)»، بحث منشور ضمن كتاب بناء الدولة العربية الحديثة تجربة فيصل بن الحسين في

سورية والعراق. تحرير: هند أبو الشعر، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠١٨م، ج١، ص٣٧٩-٣٨٠.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣٦١.

ووضع الملك فيصل حجر الأساس للجامعة، وأقيمت بعض بناياتها، وقدرت تكاليفها المالية، وسمّيت كليّاتها وأقسامها، ووُضعت الخطط والبرامج الدراسية، وعيّن لها المدرّسون، وتشكّلت لجنة وزارية لدراسة نظامها، وعُرض نظام الجامعة المقترح على مجلس الوزراء، فتصدّى له ساطع الحصري بالنقد الشديد، وتسجيل الاعتراضات، مطالباً بعدم التسرّع في وضعه، ومطالباً بعدم منح الجامعة صلاحيات، وحبّته أنّ ذلك يؤدي إلى جمودها، وأبدى ساطع تهكماً شديداً على أمين الجامعة فهمي المدرّس، فلم يُقرّ مشروع النظام، علماً بأنّ ساطعاً هو المخالف الوحيد للمشروع.

وعندما سُئل عن ذلك قال: «لأني لم أكن المخالف الوحيد للمشروع، فإنّ المستر سمث مفتش المعارف العام أيضاً كان مخالفاً له»، ويقول سيار الجميل واصفاً موقف ساطع المتصلّب والمتشدّد إزاء تأسيس الجامعة، ورأيه في رئيسها أو أمينها: «وكان دون رأيه في مذكرة مؤرخة بـ ١١ / ٤ / ١٩٢٤ م، أنهاها بالعبارات الشديدة التالية: «إنني أرى أنّه يكون كارثة عظيمة للعراق، تأسيس أول جامعة للقطر، تحت تأثير قانون سيئ التصور، وسيئ الكتابة، ومليء بالسخافات، مثل القانون الذي عُرض على مجلس الوزراء»، ثم وصف ساطع فهمي المدرّس بالاستهتار، وكتب مذكرةً طويلةً إلى الوزارة؛ لترفعها إلى مجلس الوزراء، الذي تأخّر في اتخاذ قرار حاسم^(١).

ومن خلال الوثائق التي عرضها الجميل، يبدو ساطع قادراً على تعطيل مسيرة الجامعة، وإجهاض مشروعها، فأخذ مجلس الوزراء آنذاك يتعلّل بالعوائق المالية، وقلة المخصصات، وتشويه نظامها، ونزعها من وزارة المعارف، وإلحاقها بالأوقاف^(٢).

وهكذا قضى ساطع بدعم قويّ من المستر (سمث) مفتش المعارف في العراق، أو من جهة أخرى ذات نفوذ أقوى من (سمث)، وربما الصواب أن نعكس القضية فنقول:

(١) الجميل، سيار: «الملك فيصل الأول والتأسيس العلمي الحديث»، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٨.
(٢) انظر: الحصري، ساطع: مذكراتي في العراق ١٩٢١-١٩٤١. ط ١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧ م، ص ٤١٩-٤٣١.

إنَّ سمث هو الذي عطَّل الجامعة، وكان ساطع أداته العلنيَّة المباشرة في ذلك العمل المشين. ولعلَّ السبب في ذلك، أنَّ سمث كان يقاوم التعليم العالي بقوة في العراق، ومتى كان تأسيس جامعة وطنية كارثةً على الوطن؟ أمَّا قانون الجامعة فيمكن تعديل مواطن ضعفه، ولكنَّها إرادة سمث التي أمضاها ساطع.

وممَّا لا شكَّ فيه، أنَّ السياسة التعليمية التي رسمها الإنجليز للعراق، هي السياسة ذاتها التي نفَّذها الإنجليز في مصر والسودان وفلسطين^(١)، وكلَّ البلاد العربية إبان احتلالهم، وبخاصة مصر منذ سنة ١٨٨٢م، عندما توسع دنلوب بفتح المدارس الابتدائية بمصر، وعلم طلابها اللغة الإنجليزية والعربية، وبعض العلوم الحديثة، ثم يتخرَّجون بعد ذلك كتبةً في دواوين الحكومة، يتلقَّون أوامر الإنجليز وينفِّذونها صاغرين^(٢)، فالإنجليز لا يريدون التعليم العالي بل يجعلونه في أضيق نطاق؛ خوفًا من المتعلمين الذين لا يقبلون الذلة والمهانة والتجهيل لبلادهم.

وبناءً على ما قرَّره ابن خلدون، من قياس الأحوال والوقائع في الاجتماع الإنساني، إذ يُقاس «الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب»^(٣)، فإنَّ قياس ما وقع للمجمع العلمي العربي بدمشق الذي تمَّ فضُّه، وتعطيل نشاطه العلمي، على ما حدث لجامعة آل البيت في العراق وتعطيلها، ووقف إشعاعها العلمي، يجعلنا نخرج من هذه المقايسة، على الرغم من اختلاف الأحوال إلى حدِّ ما - إلى أنَّ ساطعاً قد أدَّى دوراً خطيراً في تعطيل جامعة آل البيت في العراق، كما عطَّل المجمع العلمي بدمشق من قبل - إمَّا بالتدخُّل المباشر لدى أولي الأمر من حزب العربية الفتاة السريِّ، وواجهته العلنيَّة حزب الاستقلال، وهم أصحاب القرار الحقيقي في الحكومة العربية، أو بالإيحاء إلى جنوده وتلاميذه الرافعين لراية الدعاية لما يقوم به، ويخطِّط له من توجيه للمعارف، في

(١) عباس، إحسان: غربة الراعي (سيرة ذاتية)، ط ١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م، ص ١٠١-١٠٧.

(٢) انظر: آل سعود، المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، ص ٢٠٠.

(٣) ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمَّد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الكتاب الأول (المقدمة).

تحقيق: إبراهيم شيوخ، إحسان عباس، ط ١، دار القيروان، تونس، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ١١.

دولة ما زالت تحبو، ولم تقف على رجليها بعد، ويتنافس على الهيمنة عليها، مستعمران كريهان بغيضان، عريقان في وأد حركات الشعوب المستضعفة، وقمع رغباتها في الحياة والنهضة والاستقلال.

وتأسيساً على ما سبق ذكره، فإننا نرى أنّ ساطعاً قد وقف موقفاً سلبياً، إمّا بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، بخصوص إعادة مجلس المجمع العلمي بدمشق إلى الحياة من جديد، وردّه إلى سابق عهده في النصف الثاني من سنة ١٩١٩م. فعندما قدّمت وزارة المعارف التي كان ساطع وزيراً لها، لائحة أو قانوناً أو معروضاً، بضغط من كرد علي وحزبه الوطني، أو بإيحاء من الملك فيصل في أيام حكومة هاشم الأتاسي، التي تشكّلت في الثالث من أيار عام ١٩٢٠م، لم تنجح هذه المحاولة.

يقول كرد علي: «ولمّا توقّف المجمع بصنع أرباب الأعراض، عرضت وزارة المعارف لائحة على مجلس الوزراء لأطراد أعمال المجمع، فطرحها وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن شهبندر بدعوى الاقتصاد»^(١).

والظاهر من هذا النصّ، أنّ التعطيل والرفض لإعادة أطراد أعمال المجمع، كان بفعل الموقف الرفض من الوزير الشهبندر - ممّا سنناقشه فيما بعد - لكنّ الباطن والمسكوت عنه في الموضوع، هو الموقف الحقيقي لساطع، الذي تدلنا القرائن والمعرفة بمواقفه السابقة واللاحقة من أيّ مشروع علمي، لا يرضى عنه، ولا يلائم فلسفته التربوية، ولا أفكاره العلمانية والتغريبية، على أنّه كان سلبياً؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: قوة ساطع الجدليّة والحجاجيّة:

عُرِفَ ساطع بقوة برهانه، وقدرته على الإقناع، وإقامة الحجج وإيراد البراهين، لما يوافق رأيه، ويتفق مع منهجه، وينسجم مع ما يتبنّاه، ولو كان المجمع منسجماً مع أهدافه ومشاريعه التعليمية، لما تردّد في إيراد المسوّغات والمبررات لردّه إلى سابق

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٨٠.

عهده، ولما عجز عن إقامة الأدلة والبراهين على ضرورة عمل المجمع، وإعادته إلى أفضل ممّا كان عليه، وإن رأى في عمله خللاً، فإنّه كان قادراً على تقديم المقترحات والآراء، وسنّ الأنظمة واللوائح التي تأخذ بيد المجمع، وترفع من سويته، وترسخ رسالته وأهدافه، التي تُعدُّ رسالةً قوميّةً وعلميّةً، ووطنيةً وإنسانيّةً، هدفها الأقصى النهوض بالعربية، وإعادتها إلى رونقها في عصور ازدهارها، عندما كانت لغة العلم والحضارة، والمعرفة والأدب، والدبلوماسية والتواصل بين البشر لفترةٍ نيفت على ألف عام.

ثانياً: زحف ساطع على المجمع وتغوّله على أعماله :

بدأ ساطع - أثناء وقف المجمع وتعطيله - بالتغوّل على الأعمال التي كانت من أهداف المجمع، وكرّس نفسه للنهوض بها، وقد ظهر لنا ذلك من خلال إنشاء ساطع لدواوين أو أقسام، أو إدارات تقوم بما كان يقوم به المجمع من قبل، بل كان عملها من أهمّ أهدافه.

ومن الأمثلة الدالّة على زحف ساطع على أعمال المجمع، ووضعها تحت هيمنته؛ لتدين له بالطاعة، ولتنفيذ أهدافه ومشاريعه، تأسيسه لديوان الترجمة والتأليف، وقد نشرت الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٧ أيار سنة ١٩٢٠م خبراً عن: «ديوان الترجمة والتأليف، ولجنة الاصطلاحات العلمية: جاءنا من وزارة المعارف، أنّ الأستاذ السيد حبيب اصطفان، عُيّنَ رئيساً لديوان الترجمة والتأليف، ولجنة الاصطلاحات العلمية»^(١).

ويصف لنا ساطع عمل هذه اللجنة، وأهدافها ومشاريعها، بقوله: «إننا كنّا ألفنا لجنةً اختصاصيّةً رسميّةً؛ للنظر في أمر الاصطلاحات العلمية في دمشق الشام سنة ١٩٢٠، وكانت قد أخذت اللجنة على عاتقها، أن تقرّر في بادئ الأمر الاصطلاحات العلمية

(١) جريدة العاصمة، ٩ رمضان سنة ١٣٣٨هـ / ٢٧ أيار سنة ١٩٢٠م، السنة الثانية، العدد ١٢٧، ص ٤.

المدرسية، التي يحتاج إليها المعلمون في الدراسة الثانوية، وأن تنتقل بعد ذلك إلى سائر الاصطلاحات»^(١).

أمّا خطة العمل التي انتهجتها هذه اللجنة، فإنّها كانت تقوم على: «أن تنظّم (نشيبة) (Fiche) (بطاقة) خاصة لكلّ كلمة على حدة، يدرج فيها:
أ- منشأ الكلمة واشتقاقها.

ب- ما يقابلها في اللغات الأوروبية الحيّة.

ج- ما استُعملَ من الكلمات العربية مقابلها في الكتب المطبوعة في مصر وسورية وتركيا.

د- ما كان يُستعملُ مقابلها أو في معانٍ مقاربةٍ لها في الكتب العربية القديمة.

هـ. ما يوجد في القواميس من الكلمات الملائمة لمعناها»^(٢).

ولا يخفى أنّ المجمع العلمي هو أولى مَنْ يقوم بهذا العمل؛ لتوفّر الخبرة العلمية في مجمعيّته، ولصلاته الواسعة مع أعضائه من العرب والمستشرقين، ولوجود المصادر الأساسية في المعاجم والموسوعات، والدراسات اللغوية في مكتبة المجمع الخاصة، وفي المكتبة الظاهرية التي تضمّ كثيراً من المصادر المخطوطة في اللغة والأدب، ويقوم المجمع بالإشراف عليها.

ويبدو أنّ اللجنة كانت تحتاج إلى سنواتٍ طويلةٍ لإنجاز أعمالها، التي تستغرق وقتاً طويلاً، خلافاً للمجمع الذي كان أعضاؤه العاملون مقيمين بدمشق؛ لكثرة الجلسات والأعمال، أمّا المؤازرون فهم من البلاد العربية وغير العربية، وبخاصة من المستشرقين.

(١) الحصري، الأعمال القومية، ق ٢، ص ١٥٩٨.

(٢) الحصري، الأعمال القومية، ق ٢، ص ١٥٩٨.

يقول ساطع إنّه بعد قيام اللجنة بالأعمال المذكورة أعلاه: «تختار اللجنة أوفقَ الكلمات بعد ملاحظة جميع المعلومات، ثمّ تعرضها على كبار المشتغلين في اللغة العربية والعلوم العربية المختلفة، وتُعيد النظر في الأمر، بعد ورود الأجوبة ومناقشتها، وتقرّر قرارها النهائي، بعد التدقيقات والمخابرات، والمناقشات كلّها»^(١).

قلت: حبذا لو ترك ساطع المجمعَ يقوم بما هو من عمله، أو أنّه أزره على استئناف العمل، عندما عُرضت فكرة إعادة نشاط المجمع إلى ما كان عليه، ولم يُنشىء لجاناً جديدةً، هدفها سحب صلاحيات المجمع وأعماله، وتكوين جيش من التابعين لساطع، بل إنّ عقدة المجمع لم تفارق ساطعاً حتى بعد انتقاله إلى العراق، وألّف لجنة جديدة للمصطلحات العلمية، «إلاّ أنها أُلغيت - لأسباب مؤسفة - بعد مدة وجيزة، قبل أن تُنجز عملاً ذا بال»^(٢). وعملُ هذه اللجنة واللجنة التي شكّلها من قبلُ في دمشق، شبيه بعمل المجمع، ولو سمّاها ساطع مجمّعاً ربما عاد إليه توازنه النفسي، وزالت عقده المجمعية.

ويبدو أنّ ساطعاً كان مهتماً بإنجاح العمل في هذا الديوان (أي ديوان الترجمة)، الذي سرعان ما تركه حبيب إصطفان، فجاء المعلم جرجس همّام الشويري من لبنان ليرأس الديوان، الذي كان ساطع يستقطب له التراجمة من أتباعه وأنصاره؛ لتكليفهم بترجمة الكتب التي تخدم أفكاره، لا الكتب العلمية التي كان المجمع يسعى لنقلها.

ولدينا شهادة من عجاج نويهض الحوت، حول هذا المكتب، وما يقوم به من أعمال الترجمة، يقول: «وكان ساطع الحصري، قد أنشأ مكتباً للترجمة في بناية العابد، وكان من طبعه أن يستعين بجميع رجال التربية المشهورين في البلاد العربية، وكان منهم المعلم جريس همّام من الشوير في لبنان، الذي عينه رئيساً للمكتب، والأستاذ همّام فاضلٌ جداً، وصاحب كتب مدرسية، اشتهرت منذ الربع الأخير من القرن الماضي في لبنان، حتى الحرب العالمية الأولى.

(١) المصدر السابق، ق ٢، ص ١٥٩٨.

(٢) الحصري، الأعمال القومية، ق ٢، ص ١٥٩٨.

ولما طلب ساطع الحصري إليّ أن أشتغلَ مع الأستاذ جريس همّام، ترجمتُ قسمًا من تاريخ (ماير) الأمريكي المشهور، وما زلتُ أحملُ أجملَ الذكريات مع المرّي الكبير، والعربيّ الأصيل، ساطع الحصري... لما تأزّمت الأمور تأزّمها الأخير ما بين فيصل والفرنسيين، ولّمّا لم يعد لوجودي من فائدة، حتى لو بقيت في مكتب الترجمة، فالمكتب كان قد أخذ يتهاوى ويتداعى للتفكك، والأستاذ همّام ترك دمشق...»^(١)، وكذلك ترك عجاج نويهض العمل في ديوان الترجمة.

وقد أشار ساطع في إحدى مقالاته التي كتبها في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، إلى جهود الدولة العربية بدمشق في مجال التعليم، قائلاً: «... كما أنّها أسرع في تأليف لجنة لجمع المصطلحات العلمية المستعملة في الكتب العربية القديمة والحديثة؛ تمهيداً لانتخاب الأوفق منها، وأقدمت في الوقت نفسه على تأسيس «المجمع العلمي العربي»، ولم تتردّد في جعل اللغة العربية لغة التعليم...»^(٢).

قلت إنّ ما ذكره ساطع آنفاً فيه مغالطة من ثلاثة جوانب:

الأول: إنّ الحكومة العربية قد أسرعت في تأليف عدة شعب أو لجان: لجنة الترجمة والتأليف، ولجنة التوجيهات والمراسلات، ولجنة المعارف، ولجنة التعريب - كما بيّنا سابقاً - ولم تؤلّف لجنة للمصطلحات العلمية، وألّفها ساطع بعد ذلك.

الثاني: قدّم لجنة المصطلحات العلمية المستعملة في الكتب التي تألّفت أو ألّفها ساطع - ودعا أصدقاءه وتلاميذه للعمل فيها - في آخر ثلاثة أشهر من حكم الحكومة العربية، علماً بأنّ المجمع أُسسَ قبلها بعام تقريباً، خلافاً لما يفهم من كلام ساطع أنّ اللجنة والمجمع قد أُسسَا في آنٍ واحد.

(١) نويهض، عجاج: ستون عاماً مع القافلة العربية، إعداد: بيان نويهض الحوت، دار الاستقلال، بيروت، ص ٢٧-٢٨.

(٢) الحصري، الأعمال القومية، ق ١، ص ٨٨٣.

والثالث: يوههم كلامٌ ساطع القارئ، بأنَّ المجمع كان عاملاً وناهضاً بمهامته وأهدافه، والحقيقة أنَّ المجمع قد عمل مدة خمسة أشهر تقريباً، ثم تمَّ وقفه إلى أخريات أيام الحكومة العربية، وهذا ممَّا يؤسِّفُ عليه، ولكن تمَّ إحياء المجمع، واستئناف عمله في عهد الاحتلال الفرنسي، وكان من الأجدر أن تبقى هذه المنقبة للحكومة الفيصلية، لا لحكومة الانتداب البغيضة إلى قلب كلِّ عربيٍّ وحُرٍّ.

واللافت للنظر أنَّ المهمة الأساسية التي أنشئ من أجلها ديوان الترجمة ولجنة المصطلحات، هي من صميم عمل المجمع الذي قامت رسالته على «النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية، ونشر آدابها، وإحياء مخطوطاتها، وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية»^(١)، ولهذا فإنَّ ديوان الترجمة الذي أسَّسه ساطع، وحشد له التراجمة، وأغدق عليهم الرواتب، ومنحهم الامتيازات، كان من باب النكاية بكرد علي رئيس المجمع، ومن باب التجاهل لأعمال المجمع وأهدافه، ومن باب استبعاد رئيسه وأعضائه، وتهميش دورهم في خدمة العربية.

فساطع يريد أن يبرهن للحكومة وللناس، أنَّه قادرٌ على إنجاز ما لم ينجزه المجمع في أسرع وقت ممكن، وبالتالي لا حاجة لبقاء المجمع، ولا ضرورة لاستئناف أعماله، علماً بأنَّ إقامة ساطع لهذا الديوان، كان في الوقت الذي تجري فيه المحاولات الجادة لإقالة عثرة المجمع، ولإنعاشه بعد أن توقَّف قلبه عن العمل منذ خمسة أشهر خلت، فديوان الترجمة الذي رعاه ساطع، وشدَّ أزره، بمثابة سدِّ الذرائع والوسائل على المجمع لإمكانية عودته.

لقد حاول ساطع تجاهل دور المجمع في الحياة الأدبية، عندما تبَّه على دور المهرجانات الأدبية في تقوية الصلات الثقافية في البلاد العربية، فذكر مهرجان المتنبي بدمشق سنة ١٩٣٦م، ومهرجان المعري الذي طاف المدن السورية سنة ١٩٤٤^(٢)،

(١) كرد علي: «منشور المجمع للمجلات والمجامع بتاريخ ٢٠ أيلول ١٩١٩م»، مجلة المجمع العلمي العربي، ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، المجلد الأول، ص ٦.
(٢) انظر: الحصري، الأعمال القومية، ق ١، ص ٨٨٥.

ولكنه لا يذكر أنّ هذه المهرجانات كانت من ترتيبات المجمع، وما كان لها أن تتمّ لولا الجهود المضنية التي بذلها رجال المجمع في سبيل نجاحها.

ثالثاً: عُقدة العربية عند ساطع:

ممّا هو معروف في سيرة ساطع العلمية، أنّه نشأ في بلاد الترك، وتعلّم وعلمّ فيها، بحيث أصبحت التركية لسانه الأمّ، والفرنسية لغته الثانية، والعربية الثالثة التي تعلّمها وحاول إتقانها، وهو في مقتبل الأربعين من عمره، وبقيت اللكنة الأعجمية مُستحكمةً من لسانه؛ لأنّه اعتاد عليها صغيراً وشاباً، و(العادة أملك) كما يقول أكثر من صيفي أحد حكماء العرب.

يقول كرد: «ولقد حاول أن يتعلم في سنٍّ متأخرة، ما كان عليه أن يتعلّمه في الصِّبا فما أفلح»^(١). ولذا فإنّ أرقى مؤسسة أقيمت لخدمة العربية وهي المجمع الذي اضطلع بتعريب الجيش، والدواوين، والدوائر الحكومية، والتعليم، ستكون شاهدةً على قصور ساطع في العربية، وقصر باعه عن أن يتقنّها، وهو الرجل الذي يتولى وزارة المعارف، علماً بأنّه أولى الناس بالتعريب، وإصلاح قلمه ولسانه، وهو ما كان يحاوله ساطع.

وفوق ذلك، فإنّ كرد علي الذي كان رئيساً للمجمع، هو واحدٌ من أبرع الكتّاب والصحفيين في بلاد الشام، وقد طارت شهرته مجلته الأدبية العلمية (المقتبس) في الآفاق، ونشر مؤلفاته في الرحلات والأدب، والحضارة والتاريخ، وخطط البلدان، والجغرافيا، وأصبح من رواد النهضة الأدبية في العالم العربي، بل رائدها الأول في دمشق، وتخرّج به كثير من الكتّاب والصحفيين، يقول علي الطنطاوي في غضون حديثه عن المدرسة الوحيدة في دمشق، وهي مدرسة الشيخ الصوفي، التي علم فيها الشيخ محمّد المبارك: «ومن تلاميذها الأستاذ محمّد كرد علي الذي كان له الفضل،

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٨٨٠.

على كل من اشتغل بالصحافة، وبالكتابة في دمشق»^(١). ولعمري إنَّها لشهادة عظيمة من الطنطاوي الذي كان صريحاً وجريئاً في قول الحق في مذكراته، وفي أحاديثه الإذاعية الشائقة.

وعند المقابلة بين ما كان عليه كرد علي من تألُّق في العربية، وما خطَّه قلمه من المصنفات الجليلة فيها لغة وأدباً، وحضارة وترجمة، وبين ما كان عليه ساطع حينذاك من قصور في لغة آبائه وأجداده، ندرك البون الشاسع بين الرجلين، في معرفة العربية التي يبدو لي أنها كانت كابوساً مؤرقاً، وعقدة مستعصية عند ساطع، وهو التركي لغة وثقافة، وعلماً وتعليماً، وهوية وانتماءً لمدة أربعين سنة، وبعدها حاول قصارى جهده أن يتعلم العربية التي كانت شاقة عليه في تعلُّمها، فهو قد تعرَّب على كبره؛ أي في مطلع مرحلة الكهولة من عمره، الطافح بالمغامرات والتقلُّبات والخصومات.

رابعاً: الميل الثقافي عند ساطع وكرد علي:

فكلا الرجلين يمثِّل ثقافة مغايرة لثقافة الآخر، وكلٌّ منهما يتبع لدولة لها مشروعها الثقافي في العالم، الثقافة الأنجلوسكسونية التي تحملها إنجلترا، والثقافة الفرانكفونية التي ترعاها فرنسا، إذ بدا كرد محبباً للثانية حضارةً وعلماً ولغةً، لا احتلالاً وانتداباً واستعماراً، فقد ذكر لـ (المسيو روبردي كه)، أمين السر العام في المفوضية الفرنسية العليا، أنَّه محبٌّ للمدنيَّة الفرنسية ومخلص لها^(٢).

وعلاوةً على ذلك، فإنَّ كرد علي كان على اتصال بالقنصلية الفرنسية بدمشق، فقد أورد كوثراني، الذي اعتمد على الوثائق الدبلوماسية الفرنسية، تقريراً عن القنصلية الفرنسية بدمشق في أخريات عهد الأتراك، والتقرير سريٌّ ومؤرَّخ بـ ٧ نيسان/ أبريل ١٩١٣م، ومرسل إلى وزير الخارجية الفرنسي في باريس، ونصّه: «أتشرف بإبلاغ معاليكم، أنني استقبلت بتاريخ ٢٧ أيار ١٩١٣م، محمَّد كرد علي رئيس تحرير

(١) الطنطاوي، علي: ذكريات، ج ١، دار المنارة، جدة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج ٧، ص ١٧٤.

(٢) انظر: كرد علي، المذكرات، ج ٢، ص ٣٦٧.

(المقتبس)، الذي أتيت مراراً على ذكر حملاته ضد فرنسا، إنَّ هذا الصحفي الذي أظهر نحونا عطفًا، وأدبنا له خدمات في القسطنطينية أو باريس، عاد منذ فترة من الزمن يبدى لنا أسمى عواطفه»^(١).

والمقصود بحملات كرد ضد فرنسا، ما كان يكتبه عن جرائم الفرنسيين وأعمالهم اللانسانية ضد الجزائريين وأهل المغرب آنذاك، وكانت تقارير القناصل تدعو إلى تقديم إعانة لجريدة المقتبس^(٢) رغبةً في شراء قلمه، أو على الأقل ضمان سكوته فيما يكتب في جريدته.

ويبدو كرد غير منسجم مع الإنجليز منذ أيام الدولة العثمانية، عندما أراد القنصل الإنجليزي في دمشق، أن يؤسس ناديًا دعا كرد للانضمام إليه، فأبى. يقول كرد: «... وقام القنصل بعد مدة، يريد أن يؤسس ناديًا في دمشق، سمّاه (النادي الشرقي)، فدخل معه كثير من الموظفين والأعيان، وأبيتُ الدخولَ معتذرًا بأنَّ في النادي مسكرات وقمارًا، وأنا لا أشرب ولا ألعب، فزاد القنصل غضبًا عليّ، وكان رجائي بعضُ القائمين بتأسيس النادي، أن أعدَّ خطابًا ليلقى يوم افتتاحه، فأعددتُه فمنعني القنصلُ من تلاوته»^(٣).

ويتّضح لنا مما سبق ذكره، أنّ الإنجليز كانوا غير راضين عن كرد علي، وأنَّ الفرنسيين كانوا مدركين لأهمية الدور الإعلامي لكرد في دمشق، لذلك حاولوا جذبته وترغيبه، وتقديم الخدمات له، وهي خدمات ليست مجانية.

وعلاوةً على ذلك، فإنَّ الأمير فيصل طلب من كرد أن يدعوَ الناس في دمشق لقبول الانتداب البريطاني، وطلبتُ منه الأحزابُ السياسيّةُ مقابلةً لجنة كرين الأمريكية،

(١) كوثراني، وجيه: بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية)، ط ٢، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، قطر، ١٩٨٤م، ص ٣١٩-٣٢٢.

(٢) كوثراني، وجيه: بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية)، ط ٢، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، قطر، ١٩٨٤م، ص ١٨٤-١٩٩.

(٣) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٢٤.

والطلب منها أن تكون بريطانيا لا فرنسا منتدبةً على سورية، ولكنَّ كرد تجاهل طلب الملك والأحزاب، كما مرَّ بنا سابقاً.

ويبدو أنَّ كرداً كان ساخطاً على سياسة الإنجليز؛ لأنهم عوَّقوا استقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ثلاث مرات، وهم الذين حرَّكوا الثورات والحروب في الجزيرة العربية، وقاوموا مشروع إعادة سكة الحديد الحجازية سرّاً، إلى غير ذلك من الأعمال المشينة التي مارسها الإنجليز^(١).

أمَّا ساطع الحصري، فقد كان ميّالاً إلى الإنجليز أكثر من الفرنسيين؛ لأنَّه كان يتوقع أنَّ إنجلترا ستكون الدولة المنتدبة على سورية، ولذا فإنَّه أصبح ميّالاً للثقافة الإنجليزية، وقالياً للثقافة الفرنسية ونظمها في التربية والمعارف، لذا أصبح له مؤبِّدون ومعارضون، بناءً على موقفه الفكري من الثقافتين.

ولكنَّ ساطعاً ينفي عن نفسه تبعيته وانحيازه للثقافة الإنجليزية، أو إعجابه بها، يقول: «إنني كثيراً ما لاحظتُ أنَّ البعض يتوهَّمون بأنني أكره النظم الفرنسية، وأُعادي الثقافة الفرنسية، والبعض يتمادون في طريق التوهُّم إلى حدِّ الظنِّ بأنني أفعل ذلك محاباةً للثقافة الأنكلوسكسونية، وترويجاً للنظم الأمريكية. كما أنني لاحظتُ أحياناً أنَّ البعض يؤيِّدني تحت تأثير هذا الوهم، في حين أن البعض الآخر يعارضني بناءً على هذا الوهم! وأما أنا، فأرى أن أصرِّح بأنَّ كلا الفريقين على خطأ عظيم في هذا الأمر»^(٢).

ولعلَّ بعض المواقف الفكرية، تغيَّرت عند ساطع فيما بعد، ولكنَّ الفترة التي نحن بصدد درسها، وهي أيام الحكومة الفيصلية بدمشق، تدلُّ على مشايعته للإنجليز وثقافتهم ونظمهم التربوية، وعندما أصبح فيصل بن الحسين ملكاً على العراق عُيِّن ساطع مديراً للمعارف، وكانت سلطته فوق سلطة وزير المعارف، بل سلطة مجلس

(١) انظر: كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٢٧-١٢٩.

(٢) الحصري، ساطع، الأعمال القومية لساطع الحصري، ط ٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠م، ق ١، ص ٨٥٧.

الوزراء، وتمكّن من تعطيل مسيرة جامعة آل البيت التي لقيت تأييداً ملكياً، وفرحاً شعبياً، وموافقة حكومية؛ لأنّ ساطعاً يستمدّ قوته الحقيقية من مفتش المعارف الإنجليزي، الذي كان ساطع تابعاً له يدور في فلكه، ومأموراً يُنفذ أوامره وسياسته التعليمية.

وقد أوردنا سابقاً موقفه من جامعة آل البيت، وأتّهم بأنّه المخالف الوحيد للمشروع، فقال: «لم أكن المخالف الوحيد للمشروع، فإنّ المستر (سمث) مفتش المعارف العام أيضاً كان مخالفاً له»^(١). وساطع كان واجهته لتنفيذ ما يراه سمث الأمر النهائي في أمور المعارف في العراق، وهي سياسة استعمارية سار عليها الإنجليز في مصر من قبل.

خامساً: الخلافات الإيديولوجية بين كرد علي وساطع:

وبخاصة ما تعلق منه بالأفكار والعقائد الدينية، والشريعة الإسلامية، ومدى دخولها وتأثيرها في التعلم والمجتمع والدولة في نظمها التشريعية المختلفة.

ويتضح لنا ممّا كتبه كرد علي، أنّه درس الإسلام دراسةً واعيةً، عقيدةً وتاريخاً وحضارةً، يقول عن نفسه: «وقويت في نفسي هذه العقيدة، عندما درستُ الإسلام دراسةً علميةً، وتدبّرت القرآن، وسيرة الرسول وأصحابه، وأخذتُ الشريعة من أصفى مصادرها، وأحببتُ جملةً من علمائنا، ودأبتُ زمنًا أنظر فيما كتبوا بعيداً في الجملة عن التقليد»^(٢).

ويقصد كرد بالعلماء الذين أحبّهم: ابن حزم الأندلسي، وابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية من القدماء، ومن المعاصرين: الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمّد عبده، وهما أستاذاه اللذان تخرّج بهما، وأفاد من دعوتهما للنهوض بالإسلام، وإصلاح

(١) الجميل، سيار: «الملك فيصل والتأسيس العلمي الحديث». ضمن كتاب (بناء الدولة العربية الحديثة)، إعداد وتحرير: هند غسان أبو الشعر، ط ١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٨م، ج ١، ص ٣٧٧-٣٧٨.
(٢) كرد علي، المذكرات، ج ٢، ص ٤٩٠.

ما تسرّب إليه من جهالات وبدع أذاعتها بعض الطرق الصوفية، والأنظمة والدويلات المستبدة.

وقد حارب كرد الدعوات الهدّامة، وشنّ عليها الحملات المركّزة، وكشف حقيقة أعمالها، التي نشرها الدجّالون والمشعوذون، يقول: «في مصر والشام بقايا من عادات الطرق، هي مجموعة بدع ممقوتة، تراكمت بفعل قرون الجهالة، وعدّها الجاهلون من الدّين»^(١).

ودعا كرد إلى الارتقاء بالتعليم الديني، والتوسّع به عند المسلمين، ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلا بعزل أدياء العلم والدّين، واختيار الأكفيا من العلماء، وتأهيل الأذكياء القادرين على فهم الدّين فهماً صحيحاً؛ لئتمكّنوا من تعليم الناس الدين الصحيح، وإصلاح حال الأوقاف، ومنع الجهلة من التصرّف بأموالها التي يجب أن تنفق في جوهها النافعة؛ لتعليم الأمة وللحفاظ على جوهر الدين، يقول: «لو فُتشت أوقاف المسلمين في كلّ صقع إسلامي، لشوهد الإسراف في إمتاع الجهلة بأموالها، ولتوفّر من ذلك أموال كان الأجدر بها أن تُنفق على التعليم، لا على من كان وجودهم ضرراً على أهل الإسلام»^(٢).

وأشاد كرد علي بجهود العلامة الشيخ محمّد بهجة البيطار بدمشق، والعلامة الشيخ سعيد النعسان بحماة، على جهودهم العظيمة في إنشاء المدارس، وتعليم الناس أصول الدين الصحيحة، وتخريج العشرات من الطلبة الذين علّموا الناس الدين الصحيح، وقاوموا البدع والجهالات في المدن والقرى والأرياف، «التي كان بعض أهلها على الخروج من الإسلام بفعل الجهل»^(٣).

وأرصد كرد علي قلمه السيّال، ومعرفته الموسوعية بالدين والتاريخ والحضارة، للدفاع عن الدين الإسلامي وفتوحاته، وسيرة نبيّه وأخبار صحابته وقادته، ودرس

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٧٢.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٨٧٣.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٩٢.

بعمق الإسلام والحضارة العربية، وعرض أمهات الشبهات، والقضايا التي أثارها الشعوبيون المعاصرون، من المبشرين والمستشرقين، ورؤوس المستعمرين، وردَّ عليها ردوداً قوية، مفنِّداً شبهاتهم، ومقتلغاً لها من جذورها، وفضح أكاذيب وتحريفات مزاعم الأب هنري لامنس اليسوعي، والأب ليوس شيخو وغيرهما عن الإسلام، وبيَّن تهافتها وبطلانها، معتمداً في ذلك على ثقافته الإسلامية الواسعة، وعلى ما كتبه بعض المستشرقين المنصفين الذين حاربهم ذوو الدسائس والمفتريات من المستشرقين والمبشرين^(١).

إنَّ ما كتبه كرد في مجلته الثقافية العلمية (المقتبس)، كان له أصدائه وانتشاره الواسع بين الناس، وما كتبه في مؤلَّفه الجليل (الإسلام والحضارة العربية)، يُعدُّ من أعظم الكتب وأفنعها وأهمَّها، في التعريف بالإسلام، والدفاع عن نبيِّه وعقيدته، وما تعرَّض له من غارات المستعمرين الغربيين، الذين عاثوا في ديار العرب والمسلمين قتلاً وحرقةً، وسطواً ونهباً، وتخريباً وتدميراً، واستعباداً واسترقاقاً.

وبناء على هذه المواقف المشرَّفة والبطولية، فإنَّ كرد علي لم يُهادن في العلم، ولم يعمل على هدم أركان الدين، ولم يخضع لإملاءات المبشرين بالثقافة الغربية، ولم يعطِ الدنيَّة في دينه، كالأديب المفكر الذي قال: إنَّه ما فهم القرآن حتى درسه على المستشرق كازنونا، والذي قدَّم في أحد مؤتمرات المستشرقين ورقةً علميةً يقول فيها: إنَّه وجد اضطراباً في الضمائر في القرآن الكريم، نعم، إنَّ مواقف كرد كان نابعة من العقيدة الصحيحة المؤيدة بالعقل والعلم، والتبُّحر في معارف العصر، حتى قال له الأستاذ محمَّد إسعاف النشاشيبي: «فكرتُ في أمرِك مليّاً، وحمدت الله على أن أنشأكَ نشأةً إسلاميةً، ولم يجعلك مطيِّةً لأعداء الإسلام، يتخذون من قلمك أداةً لنشر دعوتهم، ولو قدر لك ذلك، لكنك بما رزقت من بيانٍ وجلدٍ، شرّاً على أمَّتِك»^(٢).

(١) انظر: كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ج ١، ص ٣٧-١٥٤.

(٢) كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ج ٢، ص ٤٩٠.

ولم يقتصر نضال كرد علي وفكره على خدمة الإسلام فحسب، بل كان داعية للعروبة أيضاً، فهو عربي القلب واللسان، والقلم والثقافة واللغة، وإن كان كرديّ الأرومة، ولذلك فإنّه كان من المؤسّسين لـ (جمعية النهضة العربية) في إسطنبول، وكان من أعضائها: عبدالكريم الخليل، ومحب الدين الخطيب، وعارف الشهابي، وصلاح الدين القاسمي وغيرهم، ثم اتخذت هذه الجمعية من دمشق مكاناً لعملها، وهي أول جمعية قومية عربية في وقتها، وساهمت في إيقاظ الشعور القومي، وعدّها القاسمي «رمز العزيمة الأولى لبعث العروبة، بعد أن هجعت ألف سنة أو تزيد، أسّسها الشباب العرب لتقوم بواجبها نحو ماضي العروبة والإسلام»^(١).

أمّا موقف ساطع من الدّين، وأثره في الحياة الاجتماعية، فإنه كان على النقيض التام من موقف كرد علي، ومرّبنا سابقاً السخّط الشعبيّ في دمشق على ساطع، عندما كان وزيراً للمعارف؛ لأنّه أراد «إضعاف الدّين في المدارس، وتعويد البنات على التهتك»^(٢)، ولذلك طلب بعض العلماء الدمشقيين من محمّد رشيد رضا، التوسّط لدى الملك فيصل؛ لعزل ساطع من وزارة المعارف، لخطورته على أخلاق المجتمع.

لقد كان ساطع تركيا طورانياً علمانياً، ثم تحوّل إلى داع للعروبة والقومية العربية، فحمل أفكاره الطورانية والعلمانية، وألبسها لباساً عربياً، فهو يرى إبعاد الدّين عن السياسة، وعن الدعوة القومية التي تقوم على وحدة اللغة عنده، وهي أقوى الروابط التي يجب أن تكون أساساً لتكوين الأمة، ولذا فإنّه ردّ على طه حسين، الذي جمع بين وحدة الدين ووحدة اللغة، اللتين أثّرتا في سياسة العصور الوسطى، قائلاً: «إنني أعتقد أنّ كلّ ذلك مخالف لحقائق التاريخ، وقوانين الاجتماع مخالفة صارخة، فإنّ عمل وحدة اللغة في الحياة الاجتماعية، والحوادث التاريخية، يختلف عن عمل وحدة الدين

(١) القاسمي، صلاح الدّين: صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين، ط ١، المطبعة السلفية، ١٩٥٩م، ص ٧-٨؛ وانظر: الحراشنة، ونس: فكر محمّد كرد علي ودعوته الإصلاحية، ط ١، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠٠٦م، ص ١١٦.

(٢) مجلة المنار، المجلد ٢٣، ص ٣١٧.

اختلافًا كليًا... ولكن هل نستطيع أن نقول: إن السياسة شيء، واللغة شيء آخر؟ لا شك في أننا نستطيع أن نقول للناس: ليحتفظ كل منكم بمعتقده الديني لنفسه، ولكن هل نستطيع أن نقول لهم: ليحتفظ كل منكم بلغته لنفسه؟»^(١).

ويشير ساطع إلى أن انتشار اللغة العربية في العالم العربي قد «تم بفضل الفتوحات العربية، التي تمت تحت راية الإسلام»^(٢)، ولكنه لم يُشير إلى الفتوحات الإسلامية التي تمت بعد سقوط دولة بني أمية إثر انقلاب العباسيين، الذين تفككت دولتهم بعد قرن ونصف من قيامها، ثم حمل الترك والغزنويون، والسلاجقة والمماليك والعثمانيون رايات الفتوحات الإسلامية، التي حملت اللغة العربية إلى أكثر البلاد المفتوحة، وأصبحت لغة العلم في العالم الإسلامي. فهل كان من الممكن أن تنتشر هذه اللغة لولا دين الإسلام؟ واللغة العربية والإسلام صنوان لا يفترقان؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولولا القرآن لتفككت العربية إلى لهجات كثيرة، ولقضي على الوحدة اللغوية، ولما تعرب كثير من الإثنيات والجماعات والشعوب التي تسكن البلاد العربية، وما زالت العربية تتمدد تبعًا لانتشار الإسلام.

وحاول ساطع الحصري أن يوحى بضعف تأثير الدين الإسلامي في الأدب العربي، يقول: «إن عدد روائع الأدب العربي التي لا تتصل بأمور الدين، فلا تعكس شيئًا من الأحاسيس الدينية، يبلغ أضعاف أضعاف الروائع التي تتصل بالدين، وتعبّر عن العواطف الدينية»^(٣).

قلت إن رأي ساطع في روائع الأدب العربي لا يمكن قبوله عند المطلعين على الأدب العربي للآتي:

أ- أنه حكم فيه تعميم كبير على أدب امتد خمسة عشر قرنًا بعد ظهور الإسلام، ونبغ فيه آلاف الشعراء والكتّاب، وكل واحد منهم له بيئته وزمانه، وثقافته ومذهبه.

(١) الحصري، الأعمال القومية، ق ٣، ص ٢٨٦٨.

(٢) المصدر السابق، ق ٢، ص ١٦٧٦.

(٣) الحصري، الأعمال القومية، ق ٢، ص ١٥٨.

ب- أن الأفكار والعواطف الدينية، قد تغلغلت في نفوس جُلّ أدباء العربية، وأصبحت مكوناً أساسياً في تفكيرهم وعواطفهم، ومشاعرهم وإبداعاتهم، والمعجم القرآني، والموروث الشعري من المصادر الأساسية لصورهم وأخيلتهم، وأساليبهم ولغتهم الأدبية، مع مراعاة الفروق الفردية بينهم في قوة العاطفة الدينية أو ضعفها، ولكن العاطفة الدينية والمعاني الدينية تبقى موجودة حتى عند الزنادقة والشعوبيين منهم.

ج- أن القرآن الكريم بأسلوبه البليغ المعجز، هو الذي صان الأدب العربي من الاندثار، وضمن له البقاء والديمومة طول هذه القرون، وبقي النصّ الأدبي مفهوماً لدى جمهرة المتعلمين، خلافاً لآداب الأمم الأخرى التي ربما لا يفهم الكثيرون من أبنائهم تراث أجدادهم بعد مرور خمسة أو ستة قرون على كتابته؛ لما يطرأ على لغاتهم من تغييرات واسعة في الأصوات والتراكيب والبناء والدلالة.

وقد بين صادق الرافعي أثر القرآن على لغة العرب، وأدبها وتاريخها قائلاً: «إنما القرآن جنسية لغوية، تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متّحدين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً، حتى يأذن الله بانفراط الخلق، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس، وردّهم إليها، وأوجبها عليهم، لما اطرد التاريخ الإسلامي، ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة»^(١).

د- بقي الأثر الإسلامي حاضراً حتى في شعر العصبية القبلية، التي تبدت في شعر النقائص في عصر بني أمية، والذي عكس انبعاث العصبية القبلية التي حذر الإسلام منها، بقي هذا الشعر محافظاً على القيم الإسلامية، وكان شعراء النقائص يهجون خصومهم بضعف تمسكهم بالقيم الإسلامية، وقد بين ذلك شوقي ضيف، يقول: «... أساسُ الهجاء في النقائص يقوم على العصبية القبلية... هذه العصبية في العصر الأموي اختلطت بالسياسة، وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء

(١) الجندي، أنور: المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة، دار المعرفة، القاهرة، بلا تاريخ، ص ٦٩.

الولاية، بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاءً فحسب، بل تحتوي كذلك مديحاً، كما تحتوي نسيباً وغزلاً، والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه»^(١).

هـ- يتبدى الأثر الإسلامي بجلاءٍ في جُلّ موضوعات الشعر العربي، في: الحماسة، والفخر، والغزل، ومدح الأبطال، والثناء، والمدح، والزهد، والفلسفة، ووصف الطبيعة، وفي النقد السياسي والاجتماعي، وغيرها من الموضوعات، وهو أمرٌ بدهيٍّ لدرّاس الأدب العربي، ولذا فإنّ قول ساطع السالف ذكره غير صحيح.

و- إنّ القرآن الكريم هو أهمّ عامل في تطور الأدب العربي لعةً وأسلوباً، وشعراً ونثراً، ولولا القرآن الكريم والإسلام، ل بقي أدباً محصوراً في موضوعات محدودة في العصر الجاهلي. يقول سامي مكّي العاني: «وحاول معظم شعراء العصر الإسلامي والأموي تحرير أشعارهم، ممّا كان يثقل الشعر الجاهلي من التعقيد والخشونة والصعوبة، ومالوا نحو السهولة والسلاسة والوضوح، وقد ترسّموا في ذلك منهج القرآن الذي تميّزت ألفاظه بالرقة والسهولة والوضوح، مع الفصاحة والبلاغة»^(٢).

أمّا ما يتعلق بموقف ساطع من العلاقة بين الدين والسياسة والتاريخ، فإنّه حاول أن يبرهن على أنّ الرابطة القومية والوطنية والسياسية، أقوى من الرابطة الدينية، وأنّ العلاقات السياسية لا تتبع العلاقات الدينية، وأنّ حروب الاستعمار الغربي الحديث وغاراته على البلاد الإسلامية لا ترتبط بدين، ويضرب مثلاً على ذلك أنّ الطليان احتلوا الحبشة وهي مسيحية، وأنّ الشعوب المسيحية في أوروبا تقاطلت فيما بينها وهي مسيحية^(٣).

(١) ضيف، شوقي: العصر الإسلامي، ط ٥، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م.

(٢) العاني، سامي مكّي: الإسلام والشعر، ط ١، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢٧٢؛ وانظر: الجرجاني، علي بن عبدالعزيز: الوساطة بين المتنبّي وخصومه. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي الجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص ١٨.

(٣) انظر: الحصري، الأعمال القومية، ق ٢، ص ١٣٤١.

إنّ ما ذكره ساطع بخصوص تقاتل الأوروبيين فيما بينهم، وهم يدينون بدين واحد، له دوافعه القائمة على الرغبة في الهيمنة، وتوسيع الإمبراطوريات، والنزاعات بين الدول والملوك، والخلافات حول الحدود والمصالح، والعداء التاريخي بين بعض الدول، ولكنّ حروب الأوروبيين على العالم الإسلامي وغزوه، واحتلال أرضه، وذبح عشرات الملايين من سكانه بشكل لا إنسانيّ أيام الحروب الصليبية، وعلى يد محاكم التفتيش الإسبانية، التي ما عرف لها التاريخ مثيلاً في التنكيل والإجرام والتعذيب والحرق^(١)، وما تلا ذلك من غارات الإسبان على المغرب العربي، وحروب البرتغاليين وحملاتهم الهمجية على المغرب وأفريقيا الإسلامية، وجزيرة العرب، والهند الإسلامية، وما ارتكبه من المذابح الجماعية، وما خطّطوا له من حرق لمكة المكرمة^(٢) والحرم النبوي الشريف.

ثم حروب الأوروبيين والروس مع الدولة العثمانية، وثوراتهم عليها في البلقان، إلى احتلال المغرب العربي، ومصر وبلاد الشام، إلى خلق دولة يهود على أساس ديني، وتدمير العراق أخيراً، كلّ ذلك وغيره الكثير، قائمٌ على أساس ديني، ويجاهر بذلك زعماءهم في كثيرٍ من المناسبات.

ولا يشكّ عاقلٌ في أنّ كلّ ما قام به القديمان من الأوروبيين، وما قام به المعاصرون منهم كان بتحريكٍ من نزعة الحروب الصليبية المتأصلة في نفوسهم، التي أجمعت نيران العداء، وأضرمت الحروب الشريرة المتواصلة على بلاد المسلمين، الذين قتلوا منهم عشرات الملايين، وشردوهم من أرضهم وأوطانهم بعد نهب خيراتها، فهل كان ساطع غافلاً عن كلّ هذا؟ ماذا فعل الأوروبيون بسكان البلقان واليونان والقرم، والقوقاز،

(١) انظر: الحداد، جرجي: تاريخ وفضائع ديوان التفتيش في البرتوغان وإسبانيا، ١، سان باولو- برازيل، ١٩٢٣م، ص ٣-٢٠٨.

(٢) انظر: الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية ١٥٠٨-١٥٦٨م. ترجمة: أحمد بوشرب، ١، كرسي الأمير سلمان بن عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ٩٢، ١١٤، ٢٤٣.

والأناضول، علماً بأنَّ ساطعاً كان معاصراً لإبادة ملايين المسلمين على أساس دينيٍّ،
وبتشجيع من الدول الأوروبية على المسلمين بعد سقوطها بأيديهم؟^(١).

أنا لا أظنُّ أنه كان غافلاً عن ذلك، ولذا فإنَّ تقليله من الرابطة الدينية، ومحاولة
استبعادها، وتهميشها، جاء منسجماً مع فكرته القومية التي نبتت وترعرعت في ظلِّ
سياسة التتريك، ثم حملها إلى التربة العربية ليغرسها بها؛ لأنَّ المستعمرين الغربيين لا
يخشون إلا الدين الإسلامي الذي تصدَّى لهم بالمقاومة في كلِّ أرض عربية وإسلامية.

وبناءً على ما سبق، فإنَّ موقف ساطع من الدين، ومحاولة اقتلعه من التعليم،
ومؤسسات الدولة وسياساتها، لم يكن منسجماً مع رأي الأغلبية التي لقي منها معارضة
شديدة، حتى رُفِعَتْ ضده الشكاوى للحكومة، كما أنَّه يتناقض مع رأي كرد الذي رأى
أهمية الدين الصحيح في الإصلاح والنهضة، بل إنَّ رأي ساطع وموقفه غير منسجم مع
حقائق التاريخ، التي كان شاهد عيان على كثيرٍ منها.

(١) انظر: مكارثي، جستن: الطرد والإبادة مصير المسلمين العثمانيين (١٨٢١-١٩٢٢)، ترجمة: فريد
الغزي، ط١، قدمس للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠٠٥م.

المبحث الثالث

المنافسة الشخصية بين كرد علي

وعبد الرحمن الشهبندر (وزير الخارجية)

ورده لمشروع إعادة المجمع

لا ريب أنّ الشهبندر كان له دور فاعل، في ردّ طلب إعادة المجمع الذي عُرض على مجلس الوزراء، في حكومة هاشم الأتاسي التي تشكّلت في الثالث من أيار سنة ١٩٢٠م، وأصبح الشهبندر وزيراً للخارجية في الحكومة المذكورة. وقبل معرفة حقيقة موقف الشهبندر من المجمع، لا بدّ لنا من الوقوف على بعض الجوانب من سيرة هذا الرجل، ومعرفة علاقته بكرد علي، ويمكن توضيح ذلك من خلال الآتي:

• وُلِدَ عبد الرحمن الشهبندر بدمشق سنة ١٨٨٢م، ودرس الطبّ في الجامعة الأمريكية ببيروت، وانضمّ إلى جمعية (الاتحاد والترقي)، ولكنّه تركها بعد إعلانها سياسة التتريك، ففرّ إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق أيام الحكومة العربية سنة ١٩١٩م، وكان له دور فاعل في الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥م، وشارك في إنشاء (حزب الشعب)، ثم غادر سورية إلى مصر، وعاد إلى الشام سنة ١٩٣٨م، واغتيل في عيادته سنة ١٩٤٠م، وعُرفَ بأنّه خطيب مفوّه^(١).

• ذكر كرد علي أنّ الشهبندر كان صديقاً له، وقد جاءه برفقة أحد التجار - لم يُسمّه - في بداية الحرب العالمية الأولى إلى بيته في قرية المَزّة، وطلب إليه مصاحبته للسمر عند رضا باشا الركابي، وبدأ الشهبندر يذكر الوضع الحرج للدولة العثمانية، وقال: «من الواجب أن يفكّر أهل هذه الديار في مصيرهم، كأن تؤسّس جمعية سرّية تتصل بالإنكليز للاتفاق على خطة»^(٢)، فلم يوافق كرد علي اقتراحه، قائلاً: إنّ مصير الحرب لم يحسم بعد، فقال الشهبندر: «كيف إذا تدّعي أنّك تخدم العرب؟ وأين حميتك ووطنيتك؟ فقلت له: لم أصحح شيئاً من هذا مع الأسف، وإذا

(١) انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١١١.

مِتْ فَاكْتَبْ عَلَى قَبْرِي: هَذَا خَائِنَ الْعَرَبِ... وَأَنَا لَا أَدْخُلُ وَلَنْ أَدْخُلَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، فَقَالَ الْبَاشَا صَاحِبَ الدَّارِ: إِذَا كَانَ فُلَانٌ يَمْتَنِعُ عَنِ الدَّخُولِ، فَأَنَا لَا أَدْخُلُ، وَافْتَرَقْنَا مَتَعَاهِدِينَ عَلَى الْكُتْمَانِ^(١). وَالْخَبْرُ السَّابِقُ يَدُلُّنَا عَلَى عَمَقِ الصَّدَاقَةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا شَاهَبَا فِي قَضِيَةِ الْمَجْمَعِ، فَقَدْ زَارَ الشَّهْبَنْدَرُ فِي دَارِهِ سَنَةَ ١٩٣٨ م، فَذَكَرَهُ بِأَمْرِ ذَلِكَ التَّاجِرِ، الَّذِي تَبَيَّنَ - فِيمَا بَعْدَ - أَنَّهُ كَانَ جَاسُوسًا لِحِمَالِ بَاشَا السَّفَاحِ^(٢).

• يَبْدُو أَنَّ الشَّهْبَنْدَرَ فِي مَرِحَلَةِ شَبَابِهِ كَانَ فُخُورًا بِدِرَاسَتِهِ، وَمَعْتَرِّزًا بِأَنَّهُ أَحَدُ خَرِيَجِي الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، الَّتِي يَرَى أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتَخَرَّجَ مِنْهَا فَلَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَى أَقْرَانِهِ، وَلَوْ كَانَ قَدْ تَخَرَّجَ بِالشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ، وَالشَّيْخِ طَاهِرِ الْجَزَائِرِيِّ، وَ«يَلْهَجُ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يَدْرُسِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ، كَمَا دَرَسَهَا هُوَ، لَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَمْسُكَ قَلَمًا، وَلَا أَنْ يُؤَسِّسَ جَرِيدَةً أَوْ مَجَلَّةً، أَوْ يَنْشُرَ كِتَابًا»^(٣). وَالشَّهْبَنْدَرُ يَقْصِدُ بِكَلَامِهِ السَّابِقِ التَّعْرِيفَ بِكَرْدِ عَلِيِّ، الَّذِي لَمْ يَدْرُسْ فِي جَامِعَةِ عَصْرِيَّةِ، وَكَانَتْ دِرَاسَتُهُ عَلَى الْمَشَايِخِ، وَيَرُدُّ كَرْدَ عَلِيٍّ مَوْقِفَ الشَّهْبَنْدَرِ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَ مِمَّنْ لَمْ يَتَخَرَّجُوا مِنْ جَامِعَتِهِ، إِلَى أَنَّ «طَابَعِ الْأَثَرَةَ كَانَ مَتَجَلِّيًا فِيهِ، تَجَلِّيًا فِي بَعْضِ مَنْ تَخَرَّجُوا بِالْأَمِيرِكِيِّينَ الْأَنْجِلِيِّينَ»^(٤).

• عُرِفَ الشَّهْبَنْدَرُ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ السَّمَاتِ وَالْخِصَالِ الشَّخْصِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، أَهْمُهَا: الطَّمُوحُ السِّيَاسِيُّ، وَالِاعْتِدَادُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّطَرُّفُ فِي الْمَوَاقِفِ، وَتَوَجُّهُهُ النِّقْدَ وَاللُّومَ لِلْآخَرِينَ، وَالنُّزُقُ وَالْعَصْبِيَّةُ، وَالسَّعْيُ لِلبُرُوزِ وَالزُّعَامَةِ، وَعُرِفَ بِالْمَزَاجِيَّةِ وَسُرْعَةِ التَّقَلُّبِ^(٥). هَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي غَلَبَتْ عَلَى شَخْصِيَّةِ الشَّهْبَنْدَرِ، ذَكَرَهَا عَنْهُ مُحَمَّدُ عَزَّةُ دَرُوزَةُ لَا كَرْدَ عَلِيٍّ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ أَحْكَامِ كَرْدِ عَلِيٍّ شَخْصِيَّةِ الشَّهْبَنْدَرِ.

(١) كَرْدِ عَلِيٍّ، الْمَذْكَرَاتِ، ج ١، ص ١١١.

(٢) انْظُرْ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ج ١، ص ١١٣.

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ج ٢، ص ٤٤٦.

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ج ٢، ص ٤٤٦.

(٥) انْظُرْ: دَرُوزَةُ، مَذْكَرَاتِ مُحَمَّدِ عَزَّةِ دَرُوزَةُ، ج ١، ص ٤١٠.

• وبناءً على ما عُرفَ عن شخصية الشهبندر من: نزق، وسرعة في القلب، وحدة العصبية، والتطرف في المواقف، فإنَّ رضا بك الصلح، زميل الشهبندر في وزارة هاشم الأتاسي، أبلغ كُرداً أنَّ الشهبندر طالب مجلس الوزراء بإبعاد اثنين من الشام إلى الحجاز، وهما: عبد الرحمن باشا اليوسف، وهو من كبار وجهاء دمشق وأعيانها، ومحمَّد كرد علي، ومُبرِّر الشهبندر في طلب الإبعاد: أنَّ الحالة السياسية لا تستقرُّ بوجود هذين الرجلين اللذين كانا من أصدقائه، وقد تأكَّد كرد من صحة هذه المعلومة من رئيس الحكومة الأتاسي.

يقول كرد: «ولمَّا سقطت هذه الوزارة الأتاسية، وهرب شهبندر وأصحابه، قلت لرئيسها، وقد جاء يوّدعني في داري: ليتكم نفّذتم مقترح الشهبندر بإبعادي، وإبعاد عبد الرحمن باشا، إذًا لأريتكم مقدار أنفسكم. فأجاب: وهل رأيتَ هذا الاقتراح قد عمَل به؟ ومعنى ذلك أنَّ شهبندر اقترح ذلك، وما سمع له زملاؤه»^(١).

• ولم يقف الشهبندر عند دعوة حكومة الأتاسي إلى نفي كرد علي، وعبد الرحمن اليوسف إلى الحجاز، ممَّا يعني الحكم عليهما بالإعدام والموت في آنٍ واحد في أشجع السجون آنذاك، بل طالب بإلغاء المجمع الذي كان مقترح إعادته للعمل معروضاً أمام وزارة الأتاسي، يقول كرد: «وأظنَّه لما خاب فيما بيَّته لي، عاد في مجلس الوزراء، فاقترح إلغاء المجمع العلمي العربي، وكان من قبل بضعة أشهر يوُدُّ لو يكون عضواً فيه، ويقول لي: إني خدعتُ أوروبا بهذا المجمع. فأقول له: أنا أجتهد، لأفهمها أننا أمة ذات مجد قديم، تتوفر الآن على إحيائه»^(٢).

ويتضح لنا أنَّ الشهبندر الذي عُرفَ بجبّه الشهرة، ورغبته العارمة في التصدُّر والرياسة، كان حانقاً على كرد علي، الذي لم يرشِّحه لعضوية المجمع، إذ كان الرجل معتدلاً بشهادته الطبية من الجامعة الأمريكية، ويرى نفسه فوق أعضاء المجمع، بمنَّ

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٨.

فيهم كرد نفسه، الذي لم يتعلم في المعاهد والجامعات، بينما يرى الشهبندر نفسه خريجاً للجامعة الأمريكية في بيروت، وهي واحدة من أرقى الجامعات في العالم، وأكثرها شهرةً في الشرق، وكان يجاهر كرد بذلك، ولا يعترف بعلمه، ولا يعدّه أكثر من مجرد كاتب صحفي، فكيف وقد أصبح رئيساً للمجمع العلمي العربي، الذي يُعدُّ من أرفع المؤسسات العلميّة في الدولة العربية، وهو أول مجمع يُقام في الشرق العربي، ولا سيما أنّ عضوية المجمع آنذاك تعدُّ شرفاً كبيراً لأعضائها في الغرب وفي الشرق.

يقول عبد الله واثق شهيد: «ولا تزال المجمعُ تحتفظ بكثيرٍ من هيبتها، ونفوذها، وجاذبيتها، التي بلغت الأوج في القرن الثامن عشر، ولا تزال عضويتها مُنية رجال الفكر والفنّ، ولا يتصدّر سدّتها إلا القلة من صفوفهم في بلدانها، ولا تزال بين أهمّ المراجع العلمية المختصة في الدولة، إن لم تكن أهمها جميعاً»^(١).

وقد عرفنا سابقاً أنّ المجمع قد اختار عبد الرحمن الشهبندر عضواً مؤازراً في القسم الفني للمجمع، الذي ضمّ: حكمت المرادي، ومرشد خاطر، وهما من كبار أساتذة كلية الطبّ في دمشق، ولهما جهودهما المعروفة في ترجمة الكتب الطبية، ووضع مصطلحاتها، ومعاجمها، ولكنّ الشهبندر لم يكن راضياً بعضوية المؤازر، التي لم ترض طموحه وتطلّعه لأن يكون أولاً دائماً، بل أراد أن يكون عضواً عاملاً، يزاحم بمنكيه كبار اللغويين والنحويين، الذين يمكن أن يخدموا اللغة في المجمع أكثر من خدمة الشهبندر وغيره من العلماء الفضلاء.

وقد وثق لنا كرد علي موقف الشهبندر، ودوره في تعطيل المطالبة بإعادة المجمع للعمل في رسالة قوية اللهجة، وجّهها للشهبندر، فيها من اللوم والتقريع، والتعنيف والتبكي، ما يدلّ على تأجّج نيران الغضب في صدر كرد علي موقف الشهبندر من المجمع. وقد قدّم كرد لرسالته بقوله: «هذه صورة ما كتبتّه إلى وزير من وزرائنا في

(١) شهيد، عبد الله واثق: «المجامع»، بحث منشور في «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق»، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، المجلد (٨١)، ص ٤٨١.

١٠ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٥ حزيران ١٩٢٠م، لما قاوم المجمع العلمي العربي»، وكرد لم يذكر لنا اسم من أرسلت له هذه الرسالة، الذي تدلُّ القرائن والوقائع على أنه عبد الرحمن الشهبندر.

بدأ كرد رسالته بالحديث عن الوطنية الكاذبة، التي يكثُر دعائها والمتاجرون بها، وهم الذين يُموّهون كلَّ ما لا يتفق مع أهوائهم، يقول: «كأنَّ من أمارات الوطنية الكاذبة، أن يموّه دعائها المتاجرون بها، كلَّ ما يُعرض لهم ممَّا لا ينطبق مع هوى نفوسهم»^(١).

ثم تحدّث كرد عن أخلاق الشهبندر المعبولة على الحسد، والساعية للشهرة بكلِّ الوسائل، وأهمها الحطُّ من قدر الفضلاء، ومع ذلك فإنَّ كرد كان يتمنّى إصلاحه بالقدوة الحسنة، ولكنَّ هذه الطباع ازدادت ضراوةً ورسوخاً في نفس الشهبندر، يقول: «عرفتُ من أخلاقك منذ عرفتك، أيام كنتَ تغشى مجلسي مستفيداً، أنك مفطورٌ على الحسد، حريصٌ على الشهرة، تتوخَّأها من كلِّ طريق، وتعدُّ من الوسائل إلى ذلك الغرض ممَّن ذهبوا بفضلها، وقد كنتَ أمّني النفس باستصلاحك في هذا الشأن بالتجربة والقدوة، أرى تلك الصفات، تزيد فيك على الأيام تأصلاً»^(٢).

وبعد هذه الديباجة الهجومية التي ملؤها الزجر والتقريع، والتوبيخ والاستغراب، ينتقل كرد إلى قضية المجمع، وما كان من معارضة الشهبندر لمشروعه الرامي إلى إعادته للعمل، إذ وظّف كلَّ قدراته الخطابية، ومهاراته الحجاجية والبلاغية، في سلب المجمع إنجازاته العلمية، وإنكار فوائده المادية والمعنوية، وتجاهل جهوده في تأسيس دار الكتب الوطنية ودار الآثار.

ثم يدّعي الشهبندر بأنَّ مصلحة الحكومة، تقتضي الاقتصاد في النفقات المالية، التي لو كان الشهبندر صادقاً في دعواه، لنبّه حكومته على إسرافها وتبذيرها، وبخاصة ما كان منها في وزارة الشهبندر نفسه التي عُرفت بالبذخ في النفقات التي تذهب سدى،

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٧٩١.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩١.

ولا طائلَ تحتها، يقول: «وبعد ما كان يخيلُ لي أنّك تقوم في مجلس الوزراء، وتناقش في مسألة إرجاع المجمع العلمي العربي، تحاول بشقاشقك المعهودة، أن تسلبه ما تمَّ على يده من الفوائد المادية والمعنوية، وتُنكر ما قام به - على الأقل - من إنشاء داري الكتب والآثار، مدّعياً أنّ المصلحة مراعاة الاقتصاد في مثل هذه الأحوال، وكان الأولى بهذه العناية لو أنصفتَ، وزارتك التي لا تحتاج لكلّ هذا الإسراف المضحك المبكي»^(١).

ويُبيّن كرد في رسالته تناقض الشهندر، وعدم صدقه في أقواله وأفعاله، فما كان يتمنّاه ويسعى إليه بالأمس، عاد ليحطّ من قدره اليوم: «وكيف لعمرى تزعم أنّ المجمع العلمي غير مفيد، وقد كنتَ قبل أشهرٍ تتمنى لو تُعدُّ عضواً فيه؟!»^(٢).

وينبّه كرد الشهندر، على أنّ موقفه السلبي من المجمع، يفتقر إلى الوطنية والصدق والعدل، فلو كان وطنياً عادلاً، لكان رأيه مغايراً لما ذهب إليه، ولو كان محبّاً لبلاده لطالب ببقاء المجمع، وتغيير رئاسته إن كانت تفتقر إلى الكفاءة، أو تُتَّهَم بالتقصير في العمل. يقول: «لو كنت ممّن تحب بلادك حقّاً وصدقاً، لوقفتَ غيرَ موقفك هذا، وراعتَ العدل، فطلبتَ بقاء مجمعنا، على أن يتولّى رئاسته غيري، إذا كنتَ تراني غيرَ كُفءٍ لها، وإيجاد رجل له لا يصعب على من استتبع الغاغة، وعدّهم جماع القوى، وادّعى أنّ الفضل مقصورٌ عليهم»^(٣).

ويذكر كرد الشهندر أنّه إذا ما أُقصيَ عن رئاسة المجمع، ونجحت مساعي الشهندر في عزله، فإنّه لن يكون أسفّاً على ذلك؛ لأنّ له في داره مجلساً علمياً، يجتمع فيه أصدقاءه الخُص من العلماء الذين يتطارحون المسائل العلمية، ويحضر إليه علماء الاستشراق من الشرق والغرب، علاوةً على أنّه لا يُعوّل كثيراً على وظيفة الحكومة،

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٧٩١.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٩١.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩٢.

التي تجعله مقيداً بالعمل وقلة الدخل، يقول: «لستُ آسفًا للأثر الناتج عن سعيك في إقصائي عن رئاسة المجمع، فإنَّ لي كلَّ حين في داري وحقلي، من صفوة الأصدقاء، مجمعاً مستقلاً، يَنْفُضُ عن فوائد جمَّة، دع من أفاوضهم الحين بعد الآخر، من علماء المشرقيات في الشرق والغرب، وما كنتُ لأجنحَ إلى الاتكال، وأقيّدَ النفس بقيود الموظفين الثقيلة لقاءَ عرضٍ قليل»^(١).

ويؤكّد كرد للشهبندر أنّ المجمع يحتاج إلى كرد أكثر من حاجته هو للمجمع، بناءً على شهادة خصومه، الذين هم موقنون بدور المجمع، ورسالته في خدمة الأمة، بينما الشهبندر يتحامل على المجمع، ويرى أنّ كرد علي قد خدع أوروبا به، ولكنَّ كرد يردّ ذلك ويرفضه، مُبَيِّنًا أنّه يسعى إلى إبراز مجد الأمة، ويهدف إلى إحياء تراثها وحضارتها، ويكون المجمع بذلك خدم الحكومة العربية، وعكس صورة مشرقة، بعيداً عن الطائفية والعصبيات المذهبية.

يقول: «وقد أقرّ حتى خصومي، أنّ المجمع يطلبني أكثر ممّا أطلبه، وهم على مثل اليقين في غنائه للأمة، أمّا أنت فتقصد إلى إقناع من حولك، كما قلت لي ذلك مرة، أنّني خدعت أوروبا بهذا المجمع، وهذا جُلُّ ما أسعى إليه. أنا لم أخدع أوروبا، بل جهدتُ لإفهامها، أنّا أمة ذات مجدٍ قديم، تُريد إحياءه، فخدمتُ بذلك الحكومة العربية؛ لأنني حسّنت سمعتها مع إخواني رجال المجمع، وخدمنا العلمَ المجرّدَ عن الغايات، البريء من وصمة التعصبات ومؤثرات المعتقدات»^(٢).

قلت: إنّ دعوة محمّد كرد علي للحكومة العربية إلى تأسيس المجمع، واستجابة الركابي الحاكم العسكري والملك فيصل إلى تلك الدعوة، والموافقة على إنشاء المجمع، من أجلّ الخدمات وأعظمها للعهد الفيصلي، بل هي الأثر الوحيد الباقي، والشاهد العلمي والحضاريّ على ذلك العهد، الذي واجه أعظم التحديات الحضارية

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٧٩٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩٢.

من الغرب، وبينما كان فيصل بن الحسين يحاول انتزاع حقّ العرب في الاستقلال والحرية والوحدة، في مؤتمر الصلح في باريس، كان بعض زعماء أوروبا وفي جلسات ذلك المؤتمر، يدّعون أنّ العرب أمة متخلفة لا حضارة لها، وأظنه رئيس وزراء إيطاليا، فرد عليه فيصل بأنّ حضارة العرب أسبق من حضارة اليونان والرومان^(١).

ولذا فإنّ ما قام به المجمع من مخاطبة للمجامع العلمية في العالم، ومكاتبة المستشرقين عند تأسيسه، كان له دورٌ كبيرٌ في معرفة الغرب بتاريخ العرب وحضارتهم ودورهم في التاريخ الإنساني، وفي إعلام الغرب أنّ العرب قد عادوا لاستئناف دورهم الحضاري من جديد، وبأنّ لديهم مجمعاً علمياً لا يقلّ في أهدافه ومشاريعه عن المجامع العلمية في الغرب، وأنّ مجمعهم سيعمل على بعث مجد العرب وإحياء مخطوطاتهم، وجمع آثارهم، والنهوض بلغتهم التي كانت سيدة لغات العالم في مجدها الغابر، الذي سيعود حاضراً زاهراً من جديد.

ويحتدّ كرد في خطابه ويشتدّ ضرامه على الشهنندر، واصمماً إياه بقلّة الحياء، وقلة الأدب التي وصلت به إلى حدّ السفاهة، ممّا دعاه إلى تزييف الحقائق، وإنكار البدهيات التي لا يمتري فيها عاقلان، إضافة إلى أنانية مركبة، جعلته ينكر المحسوسات ويشكك بوجودها، ممّا ترتب عليه اختيار الجهل على العلم للبلاد، التي هي بأمس الحاجة إلى من ينهض بها، ويدفعها إلى الأمام.

وكان محرّكه الأول في كلّ هذا التجهيل للبلاد، وإرجاعها إلى الوراء، هو الثأر من كرد الذي يعرفه قديماً، ولم تبدر منه إساءة إليه، ولكنّ الحقد والحسد يعمي ويصمّ، مما دفعه إلى عدم الإنصاف مع خصومه، فسعى إلى تحطيم شخصياتهم، والخطّ من إنجازاتهم، والتشكيك في جدوى أعمالهم، يقول كرد: «قحة، دعت صاحبها إلى التمويه في البديهيات، وأنانية مجسمة، شأنها التبجّح وإنكار المحسوسات، كان من أثرها إثارة الجهل لهذه البلاد التعسة، التي هي في أشدّ الحاجة لمن يدفعها ولو خطوة ضئيلة إلى

(١) انظر: الوردى، علي، ملامح من تاريخ العراق الحديث، ط ٢، بيت الوراق، لندن: ج ٦ (ملحق)، ص ١١٣.

الأمام، حتى يثار ذو ضغينة لنفسه من أقدم من عرفوه، وما قطّ أثرتُ عنهم إساءة إليه، بيد أن الحقد أكل قلبه، فراح يعبث بشخصياتهم، ويرمي بضاعتهم بالكساد^(١).

ويشير كرد لدور السياسة في إفساد الصداقة بينه وبين الشهبندر، الذي بهره منصب الوزارة، حتى أساء إلى واحدٍ من أقرب الناس إليه، وهو كرد علي، الذي تحمّل سوء عشرته، ولمّه على شعثه استبقاء للصداقة معه، ويذكر كرد الشهبندر بما كان منه في التناقض والتلون في الأعمال والأقوال، والمواقف والآراء، فما هو عنده اليوم قبيح، يصبح عنده حسناً في الغد، إذا وافق هواه ومصالحته، وما ينهى عنه، سرعان ما يدعو إليه، وكان لسان حاله ما قاله الشاعر العربي:

لا تَنهَ عن خَلقٍ وتأتي مثله

عازّاً عليك إذا فعلتَ عظيمٌ

يقول كرد: «بهرك المنصب، فأسأت حتى إلى أقرب الناس إليك، ممّن صبروا على سوء العشرة، استبقاء للصداقة، وما أنسى ما كنت تُمثّله من الأدوار المحزنة، فتحاول إقناعي بمضارّ أمر، ولا تستحي من الغد أن تزيّنه للأبصار، وتأتي مثله من دون حرج، إذا كان فيه حظّ نفسك، فتدعوني إلى ما كنت عنه بالأمس تنهاني»^(٢).

ويلمح كرد للشهبندر، بأنّه عارف بقصة وصوله إلى منصب الوزارة، الذي أعماه وأصمّه، وجعله ذاهلاً عن كلّ مواقفه السابقة من أصدقائه، ومن الحكومة ورجالها، ولكنه الآن بعد جلوسه على كرسي الوزارة، أظهر تفانياً في محبة الملك حفاظاً على منصبه، علماً بأنّه كان يلعنه جهاراً قبل ذلك.

ويذكره بموقف الملك فيصل في حفلة النادي العربي، عندما طلب منه الملك أن يشتغل بعلمه، لا أن يخوض في السياسة، يقول كرد: «نعم إنّنا ممّن لم تخفّ عليهم

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٧٩٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩٢.

قضية ذاك الكرسي الذي أجلسوك عليه الآن، فأذهلك عن كل شيء، ورأيت من أسباب بقائه لك أن تتظاهر بالفناء في محبة عظيمنا، الذي كنت تلعبه أمس علناً، حتى أخرجت الصدور، وقال في النادي العربي منذ أشهر، إن الأمة لا ترتقي حتى يشتغل من كان مثلك بما يعلم، يقصد أن السياسة لم تخلق لها، ولا استعدادت للخوض في مضمارها»^(١).

ويختم كرد رسالته العنيفة التي صدم بها الشهبندر؛ لسده الطرق بكل شقاشقه وحججه أمام نهوض المجمع وقيامه من جديد، ويصف الشهبندر بأنه ضعيف المدارك، مخدوع بالمظاهر البراقة، جرفته عاطفته وهواه، ولم يحكم سلطان عقله في أعماله وقراراته، ويختم رسالته للشهبندر بتنبئيه على أن الأيام ستريه نتائج تصرفاته وأعماله الطائشة، يقول: «ضعيف المدارك لعمر الحق، من يخدعه بريق المظاهر المؤقتة الخلافة، ومن يؤخذ بسلطان العواطف، ولا يجعل للعقل عليه سلطاناً، وستريك الأيام نتائج أعمالك محسوسة، ومن يعيش ير»^(٢).

إن هذه الرسالة - التي تسري فيها روح أسلوب الجاحظ - يمكن أن تعد من أهم الوثائق في التصدي لخصوم المجمع من رجال الحكومة العربية، وفيها أظهر كرد براعة فائقة في تشخيص صورة الخصم، ورسمه من جميع جوانبه النفسية، مازجاً فيها بين العتاب والسخرية، والتهديد والتفريع، كاشفاً عن حالة خصم المجمع قبل الوزارة وبعدها، موظفاً كل الحجج والأدلة المنطقية والعقلية في التصدي لأعداء المجمع، مبيناً أن عداوتهم مبنية على الحسد الشخصي والمكايدة لرئيس المجمع، وأعضائه وإنجازاته، وليست قائمة على مبررات موضوعية، وأسباب علمية مقنعة.

وتتضح لنا استماتة كرد في استئناف مسيرة المجمع؛ ليكون لبنه وخطوة في سبيل نهوض الأمة، والذود عن حضارتها وتاريخها ولغتها، ومبدياً استعداده للتخلي عن

(١) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٧٩٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩٣.

رئاسة المجمع، إن كان اعتزاله باباً أو طريقاً لعودة المجمع إلى العمل؛ لمواصلة مسيرته التي أثبتت نجاحها، وسبقها للعالم العربي في يومها، وما زالت حتى اليوم تزداد نجاحاً ونهوضاً وألقاً وازدهاراً.

ومما يجب الوقوف عنده ومناقشته، هو ما ذكره كرد في رسالته عن وزارة الشهبندر، التي ألمح كرد فيها إلى أنها تخفي وراءها قصة، فما هي هذه القصة؟ إن معرفة هذه القصة، ومعرفة خلفياتها، تقتضي الوقوف على طبيعة العلاقة بين الملك فيصل والشهبندر، قبل وزارته وبعدها، وربما كان سبر طبيعة هذه العلاقة ضوءاً كاشفاً عن موقف الملك، ووعده بإحياء المجمع، واستئناف العمل فيه.

يبدو أن الملك فيصل كان غير راضٍ عن القرار السلبي لحكومة الأتاسي بخصوص المجمع، وهو القرار الذي كان فيه الشهبندر رأس الحربة، إذ أبدى مقاومة عنيدة لعودة المجمع إلى العمل. أمّا موقف الملك من هذا القرار، فإنه كما يقول كرد: «وأراد الملك فيصل أن يتلافى ما فرط، ووعده أن يوعز إلى الحكومة بإعادة المجمع إلى سالف حاله، ولم يَبْر بوعده»^(١).

والأسئلة التي نودُّ الإجابة عنها: كيف بدأت علاقة الشهبندر بالملك؟ وكيف تطوّرت هذه العلاقة حتى أصبح وزيراً؟ وهل كان الشهبندر قادراً على ثني الملك عن رغبته في إعادة المجمع إلى سالف عهده؟ ولماذا لم يفِ الملك بوعده في إعادة المجمع؟ وهل أوعز فعلاً للحكومة بذلك؟

لا ريبَ في أن الشهبندر واحدٌ من أعلام سورية في مطلع القرن العشرين، وله جهوده الوطنية الكبيرة في تأجيج الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ م، وفي بيته أقسم بعضُ الزعماء من الدروز على الدفاع عن استقلال البلاد السورية، وله نشاط حزبي واسع قبل ذلك وبعده، حتى اغتالته الأيدي الشريرة سنة ١٩٤٠ م.

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٨٠.

وعلى الرغم ممّا كان بين الرجلين من المكايدة والمحاسدة والمنافسة، إلا أنّ محمّد كرد علي قال في تأبينه المهيب، الذي جرى في دمشق ونشرته جريدة (ألف ياء): «... لا جرم أنّ فقيد الأمة عمل للجماعة أكثر مما عمل لنفسه... للأدب ضحايا، وللعلم ضحايا، وللسياسة ضحايا، وحببيي الشهبندر، جمع في شخصه المحبوب الأدب والعلم والسياسة على أكمل وجه... التاريخ لا يكذب مهما دلّ فيه المدلون، والتاريخ سينصف الدكتور شهبندر، ويذكر غناؤه وبلاءه، موزوناً بميزان العدل والنصفة، وسيقولون إنّه أمةٌ بمفرده، وإنّه خيرٌ من نبغ في الأمة العربية السورية في هذا القرن، وإنّه أحدُ قلائلٍ ضحّوا بأنفسهم في مرضاة الوطن...»^(١).

يبدو أنّ أول لقاء تمّ بين الأمير فيصل والشهبندر، كان في صيف سنة ١٩١٥م بدمشق، عندما كثر الاتحاديون عن أنيابهم، وفرضوا سياسة التريك على بلاد الشام والعراق والحجاز، وكانت تلك المقابلة في بيت عطا باشا البكري، أحد كبار وجهاء الشام، وقد جاء هذا اللقاء في ظروف الإرهاب والتخويف، والأحكام العرفية التي أعلنها الاتحاد والترقي، يقول الشهبندر: «ودار الحديث بيننا حول القضية العربية، ومظالم الاتحاديين، والعلاج الشافي من تلك الأوصاب، وقد بدت لجميع من اختلوا به من العاملين روح الثورة على وجهه، ولكنّ الضغط يؤمّد كان يتطلب منتهى الحذر في المتكلمين والمستمعين؛ ولأنّ أقلّ بادرة تبدر من المرء تكفي لجرّه إلى المشنقة»^(٢).

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، وزاد ضغط الاتحاديين وبطشهم بالأحرار من العرب، شعر الشهبندر بأنّه مهدّد بالخطر الجسيم، ففرّ من الشام نحو العراق، ثمّ توجه إلى الهند، ثم إلى مصر التي كان فيها متابعاً لأخبار جرائم الاتحاديين في بلاد الشام، فقابل واحداً من كبار القوّاد العرب في الدولة العثمانية، وهو جعفر باشا العسكري، الذي كان يعالج في مستشفى المعادي، فزاره الشهبندر، وأطلععه على نسخة

(١) الحكيم، صفحة من حياة الشهبندر، ص ٢١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣.

من جريدة (الشرق) التي حوت أسماء الشهداء العرب في بيروت، فرأى العسكري اسم صديقه وزميله سليم الجزائري، وهو من كبار ضباط الأركان حرب في الجيش العثماني، فقال للشهبندر: «كفى يا دكتور، والله لأنتقمَنَ لدمه، ولدِم إخوانه، من هؤلاء الاتحاديين السّفاحين ما يروي الظمًا»^(١)، ثم التحق العسكري بجيش الثورة العربية سنة ١٩١٧م.

وعندما قامت الثورة العربية، توجّه عبد الرحمن الشهبندر، والشيخ كامل القصاب، وخالد الحكيم، والشيخ محمّد رشيد رضا إلى الحجاز؛ لزيارة الشريف الحسين بن علي، وزيارة الأمير فيصل، وأبدوا للحسين بعض الآراء والمقترحات والتوجيهات التي لم يأخذ بها، فرجعوا إلى مصر غير راضين عن موقفه.

وقام الشهبندر، والقصاب، والحكيم، ورفيق العظم، وحقي العظم، ومحّب الدّين الخطيب، وإسكندر عمون، وكلّهم من الساسة السوريين، عام ١٩١٨م بتقديم مذكرة لبريطانيا، «يطالبون منها توكيداً باحترام استقلال البلاد العربية، وإدارتها على أساس اللامركزية، ويذكّرونها بما للأمة والبلاد العربية من مركز مادي ومعنوي خطير...»^(٢).

وكان من نتيجة ذلك أنّ وزارة الخارجية البريطانية - بواسطة مكتب مخابراتها في القاهرة - سلّمت الشهبندر خطاباً مؤرّخاً بـ ١٦ حزيران ١٩١٨م، تعدّ فيه بمساعدة الشعوب العربية على نيل استقلالها، وقد عرّف هذا الخطاب باسم «العهد البريطاني للسوريين السبعة»^(٣)، علماً بأنّ هذا العهد البريطاني قد أعطي في الوقت الذي قطعت فيه بريطانيا عهودها ووعدتها للشريف حسين، باستقلال البلاد العربية وتحريرها، ومرّد الأمر إلى دهاء السياسة البريطانية ومكرها، ولعنها على كلّ الحبال، ومنح الوعود، وإيهام العرب وخذاعهم، وحالها كما قال الشاعر العربي:

(١) الحكيم، صفحة من حياة الشهبندر، ص ١٥ .

(٢) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٤٠٨ .

(٣) انظر: دروزة، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٨ .

وكانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ
ولا تمسكُ بالعهد الذي زعمت
إلا كما يمسك الماء الغرابيلُ

وبناءً على العهد البريطاني للسوريين السبعة، قاموا بتأسيس حزب الاتحاد السوري في القاهرة، ويهدف هذا الحزب إلى توحيد سوريا واستقلالها، على أن يكون الحكم فيها جمهورياً^(١)، ولعلَّ السبب في ذلك ما كان بين أعضاء الحزب، وبين الحسين بن علي وابنه الأمير فيصل، من خلاف عند زيارة بعضهم له في الحجاز - كما ذكرنا آنفاً-.

وتمَّ في أيام الحكومة العربية أو الفيصلية بدمشق ضمُّ عبد الرحمن الشهبندر، والشيخ رشيد رضا إلى جمعية العربية الفتاة، وهي الجمعية السرية الحاكمة فعلياً في الحكومة في العهد الفيصلي، وكبار رجال الدولة يُختارون من أعضائها، أو بناءً على ترشيح منها، وعلى الرغم من انضمام الشهبندر للعربية الفتاة، وأدائه قسم الإخلاص لها؛ إلاَّ أنه «ظلَّ غريباً عنها بروحه وقلبه، وشديد المعارضة والتجريح لها»^(٢).

وبدت معارضة الشهبندر للأمير فيصل قويةً ومباشرةً، في الحفلة التي أقامها النادي العربي بدمشق، في نهاية شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠م، بعد عودة الأمير من زيارته لأوروبا التي استغرقت أربعة أشهر، وكان الشهبندر من جملة الخطباء في حفل النادي، وبعدها ارتجل الأمير فيصل خطاباً شكر فيه النادي، واحتلَّ الرّدّ على الشهبندر جزءاً من خطاب الأمير فيصل، الذي بدا فيه الشهبندر مناكفاً بشدة لسياسة الحكومة، وناقداً عنيفاً لها، مما اضطرَّ الملك للردِّ عليه، وذكره بالاسم غير مرة، وطلب من الأمة الأعمال لا الأقوال، «كفانا خطاباً، كفانا أقوالاً، نحن في أيام العمل لا في أيام القول»^(٣).

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٠.

(٣) قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٦٦.

وممّا ردّ به الأمير على الشهبندر الذي قال: «إذا اعتمدت الأمة على الحكومة، يكون كذا وكذا»، فقال الأمير: «إنّ الحكومة هي تمثال الأمة... وهي حكومة مؤقتة... فالحكومة هي شخصي في هذه الحالة؛ لذلك لا يمكن لشخص، أو جماعة، أو لجنة من الأحزاب، أن تقول بعدم لياقة الحكومة... فأنا لا أسمح في ساعتنا هذه لشخص أو جماعة، أن يقول بأنّ الحكومة هي كذا وكذا...»^(١).

وعندما قام الشهبندر بإظهار سماعته الطبية للأمير، وقال: «إنّ من الشعب، يدخل بيوت الشعب، ويعرف أفكار الشعب بحسب مهنته»^(٢). كان ردّ الأمير عليه قوياً وغاضباً، ومؤدباً في الوقت نفسه، فقال: «وعندي أنّ أول عمل يجب أن يعمل له الدكتور، هو ترقية الفنّ المختصّ به، فإذا عمل كلُّ فردٍ ممّا بما يجب عليه، السياسي، والطبيب، والجندي، والصانع، تنتظم حركة الأمة بأجمعها...»^(٣). وهذا الرد على الشهبندر يؤكّد لنا صحة ما ذكر كرد علي عن علاقة الشهبندر بالأمير، الذي نصحه بأن يتفرّغ لمهنته، مما يفسر كثرة الدمشقيين المعجبين بجرأة الشهبندر، ومعارضته القوية للحكومة العربية، التي لم تستطع تحقيق طموحاتها، بالاستقلال الناجز والوحدة، وربما فسّر لنا أنّ بعضَ الدمشقيين لم يكونوا راضين عن ردّ الأمير على الشهبندر، بل عدّوه إساءة له، وكأنّ هذا الردّ بمنزلة صفعه له، وهو الزعيم القادر على تأليب الجماهير وحشدها والمطالبة بآمالها.

وعقب الأمير على قول الشهبندر في خطابه عن ذكره للأمة المصرية بأنّها «كانت مستعبدة، ولكنّها اليوم عاشت وقويت، وقامتُ تُناضل»^(٤)، فقال الأمير: «نحن في موقف حرج، يجب ألا نحتقر فيه الأمم؛ لأنّنا باحتقارنا لأحدها، نكون قد احتقرنا أنفسنا، أمامنّا دول كبار، وأمم عظام، يجب أن نحترم كلّ أمة، وكلّ حكومة، متى

(١) المصدر السابق، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٤) قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٦٨.

احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا»^(١).

واللافت للنظر أنَّ جُلَّ تعليقات الأمير وملاحظاته على خطباء حفلة النادي العربي، كانت منصبّة على خطاب الشهبندر، الذي بدا متطرفاً في خطابه السياسي، شديد الحملة على سياسة الحكومة، التي تعكس توجُّهات الأمير الذي كان في أخرج الأوقات، عندما اكتشف حجم المكائد والمؤامرات الدولية، والدسائس والخُدع التي حاكها الإنجليز بالتآمر مع الفرنسيين للعرب، ثم نفّض الإنجليز أيديهم من قضية العرب في أحلك الظروف وأصعبها، وتركوهم يقارعون فرنسا التي تريد فرض هيمنتها على سورية بقوة السلاح، بعد أن تقاسمت المصالح والمنافع والمناطق في أرض العرب مع إنجلترا.

وفي ضوء ما طرح الشهبندر في خطابه في النادي العربي، رأى فيه الأمير معارضاً قوياً وخطيراً لطموحاته، وأصبح الشهبندر في عهد فيصل «رمزاً للمعارضة، والتطرّف في المطالب والمواقف»^(٢). الأمر الذي أدّى إلى كره فيصل للشهبندر، يقول محمّد رشيد رضا إنَّ فيصلاً كان «يظنُّ أنّه عدو له، حتى إنّه قال لي يوماً: إنني لما عرفتُ شهبندر، احتقرت جميع أهل الشام»^(٣)، ممّا يدلُّ على كثرة أتباع الشهبندر وأنصاره الذين أطلق عليهم كرد اسم (الغاغة)^(٤).

وعُرفَ الشهبندر في العهد الفيصلي بأنّه من رموز المعارضة، وأصبحت له قاعدة واسعة من الأنصار والمعجبين؛ نتيجةً لتطرفه الذي يُرضى طموحات الناس، ولقدرته الخطابية على التأثير في الجماهير والمتظاهرين، ولماضيه الحزبي، لذلك رأت جمعية العربية الفتاة أن تسترضي الشهبندر^(٥)، وأن تشبع نهمه وحبّه للزعامة والبروز، وأن تزيل غضب فيصل على الشهبندر، علماً بأنَّ الملك كان بحاجة إلى أنصار أقوياء في تلك

(١) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٢) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ج ١، ص ٤١٠.

(٣) مجلة المنار، ١٣٠٠هـ/ ١٩٢٢م، المجلد ٢٣، ص ٣١٧.

(٤) كرد علي، المذكرات، ج ٣، ص ٧٩٢.

(٥) دروزة، مذكرات محمّد عزة دروزة، ط ١، ص ٤١٠.

المرحلة، فرسّحت العربية الفتاة الشهبندر وزيراً للخارجية في حكومة هاشم الأتاسي، التي خلفت حكومة الركابي في مطلع أيام عام ١٩٢٠م.

ويتضح أن تسلّم الشهبندر لمنصب وزير الخارجية في ذلك الحين، قد حقّق له بعض طموحه للزعامة، وأشبع حبه للقيادة والبروز، وكان الملك - بسبب الظروف الحرجة - راغباً في الرجوع إلى اتفاقته مع كليمنصو، وهي الاتفاقية التي لقيت معارضة من المؤتمر السوري وبقية الأحزاب التي كانت راغبة في مقاومة فرض الانتداب الفرنسي على سوريا، ولكن وافقت حكومة الأتاسي على الاتفاقية إلا الشهبندر ويوسف العظمة، فأعطى الملك الشهبندر صورةً عن اتفاقية (فيصل - كليمنصو) وقال: «أمعن يا دكتور النظر في دراسته، ثم باحث إخوانك بشأنه في مجلس الوزراء»^(١).

وعندما درس الشهبندر الاتفاقية، ورأى فيها بداية استقلال، أعلن أمام مجلس الوزراء أنه «عدل عن فكرته السابقة، ورجع عن خطة المقاومة، إلى الأخذ بهذه الاتفاقية»^(٢).

ويظهر أن قبول الشهبندر للاتفاقية قد غيّر الصورة السلبية للشهبندر عند الملك فيصل، الذي استطاع بحكمته، ودهائه السياسي، وطول نفسه في التعامل مع الخصوم، وصبره عليهم، أن يستأنس زعيماً عنيداً نافراً كالشهبندر، وأصبح موقفه قريباً من موقف الملك، وموقف الحكومة التي بقي وزيراً حريتها يوسف العظمة معارضاً ومصرّاً على خيار المقاومة للتهديد الفرنسي.

وقد أدّى تحوّل الشهبندر في موقفه السياسي من الملك والحكومة، إلى استجلاب رضا الملك عن الشهبندر، ولا غرو في ذلك بعد أن استقطب الملك رقماً سياسياً صعباً في حكومته، يقول محمّد رشيد رضا: «... وقد كان الملك فيصل راضياً كلّ

(١) الحكيم، سورية والعهد الفيصلي، ص ١٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٢.

الرضا عن وزارة الأتاسي، ولا سيما وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الذي كان يكرهه، ويظنّ أنّه عدو له»^(١).

وتأسيساً على تطوّر العلاقة بين الشهبندر والملك فيصل، التي كانت مبنيةً على الكره الشديد من الملك للشهبندر، وربما كان هذا الكره من جانب الشهبندر أيضاً، إلا أنّ هذه العلاقة وصلت إلى الرضا والانسجام، عندما حلّ الوئام محلّ الخصام، بعد أن أصبح الأخير وزيراً للخارجية، وتخلّى عن خطة المقاومة، وقبل اتفاقية فيصل - كليمنصو، ووافق على جُلِّ سياسات الحكومة^(٢)، ولكنته - وللأسف - ظلّ خصماً صلباً لمشروع إعادة المجمع.

فما هي العلل والأسباب التي جعلته يتمادى في رفض مشروع المجمع؟ وهل تجاهل الشهبندر وعدّ الملك للمجمع؟ هذا ما سنبيّنه في الفصل القادم.

(١) رضا: الرحلة السورية الثانية، مجلة المنار، ١٣١٥ هـ، المجلد ٢٣، ص ٣١٦-٣١٧.
(٢) انظر: الحكيم: سورية والعهد الفيصلي، ط ٢، دار النهار، بيروت، ١٩٨٤ م، ص ١٦٢.

الفصل السادس

المجمع العلمي العربي: أمل الوفاء بالوعد الملكي

وريادة كرد في تأسيسه

المبحث الأول: لماذا لم يَفِ الملك فيصل بوعدده بإعادة
استئناف العمل في المجمع؟

المبحث الثاني: اعتراف المجمعيين والأدباء والمفكرين بريادة
كرد علي في تأسيس أول مجمع لغويّ عربيّ وما تلاه من
المجامع العربية.

المبحث الثالث: أهمّ نتائج البحث.

المبحث الأول:

لماذا لم يَفِ الملك فيصل بوعدہ
بإعادة استئناف العمل في المجمع؟

يبدو لي أنّ الملك طلب من الحكومة إعادة المجمع إلى سابق عهده، لكنّ الحكومة لم تُنفذ طلب الملك، وبالتالي لم يفِ بما وعد، ولم يُستدرك الفارط للأسباب التالية: أولها- إنّ رئيس الوزراء هاشم الأتاسي كان ضعيفاً غير قادر على النهوض بأعباء المرحلة، كما أنّه لم يكن قادراً على ضبط إيقاع العمل في الحكومة، ولم يكن منسجماً أو قادراً على إدارة الوزراء، وضبط قراراتهم، وقد اعترف الأتاسي بضعفه لوفد أعضاء اللجنة المركزية للفتاة، فقال لهم: «أنتم تثقون بوطنيّتي، ولا تشكون منّي إلا الضعف عن النهوض بأعباء الحال الحاضرة»^(١).

ثانيها- كان الملك واقعاً تحت تأثير الأحزاب، ولم يعد قادراً على ردّ قراراتها، بل كانت قادرةً على إملاء إرادتها عليه، يقول رشيد رضا: «ولمّا علم حزب الاستقلال بإنذار الجنرال (غورو) للملك فيصل، اجتمعت اللجنة العامة له في الليلة ٢٧ من شوال (١٣ يوليو)، وانتخبت وفداً مؤلفاً من أعضاء اللجنة المركزية، وسبعة من غيرهم؛ لإبلاغ الملك فيصل وجوب تبديل الوزارة، فإن لم يُجب، يُكلّف هاشم بك أن يستقيل ويقنع الملك بأن يُكلّف ياسين باشا الهاشمي تأليف وزارة دفاعية.

وكان كاتب هذا (محمّد رشيد رضا) رئيساً لتلك الجلسة ثم للوفد، فلما بلغنا الملك ذلك، أجب جواباً جافاً، خلاصته: أنّه لا يعمل برأي جمعية، ولا حزب، ولا مؤتمر، وأجبتة جواباً أشدّ من جوابه، وأجفّ وأجفى، ولا حاجة الآن إلى تفصيل ذلك، ثم كلفت رئيس الوزراء الاستقالة باسم الوطن، واسم الإخوان، فأجاب بالقبول»^(٢).

(١) المنار، ١٣٠٠هـ/ ١٩٢٢م، المجلد ٢٣، ص ٣١٦.

(٢) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص ٣١٦.

ثالثها- يبدو أنّ الأحزاب كانت متدمرةً من نفوذ الملك في الوزارات، وكانت تطالب «بترك الملك التدخل في أعمال الوزارة بنفوذه الشخصي»^(١)، ولهذا فإنّ الملك كان شبه محجوب عن التدخل في أعمال الوزراء في تلك الفترة، ولذا فإنّه لم يتدخل بقوة لصالح المجمع.

رابعها- تميّزت شخصية الشهبندر بقوة التأثير، والقدرة على شقشقة الكلام وتفتيقه، ولديه من الحجج القوية التي تمكّنه من إقناع الملك ومجلس الوزراء، بعدم ضرورة استئناف عمل المجمع، وأنّه لم يقدّم للأمة شيئاً، وأنّه يحتاج إلى نفقات كبيرة تحتاجها الدولة في ظروف الطوارئ التي تعيشها البلاد آنذاك، ولم يكن الملك قادراً على فرض إرادته على مجلس الوزراء، وبخاصة بعد أن كثر تدمرُ الأحزاب من التدخل الشخصي للملك في صلاحيات الوزراء كما سبق.

خامسها- إنّ ساطعاً وزير المعارف لم يكن مؤيداً لبقاء المجمع، وهو صاحب القول الفصل في أمر إعادة العمل للمجمع، ولم يكن راضياً عن مشروع إحياء المجمع، بل إنّ كان راغباً في اجتثاث أعمال المجمع من جذورها، وقد يتجلّى ذلك في إنشاء ساطع لديوان الترجمة والتأليف، ولجنة الاصطلاحات العلمية، في الوقت ذاته الذي عُرض فيه أمر إعادة المجمع على مجلس الوزراء، علماً بأنّ لجنة الاصطلاحات العلمية هي لجنة مستنسخة عن لجان المجمع، وتقوم بما كان يقوم به المجمع قبل وقف أعماله، كما بيّنا ذلك فيما سبق.

وعلاوةً على ذلك، فإنّ ساطعاً كان مقرباً جداً من الملك فيصل، الذي كان مهتماً برفع شؤون التعليم، وترقيته في بلاده، وكان يعتقد أنّ ساطعاً أكفأ الرجال وأصلحهم لقيادة النهضة التعليمية، يقول ظبيان في غضون حديثه عن الملك فيصل: «كان يعتقد... أن لا حياة للأمة إلا برفع مستواها التعليمي والثقافي، وهو من أجل ذلك اعتمد على

(١) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص ٣١٦.

نخبة صالحه من رجال التربية والتعليم في العالم العربي، وعلى رأسهم الأستاذ ساطع الحصري^(١).

وسادسها- يبدو أنّ صراعاً قوياً كان مشتعلًا بين حكومة الأتاسي - على ضعفها - وبين الملك، وظهر ذلك جلياً حين طلب الملك من الحكومة إرسال تجريدة أو حملة من الجيش السوري لقتال النجديين إلى جانب والده الحسين بن علي في الحجاز، وهدّد الملك بأنّه سيذهب بنفسه نصرّة لوالده، سواء أساعدته الحكومة أم لم تساعده، ولكنّ ردّ الحكومة كان مُخيباً لآمال الملك، وكان قرارها: «بأنّه لا سبيل إلى إرسال حملة من جند الحكومة، ولا إنفاق شيء من مالها في هذه السبيل، وإنّما يمكن جمع حملة متطوّعة بمال الحجاز»^(٢).

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّه يمكن القول: إنّ الملك كان في أضعف حالاته، وكان مهدّداً من عدو خارجي، يحشد جيوشاً جرّارة لاحتلال دولته، ويظهر أنّ الفرنسيين كانوا مطّلعين على حالة الانحدار والاختلاف في الحكومة العربية، ولذا فإنّ غورو أخبر الحكومة الفرنسية، بأنّ سلطة فيصل بدأت تتضاءل شيئاً فشيئاً^(٣).

وكان الملك يواجه تحدياتٍ داخليةً كبيرةً من داخل مجلس الوزراء، ومن جمعية العربية الفتاة، ومن حزب الاستقلال، فتقلّصت لذلك صلاحياته، وتقيّدت إمكانية إنفاذ رغباته إلى أبعد الحدود، ولم يُعدّ قادراً - وقد عدم النصير - على التأثير على حكومة الهاشمي؛ لإعادة المجمع إلى سابق عهده، واستئناف أعماله ويكون بذلك قد خسر منقبة إعادة المجمع إلى سابق عهده، بعد أن حيكت حوله الدسائس، ونُشرت عنه الإشاعات الباطلة، ووقفت في وجهه الأحزابُ النافذةُ أمرها في الدولة، التي فشلت

(١) ظبيان، محمّد تيسير (١٩٠٤-١٩٧٨م)، مختارات من أعماله المطبوعة والمخطوطة. إعداد وتحرير: أسامة يوسف شهاب، ط ١، اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية، الأردن، ٢٠٠٢م، ص ٨١.

(٢) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص ٣١٤-٣١٥.

(٣) انظر: كوثراني، وجيه: بلاد الشام في مطلع القرن العشرين، ص ٢٢٥.

في سلك رئيسته كرد في عداد جنودها وأشياعها، ولم يُلبَّ طلباتها؛ لأنَّ الرجل كان مستقل الرأي، لا تأخذه العواطف، ولا يُخدع بسحر الدعايات، ولا يُخلب بالأعيب الساسة الراقصين على كلِّ الحبال، والعاملين لتحقيق رغباتهم وأطماعهم السياسية والاقتصادية بأيِّ وسيلةٍ ممكنة، ولكنهم سكتوا عن الأموال التي تُبذر يَمَنَةً ويسرَّةً، وتُنفق على الأعطيات والدعايات، وإقامة الحفلات والمهرجانات، ورأوا ما ينفقه المجمع على شراء المخطوطات والآثار، وترميم مقرّه، تذييراً وإسرافاً، وتبديداً وإنفاقاً لأموال الدولة.

ومما يُؤسَفُ عليه، أنّ الملك فيصل لم يتمكّن من إعادة المجمع للعمل؛ لظروف كثيرة، وأسباب متعددة، بيّناها فيما مضى، وبقي الأمر على ذلك، حتى أخرج الملك ورجال دولته - من دار ملكه دمشق عاصمة الفتوح وقلب العروبة - الجنرال غورو قائد جيوش فرنسا في الشرق، واستقبله المنافقون من الإقطاعيين والتجار والوجهاء استقبال الفاتحين، ثم أصبح العدو المحتل الغاشم مؤيداً وداعماً لإعادة المجمع للعمل، بعد ذلك ببضعة أشهر، وهو أمر يُعدُّ من مهازل القدر، وغرائب الزمان.

والأمة، وإن نسيت، فإنّها لا تنسى، أنّ المجمع العلمي العربي بدمشق من إنجازات العهد الفيصلي الذي عمّر أقل من سنتين، لكن الأعمال الصالحة تبقى وتدوم، ويخلد ذكرها على مرّ الدهر، ونحن اليوم بعد قرن من الزمان، نتذكّر إنجازات الرجال المخلصين، الذين أصبحت دمشق موثلاً ومقرّاً لهم، فاجتمع العراقي، والسوري، واللبناني، والفلسطيني، والأردني، والحجازي، والمصري، تحت راية العهد الفيصلي، وكلّهم أملٌ في استقلال الأمة ونهضتها، وتعريب علوم العصر، ونقلها إلى لغتهم الخالدة، ووضع ألفاظ عربية للمصطلحات العلمية الحديثة التي لم تعرفها لغتهم، ونجحت دولتهم العربية بسرعة عجيبة في إعادة تعريب الكتابة في دواوين الحكومة ومؤسساتها المختلفة، وكان للمجمع العلمي العربي اليد الطولى في ذلك، وواصل

رجالهُ الغُرُّ الميامين العمل، وكان يحدوهم الأمل في قرب النهضة العلمية، واللغوية، والتراثية، التي يُعدُّ المجمعُ ركنها الركين، ودرعها الحصين.

فهذا المجمع العظيم الذي أُسس في عهد الملك فيصل أصبح أباً لكلّ المجمع العربية، تقدّمها في ميلاده، وسبقها في إنجازاته وأعماله، وأصبحت قوانينه ونظمه أساساً لكلّ المجمع العربية، التي تكاثرت على مرّ السنين حتى نيفت على عشرين مجمعاً في وقتنا الحاضر. يقول الأديب الصحفي تيسير ظبيان متحدثاً عن الملك فيصل: «ويجب ألا يفوتنا أنّ المجمع العلمي العربي، الذي تُفاخر به دمشق جميع الأقطار الناطقة بالضاد، والجامعة السورية، هما من غرس يديه أيام ملكه السعيد، في البلاد السورية»^(١).

وبقي مجمع دمشق كما يقول صالح بلعيد: «المجمع الوحيد الذي لم يتراجع في مبادئه بمواصلة سيرورة التعريب، حتى أصبحت العربية في كلّ مكان ومؤسسة وبيت، فنجح في تجربته أحسن نجاح»^(٢).

(١) انظر: ظبيان، مختارات من أعماله المطبوعة المخطوطة، ص ٨٣.

(٢) بلعيد، صالح: «دور مجامع اللغة العربية في تيسير العربية»، مجمع اللغة العربية بدمشق، المؤتمر السنوي الثاني (اللغة العربية في مواجهة المخاطر)، عقد بمقر المجمع بدمشق، في: ٢٤-٢٧ شعبان، الموافق: ٢٠-٢٣ أكتوبر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١.

المبحث الثاني

اعتراف المجمعيين والأدباء والمفكرين

بريادة كرد علي في تأسيس

أول مجمع علمي عربي

أمّا محمّد كرد علي الملقّب بين المجمعين بـ(الأستاذ الرئيس)، فإنّه هو الذي فكّر في إنشاء المجمع، وهو الذي وضع له الخطط، وعيّن له الأهداف والمشاريع، وهو الذي اختار الأكفيا من أعلام عصره في اللغة والأدب، والفكر والترجمة وسعة الاطلاع، والقدرة على البحث والتأليف، في عهد الحكومة العربية، وتلقّى راية مجد المجمع بيمينه، وأعلاها على كلّ الرايات، ولم يسمح بسقوطها، حتى بعد أن تكالب عليه الخصوم، وحسده الأعداء ممّن لم ينالوا سعيه، وتصدّى له الأرياء ممّن غاظتهم النجاحات السريعة للمجمع، ورأوا مشاعل نوره تُحمل إلى كلّ أرجاء المعمورة، وأصبحت دمشق محطّ أنظار الأدباء والمفكرين والمستشرقين، وعلماء المجامع في الشرق والغرب.

نعم، لم يسمح الأستاذ الرئيس بسقوط راية العربية، ولم يقبل بالوقوف في طريق نهوضها، وبقي مدافعاً عنيداً عنها بعد فضّ المجمع، ووقف أعمال لجانه، وقاسى من تأمر الحساد في ذلك ما قاسى، وعانى من كيد الرجال ما عانى، وبقي داعيةً للمجمع، وواجه كيد الأحزاب وحقدّها، واتّصل برجال الحكومة ووزراتها ومليكيها، ودخل العمل الحزبي بحثاً عن ظهير ونصير وقوة تدعم المجمع، ولكنّ قوى الشدّ العكسيّ تصبح أقوى من قوة الدفع الداخلي، ومن حول الرجل وطوله، بل أقوى من الذين استعان بهم، كالملك، والحاكم العسكري الركابي وغيرهم.

وبقي المجمع مُعطّلاً حتى زال الحكم الفيصلي، بعد أن أدّى كرد ما عليه من واجب بقاء راية لغة الأمة مرفوعة، وبذل قصارى جهده في ذود الأعداء عن حوضه بكلّ ثبات وعناد، ومضاء عزيمة، وللأسف فإنّ أعداء المجمع الذين كادوا له، وعملوا على إبطاله وهدمه، كانوا من أبناء هذه الأمة، ومن دعاة النزعة القومية فيها، ولكنّ

الشعارات والدعايات، والأقوال والصَّيِّحات، لا تدلُّ على حقيقة أصحابها، إلا إذا اقترنت بالأعمال والأفعال، والصدق والإخلاص، علماً بأنَّ بعضَ دعايتها الذين ناصبوا المجمع العداء، كانوا عجمًا بحاجة إلى تعريب، وما بدأوا بتعلم العربية إلا بعد أن تجاوزوا الأربعين سنة من أعمارهم كما مرَّ بنا.

لقد تجلَّت البطولة عند كرد علي في أرفع صورها في دفاعه المستميت عن المجمع، بما عُرفَ به الرجل من العناد، والثبات على الحقِّ، والتضحية من أجله، وأيُّ حقٍّ أكبر من حقِّ أول مجمع لغوي للعربية في البقاء في خدمة لغة القرآن، ولسان أمة عظيمة، حملت نور الهداية ومشاعل العلم والمعرفة، للإنسانية في عصور الجهل والظلام.

يقول تلميذه محمَّد تيسير ظبيان واصفًا شيخه كرد علي، وما له من المهابة والتوقير في مجالسه: «... وكنتُ أشعرُ وأنا في مجلسه، بأنني حيال بطل عملاق: قوي الشكيمة، حادَّ النظرات، متَّقد الذكاء، واسع الاطلاع، طُلُق المحيا واللسان، حاضر الذهن، سريع البديهة»^(١).

والقارئ المنصف لسيرة الرجل التي خلَّدها في مذكراته، وبثَّها في ثنايا كتبه ورحلاته، ومقالاته ودراساته، لا يسعه إلا الإجلال لهذا الرجل العبقرى، الذي صبر على أذى خصومه وكيدهم، وحرَّبهم الإعلامية، واتهاماتهم الرسمية له في عمله، ولكنَّه بقي المدافع القوي الشكيمة، الشديد البأس دفاعاً عن المجمع، في وجه الحكومات المسيرة بمصالح الأحزاب، ومنافع أعضائها الذين رأوا في كرد عدواً لهم؛ لأنَّه لم يخضع لرغباتهم وأهوائهم، وبقي حُرّاً مستقلاً برأيه وفكره، فالرجلُ صلبُ المَكْسِرِ، لا يقعقع له بشنان، يقول معبراً عن تلك النوازل والأحوال: «لقيتُ الألاقي من الحكومات السورية في سبيل هذا المجمع العلمي، كأنَّه بعضُ مُلكي، وكان الأردباء الحسدة، يعرفون حرصي عليه، فيضربونه ليضربوني»^(٢).

(١) ظبيان، محمَّد تيسير: «ذكريات وانطباعات عن كرد علي» ضمن كتاب: محمَّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٢١٢.
(٢) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٨٤.

وبناءً على ما تمّ عرضه، من جهود الرجل المخلصة، وجهاده العظيم في تأسيس المجمع، وإقامة هيكله، وتدعيم كيانه على أمتن الأسس، وأقوى القواعد، وأسمى الأهداف التي تخدم الأمة لغةً وحضارةً، وأدباً وتاريخاً، وتراثاً وآثاراً، فإنّ كرداً لم يقف بالمجمع عند القديم، بل جمع إلى ذلك معطيات العصر ومناهجه في البحث والعمل، وسعى بكلّ قواه إلى اطلاع المجمع العلمية في العالم، على الدور العظيم لأمة العرب في الحضارة الإنسانية، وعلى قدرة لغتهم على أداء دورها في نقل علوم العصر ومعارفه ومصطلحاته، كما اضطلعت بذلك قديماً، فإنّها قادرة على النهوض به حديثاً، مراعيةً بذلك روح العصر، وأذواق الناس ومعطيات زمانهم، دون الإخلال بينيتها الأساسية نحواً وصرفاً، وصوتاً ودلالة.

وقد هبّ مجمع اللغة العربية بدمشق في منتصف سبعينيات القرن الماضي لتكريم كرد علي، والاحتفاء بذكرى مرور مئة سنة على ميلاد مؤسسه وبانيه، وراعيه الأمين وحاميه، وتداعى المجمعيون، والمفكرون، والأدباء من كلّ أرجاء الوطن العربيّ للمشاركة في مهرجان كُرس تخليداً لذكرى أبي المجمع العربية، وقدموا أوراقاً علمية أضواء كثيرةً من جهوده وأعماله، في خدمة المجمع والعربية، والحضارة والتاريخ والأدب.

وكان حسني سبح الرئيس الأسبق لمجمع دمشق من الخطباء في ذلك الحفل المهيب، فقال: «رحم الله الأستاذ الرئيس محمّد كرد علي، وأحسن إليه بقدر ما أحسن إلى لغة القرآن، وما زاد بقلمه عن حوض الإسلام، وردّ تخرص المتخرّصين عليه وافتراعات المفترين، وإنّه ليحزن النفس حقاً، ألا يكافأ هذا العبقري في حياته؛ لأنّ المعاصرة أبت إلا أن تكون حرماناً»^(١).

(١) سبح، حسني: «خطاب حسني سبح» ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٦.

وذكر سبّح أنّ المجمع قد سعى قبل الذكرى المئوية لميلاد كرد (١٩٧٦م) بربع قرن، لإنصاف مؤسس المجمع، والوفاء له، وتكللت مساعي المجمع لدى المسؤولين في الدولة السورية بالنجاح، إذ استجابت الدولة لمساعي لمجمع، وأطلقت اسمه على أحد شوارع دمشق، وأصدرت طابعاً بريدياً باسمه، وأطلق اسمه على إحدى المدارس الثانوية بدمشق، وعُدَّ من أعلام سوريا الذين يدرسون لطلاب المدارس الثانوية^(١). ولا غرو في ذلك، فكرد يستحقّ كلّ هذا وفوقه؛ لأنّه من آباء التعليم في بلاد الشام، وقدمّ لدمشق قلادةً خالدةً تطوّق جيدها، ألا وهي مجمعها العظيم، الذي أصرَّ الرجل على بقائه في أحلك الظروف التي قلَّ فيها الناصر والمعين، وكثر الخراسون والنهّازون، وعلا صوت أدعياء الوطنية.

ومما قاله محمّد علي هاشم وزير التعليم العالي الأسبق في سوريا - وكلامه يُعبّر عن رأي الدولة الرسمي - : «لقد تعودّ الذين يترجمون لكرد علي، أن يتحدثوا عن المجلات التي أصدرها، والكتب التي حقّقها أو ألفها، وفي اعتقادنا أنّ العمل الأكبر، والإنجاز الأفضل، الذي صنعه كرد علي، إنّما هو مجمع اللغة العربية. إنّّه حين دعا إليه، ونهض به، وجمع العلماء فيه، وأرسى تقاليده، وربط ما بينه وبين العلماء في الأقطار العربية المختلفة، وربط ما بينه وبين المستشرقين في الدول الأجنبية، كان ينظر إلى بعيد، كان ينظر إلى عملٍ أجلّ، تتضافر فيه جهود العرب كلّ العرب، على خدمة العربية وعلومها، فبفضل كرد علي شهدت أرض العرب، وفي دمشق مولد أول مجمع عربي سنة ١٩٢٠م»^(٢).

قلتُ: صحيح إنّ تأسيس كرد لمجمع اللغة العربية الدمشقي هو الإنجاز الأكبر لكرد، بل هو أجلّ إنجازاته وأرفعها طراً، ولكنّ عمل كرد في الصحافة، وإصداره مجلة (المقتبس) الأدبية العلمية، كان الميدان الأكبر الذي مارس فيه كرد صولاته وجولاته، ومناوراته وتدريباته في المقالة العلمية، والمقالة الأدبية، وفي تحقيق التراث،

(١) انظر: سبّح، خطاب حسني سبّح، مرجع سابق، ص ٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧-٨.

وفي الترجمة عن الفرنسية والتركية، وبه توثقت صلته بأدباء مصر وعلمائها، وعرف كبار المستشرقين وراسلهم، واطلع على آرائهم، وكتب في مجلاتهم، وأدرك دور الصحافة في الحياة اللغوية التي تحتاج إلى نهضة في أساليبها، وفي مصطلحاتها؛ لتلائم روح العصر ونهضته العلمية والأدبية.

وفوق ذلك، فإنّ قول هاشم بأنّ ميلاد المجمع الدمشقي كان في سنة ١٩٢٠م لا يصحّ، وقيام المجمع كان عام ١٩١٩م، وفي عام ١٩٢٠م كان المجمع معطلاً، وكان كرد يخوض معركة بقاء المجمع، ويقا تل بضر اوة عن قلعة العربية الحصينة، التي أبت شجاعته الأدبية سقوطها واندثارها، إلى أنّ تكلّلت هذه الجهود المخلصة بإرجاع المجمع للعمل، بعد الانتداب الفرنسي في نهاية سنة ١٩٢٠م.

وممّا قاله محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في الذكرى المئوية لميلاد كرد، إنّّه ظفر: «بشرف المشاركة في هذه المناسبة القومية الغالية، مناسبة الاحتفال بالذكرى المئة لمولد رجل جليل من رواد اليقظة العربية، الرئيس الأستاذ محمّد كرد علي، مؤسس المجمع وقائده، والذي كانت حياته العريضة والخصبة، ملحمة فكرية ونضالية رائعة...»^(١).

نعم إنّ كرد علي قد خاض حرباً ضرورياً ضد أعداء المجمع الذين حاولوا إطفاء شعلته، وقتله قبل أن يتمّ نصف عام من عمره، وكشف عن حقيقة أخصام المجمع، ودوافعهم لمعارضته، ولم يسكت على ضيم المجمع، وأقضى مضاجعهم حزبياً وسياسياً، ولو أراد الرجل المنصب والمال، لتزلف وناق، ودخل في الأحزاب السريّة منها والعلنيّة، ونال فوق مبتغاه؛ لأنّ قدراته ومعارفه وعلومه أوسع مما لديهم، ولأنّ خبرته بالأمم والشعوب أكبر من خبرتهم، وهو أطولُ منهم باعاً وذراعاً، ويفوقهم زكاةً وذكاءً.

(١) صابر، محيي الدين: «خطاب محيي الدين صابر»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص ١٠.

وفوق ذلك، فهو في مكان مكين من لغة العرب وأدبهم، وتاريخ الإسلام وحضارته، ويجمع الثقافتين العربية والغربية التي سعى إليها، وتعلم منها، ودرسها على واقعها وفي أرضها، وفي مجامعها وجامعاتها، وقرأ كتب كبار مفكريها باللغة الفرنسية أو مترجماً إلى اللغة التركية.

ومن أهم الشخصيات المجمعية التي شاركت في مهرجان كرد، إبراهيم مذكور رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة، وهو المجمع الذي انطلق بعد مجمع دمشق بثلاثة عشر عاماً، وكان كرد من أوائل أعضائه، ومن كبار رجاله الذين خاضوا المعارك القلمية والفكرية - ضد أصحاب المشاريع الهدامة والخطيرة على لغة العرب - في جلسات مجمع القاهرة ومؤتمراته، وكان مدافعاً عنيداً ضد كل بدعة ضالّة، أو دعوة مشبوهة - كتغيير الخطّ العربيّ، أو الدعوة إلى العامية، وغيرها من الدعوات الهدامة لعمود اللغة وكيانها - التي حاول ذوو النفوذ والجاه، والحوّل والطول، والقوة والسلطة، تزيينها في مجمع القاهرة.

وبقي صوت كرد مدويّاً كالرعد القاصف في مجمع العرب في القاهرة، بينما سكت كثيرون أو جنبوا، أو جمجموا وجاملوا أولي المناصب والنفوذ، وتركوهم يدمرون العربية في قلعتها، ويتناولون عليها بباطلهم في عُقر دارها، علماً بأنّ هذه الدعوات مما أوحى به المستعمر الإنجليزي، وعمل على إنجازه على مدى نصف قرن بمصر، ولكنّ زبدتهم ذهب جفاء، ودعواتهم باءت بالهزيمة النكراء، وعادت عليهم عاراً وشناراً يلاحقهم أبد الدهر.

ويشير مذكور إلى (مجمع البكري) الذي أنشئ في القاهرة سنة ١٨٩٢م، ولكنه لم يدم طويلاً، ولكنّ فكرة هذا المجمع لم تمت، وبقيت حيّة نشيطة في العقد الأول من هذا القرن: «ولعلّ هذا كان إرهاباً في العقد الثاني (لمجمع دار الكتب) في القاهرة، وللمجمع العلمي العربي بدمشق، وقد عاصر كرد علي هذا كلّ، وعاش فيه، ولم يكن

غريباً أن يُختار أول رئيس لمجمع دمشق، الذي ناضل طويلاً في سبيل دعمه، وعمل جاهداً على نشر آثاره.

وكان على صلة بالملك فؤاد الأول، الذي تبني فكرة إنشاء مجمع لغوي رسمي، يحقق ما هدفت إليه المجمع الأهلية التي أشرنا إليها، وفي لقاء بينهما عام ١٩٢٦م، شاء الملك أن يفيد من تجربة دمشق السابقة، فقدّم له كرد صورة صادقة، ويمكن أن يُعدّ بهذا ممّن مهّدوا لمجمع القاهرة^(١).

وفوق ذلك، فإنّ ملك مصر كان يستعينُ بخبرة كرد علي؛ لدفع مجمع القاهرة إلى الأمام، والعمل على تسريع وتيرة عمله، وتعزيزه نشاطاً وقوة. يقول كرد: «قال لي جلالة ملك مصر، إنّ المجمع العلمي العربي أهدها مطبوعاته، فقرأها، ورأى طبعها المشرق، والتعليقات المفيدة على الكتب القديمة، فمجمعكم يعمل خلافاً لمجمعنا، فأجبتّه: إنّ المجمع المصري يعمل أيضاً، ولكنه قصّر في نشر أعماله في مجلته، وتفضل كما جرى منه في أعوام سلفت، وأرسل إليّ أحد خاصّته لتفاوض فيما يُحفّز مجمع فؤاد الأول إلى العمل»^(٢).

ويذكر مذكور أنّ كرد علي كان حريصاً على نجاح مجمع فؤاد الأول، فنقل إليه تجاربه الواسعة، وخبراته الثرة في مجمع دمشق، وكان حريصاً على حضور مؤتمره السنوي، الذي يستغرق شهراً ونصف الشهر، ودعا مجمع فؤاد إلى نشر مقرّراته على المثقفين، وإلى «ضرورة الإجابة عن سؤال السائلين، واستفتاء المستفتين»^(٣).

وممّن حضر ذلك المهرجان، عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي، فقال: «وإذا جاءت الشام في مقدمة الأقطار العربية الرائدة لهذه النهضة، فإنّ المُحتفى به يجيء في طليعة الريادة في هذا القطر... العالم المنظور أن أنشأ مجمعاً

(١) مذكور، إبراهيم: «خطاب إبراهيم مذكور»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ١٥-١٦.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٣) مذكور، «خطاب إبراهيم مذكور»، ص ١٨.

لغويًا ورأسه، وغير المنظور أن كان كل شيء في المجمع، أو بدا وكأنه كل شيء في المجمع... أبا المجمع، نمّ قير العين، بما خلد لك من ذكر، وما كتب لك من صالح عمل، واهناً فإن جملة ما أسست وشيدت قائم يتسامى مع الأيام...»^(١).

قلت: إن كرد علي يأتي في طليعة الرواد في الأدب والصحافة واللغة، ليس في بلاد الشام فحسب، بل في الوطن العربي، فهو مؤسس أول مجمع لغوي رسمي في البلاد العربية، وهو أول من أصدر صحيفة في دمشق اسمها (الشام)، وهو أول من أصدر جريدة يومية في دمشق هي (المقتبس)، وهو أول من أصدر مجلة أدبية علمية في دمشق وهي (المقتبس الأدبي والعلمي)، علماً بأنه أسسها في مصر.

أمّا قول رئيس المجمع العلمي العراقي في حديثه عن كرد بأنه «كل شيء في المجمع»، فإنّ هذا الرأي فيه نظر - على الرغم من جلال عمل كرد - لأنّ الأعمال العلمية الكبيرة، لا تقوم بعمل شخص واحد، مهما بلغ من النبوغ والألمعية، بل تحتاج إلى تضافر جهود العلماء المخلصين في عملهم، ولذا فإنّ كرد علي قد ضمّ إلى المجمع خيرة علماء الشام والبلاد العربية، وأعلام المستشرقين ممّن أفادوا المجمع بعلمهم وآرائهم، وشدّوا أزره، ودعموا أهدافه.

وكرد يعترف في مذكراته بفضل العلماء الذي آزروا المجمع، وبزملائه الذين تفاعلوا وأخلصوا في خدمته، ولذا فإنّه وقف سدّاً منيعاً في وجه كلّ من حاول التسلّل إلى حمى المجمع طلباً للشهرة، وهو غير أهل لذلك، أورد عبد الكريم خليفة - رحمه الله - ما نصّه: «سئل الأستاذ الرئيس، في يوم من الأيام، عن أسباب نجاح مجمع دمشق، فأجاب إجابة عامة بقوله: لأنّ أعضاءه أخلصوا في خدمته منذ وُضع أساسه»^(٢).

(١) محيي الدين، عبد الرزاق: «خطاب عبدالرزاق محيي الدين»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص ٢٣-٢٥.

(٢) خليفة، عبدالكريم: «خطاب عبد الكريم خليفة»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص ٢٩.

ومما قاله عبد الكريم خليفة الرئيس الأسبق لمجمع اللغة العربية الأردني، الذي رأسه منذ تأسيسه مدة ست وثلاثين سنة، وهو من أشد المعجبين بكرد وجهوده في خدمة المجامع العربية، ورأى في أعماله تجسيدا لـ «مفهوم العروبة الحقّة، إنّه المفهوم الإنساني الأصيل للعروبة المشرقة بجذورها الإسلامية العميقة... هذه هي الركائز الأصلية التي ألمسها في شخصية عَلَم من أعلامنا المكافحين، في سبيل توطيد دعائم العروبة والإسلام»^(١).

وأُشيد علامة العراق محمّد بهجة الأثري قصيدةً في ذكرى كرد، قدّم لها بقوله: «... تكريم ذكرى ميلاد قائد النهضة العلمية، في هذا الوطن العربي الأصيل، العالم المجدّد، والمفكر المصلح، والكاتب العبقرى، صديقي الأمل، الأستاذ الرئيس محمّد كرد علي، مؤسس أول مجمع علمي في بلاد العرب...»^(٢).

ومما جاء في قصيدة الأثري التي بلغت مئة بيت، وهي عدد سنوات حياة كرد علي:

أُمشيد الصَّرح العظيم تمرَّدتْ

شُرُفاته: وتوطَّت إرساء

«النَّاطحات السُّحب» تقصُر دونه

قَنَّاء وَيَشْمُخُ فوقهنَّ سماء

و «جنانُ بابل» تستظلُّ بظله

متقاصراتٍ دونَه استحيااء

أعليتَ في الوادي المبارك عرشه

وجعلتَ ثمَّ دعامه العلماء

(١) خليفة، عبد الكريم: «خطاب عبد الكريم خليفة»، المرجع السابق، ص ٢٧.
(٢) الأثري، محمّد بهجة: «خطاب محمّد بهجة»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٣٤.

والعلمَ والفكرَ الشواقِبَ كالضُّحى

رُوحاً له، وشِعَارُهُنَّ رِداءِ

أويتهنَّ إليه فاستذرتْ به

وإليه لاذَ بيأُنْهَا وَأفَاءِ

أُمُّ اللغات.. قوائِمُهَا وبلاغُهَا

وكفى بها شرفاً له وعلاءِ

يا (مجمع الفصحى) الحبيبَ زها بها

وزهتْ به، وتقدَّستْ أسماءُ (١)

وكان محمّد الفاسي الرئيس الأسبق لجامعة محمّد الخامس في المغرب، من المشاركين في مهرجان مرور مئة عام على ميلاد كرد علي، فقال: «وفضلاً محمّد كرد علي في تأسيس أول مجمع في العالم العربي فضلٌ كبيرٌ؛ لأنّه إذا كانت المجمع الأولى في العالم الأوروبي وليدة اهتمام الملوك، ورجال الدولة، فإنّ المجمع الذي أسسه - رحمه الله - وليدة فكرة رجل واحد، لا ملك ولا زعيم، وإنّما عالم مفكّر رائد» (٢).

قلت: إنّ ما ذكره الأستاذ الفاسي أعلاه، هو في غاية الدقة والإنصاف، فالحكومة العربية بدمشق آنذاك لم تفكّر، ولم تخطّط، ولم تطرح مشروع تأسيس المجمع - وإن كان لها الفضل العظيم في تأسيس المجمع، وانتهاج ملكها فيصل سياسة التعريب - وقد جاءت هذه المبادرة الخلاقة والفكرة العبقريّة النيرة الواعية من كرد نفسه، عندما جيء بساطع الحصري، وهو أعجمي بحاجة إلى تعلم العربية، وعُيّن مديراً للمعارف، فلزم كرد - الذي كان رئيساً لمجلس المعارف - بيته احتجاجاً على ذلك، لكنّ الحاكم

(١) الأثري، محمّد بهجة: «خطاب محمّد بهجة»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٣٤.

(٢) الفاسي، محمّد: «خطاب محمّد الفاسي»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٦١.

العسكري علي رضا الركابي وهو رجل عروبي، فرض التعريب في دواوين الدولة بالقوة، وكان أمره صارماً في ذلك، وأصرَّ على بقاء كرد في خدمة الدولة، وألحَّ عليه في ذلك، فقال له كرد: «إذا كنتَ تحرص على بقائي في الحكومة، فأنا أرضى على أن ينقلب هذا المجلس برئيسه وأعضائه مجتمعاً علمياً، مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة، فقبل وصادر المرسوم بذلك»^(١).

فتأسسَ المجمع كان إرضاءً من الحاكم العسكري الركابي لكرد، الذي اقترح قلب مجلس المعارف إلى مجمع، وهذا يعني ما ذهب إليه عدنان الخطيب: «وفي سنة ١٩١٩م كلّف محمّد كرد علي بتأسيس مجمع، يتولّى حماية العربية والنهوض بها، فرحّب بهذا التكليف، وتمَّ انتخابه من قبل الذين اختيروا للعمل معه رئيساً للمجمع العلمي العربي»^(٢).

ويشير الفاسي إلى قضية التعليم باللغة العربية، وأثر كرد في ذلك، يقول: «ليس من باب الصدف، أن تكون سوريا هي البلد العربي الوحيد، الذي تُدرّس فيه سائر المواد في كلِّ مراحل التعليم باللغة العربية، فذاك نتيجة هذه الروح المؤمنة بصلاحية العربية التي بثّها في هذه البلاد محمّد كرد علي»^(٣).

قلتُ: ومن ثمار غرس دعوة كرد علي لتدريس العلوم العصرية باللغة العربية، قام مجمع اللغة العربية الأردني، بتعريب المقررات التعليمية في الكليات العلمية في الجامعة الأردنية، وفي جامعة اليرموك، في نهاية سبعينيات القرن الماضي. يقول عبد الكريم خليفة: «ولعلَّ أهمُّ ما يشغل بال مجمع اللغة العربية الأردني منذ أوائل عام ١٩٧٨م، وبعد تأسيسه بقليل، هو موضوع «تعريب التعليم العلمي في الجامعات العربية»، فقد شاء المجمع أن يقطع الطريقَ على المنادين بتعليم العلوم بلغة أجنبية،

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٧٨.

(٢) الخطيب، عدنان: محمّد كرد علي الرائد المجمع في الوطن العربي، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ١٣.

(٣) الفاسي، انطباعات عن محمّد كرد علي، ص ٦٢.

متذرعين بعدم وجود كُتب لهذا الغرض باللغة العربية... وتحقيقاً لهذا الهدف السامي، قرّر المجمع أن يتبنّى مشروعاً علمياً... فاختار البدء بتعريب الكتب العلمية التي تُدرّس في السنة الأولى بكلّية العلوم في الجامعة الأردنية، وجامعة اليرموك...»^(١).

ونجح مشروع التعريب الذي تبناه مجمع اللغة العربي الأردني نجاحاً كبيراً، ولكن الأيدي العابثة، والقرارات الجائرة، والتبعية الثقافية للغرب الذي هيمنت لغته على التعليم الجامعي، سرعان ما وأدّت هذه المحاولة الجريئة في مهدها، ونأمل من الله أن يعيد المجمع كرّته، ويتحقق الوعد الإلهي للمؤمنين بالعربية ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾.

وقد مُنح مجمع اللغة العربية الأردني جائزة الملك فيصل العالمية، كفاءً لفضله، وتقديراً لدوره في خدمة اللغة العربية، وجهوده الجليلة في نقل العلوم العصرية إليها، وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

ويضيف الفاسي، بأن جهود كرد في رفع منار العربية، إعلاءً لشأنها، ورفعاً لمكانتها بين لغات أهل الأرض، كانت لها أصداءها فيما بعد، يقول: «فإن من آثار دعوة محمّد كرد علي، للعناية باللغة العربية، والمحافظة عليها ونشرها، ما عملنا له من إدخالها لليونسكو في الأسبوع الماضي (عام ١٩٧٦م) كلغة عمل، وقد صُودق في مؤتمر نيروبي لهذه المنظمة على المرحلة الأخيرة من جعلها في مستوى واحد مع اللغات الأوروبية الأربعة، التي لها وحدها هذا الشرف، مع العلم أنّ اللغة العربية هي لغة العالم الثالث الوحيدة التي نالت هذا الشرف»^(٢).

ويذهب حسن كامل الصيرفي الشاعر والمحقّق المصري المعروف، إلى أنّ كرد علي قد «أفنى حياته في خدمة اللغة العربية، حتى أنشأ لها مجمعاً خالداً على الزمن -

(١) خليفة، عبدالكريم: اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، ط١، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٦٩-٧٠.

(٢) الفاسي، انطباعات عن محمّد كرد علي، ص ٦٣.

بإذن الله - وهو أقدم المعجم العلمية الرسمية في الوطن العربي»^(١).

وكان مختار الدين أحمد عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة الإسلامية في الهند، من المشاركين في مهرجان كرد، فقال: «... مدينة فيها مجمع للغة العربية، أسسه المغفور له الأستاذ محمّد كرد علي الذي نحتفل بعيد ميلاده المئوي، فأسدى بذلك خدمات جليلة عظيمة للعلم، واللغة والأدب، والحضارة، ولا يزال هذا المجمع يؤدي رسالته بصدق وأمانة ووفاء...»^(٢).

وممّا هو جدير بالذكر، أنّ كرد علي كان متابعاً لأوضاع اللغة العربية وأحوالها في بلاد الهند، والروس، وأوروبا، وأمريكا، وساعياً للاتصال بمن فيها من المستشرقين والإفادة من علمهم، وراغباً في تشجيعهم على نشر العربية، والإفادة من جهود المجمع في خدمتها. إضافة إلى تسقط أخبارها، ومعرفة أحوالها في كلّ الأقطار العربية، التي حاول الاتصال بالناهين من علمائها، ودعوتهم لخدمة لغتهم، والعمل على النهوض بها.

ومن الشهادات التي يعتدّ بها، بخصوص دور كرد علي في تأسيس المجمع العلمي بدمشق، ما كتبه العلامة عباس محمود العقاد في جريدة (البلاغ الرسمي) الصادرة في القاهرة، ونشرته أيضاً مجلة المجمع الصادرة في كانون الثاني سنة ١٩٢٨ م، يقول العقاد: «إنّ إخواننا في دمشق، قد سبقونا إلى إنشاء مجمعهم العلمي، فنجحوا نجاحاً يفوق ما عندهم من الوسائل المالية والسياسية والعلمية، ووطّدوا ذلك المجمع توطيداً يبشّر باطراد التقدم، واتساع الأمد، وعموم الفائدة في الأقطار العربية، وكان ذلك بهمة رئيسه القدير وزملائه الفضلاء، وعناية ماثورة من حكومات الدولة على اختلافها، أمّنت

(١) الصيرفي، حسن كامل: «محمّد كرد علي نموذج فريد في ريادة تحقيق التراث»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م، ص٨٩.

(٢) أحمد، مختار الدين: «الأستاذ محمّد كرد علي والهند»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م، ص٢٥٣.

المجمع بعض التأمين من الواجهة المالية، ودلت على احترام للمباحث والآداب، نغبطهم عليه، ونظننا أولى به، وأحجى بالسبق فيه؛ لما عندنا من وسائل العلم والمال والسياسة»^(١).

فالعقاد يشيد بهمة كرد علي، التي كان لها دور فاعل في تأسيس المجمع، إضافة إلى عمل زملائه في المجمع، فهو الذي جعل دمشق تفوز بقصب السبق في تأسيسه، وتوقع العقاد أنه سيكون له أثر عظيم في نهضة اللغة العربية في جميع أقطارها، ولكن العقاد يلوم مصر التي لم تبادر إلى إنشاء المجمع قبل أي بلد عربي آخر؛ لما لها من الإمكانيات المادية والعلمية والسياسية.

وقد أقام مجمع اللغة العربية بدمشق، في العشرين من تشرين الأول عام ٢٠٠٣م، حفلاً تذكاريًا بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة محمد كرد علي، وحضر هذا الحفل جمع من العلماء والباحثين، وكان رؤساء المجامع العربية في مقدمة الحاضرين.

وألقى شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة ورئيس اتحاد مجامع اللغة العربية، كلمة أشار فيها إلى ريادة كرد للصحافة في سوريا، عندما أصدر مجلته (المقتبس)، التي هي أول مجلة سورية أدبية راقية، والتي أصبحت «كبرى مجلات الشام الأدبية، وأصبحت معرضاً حراً، ومنبراً عاماً للحركة الأدبية في سورية والأدب الرفيع»^(٢).

وأشار ضيف إلى أجل أعمال كرد علي بقوله: «وفي سنة ١٩١٩م، أسس الأستاذ محمد كرد علي المجمع العلمي العربي بدمشق، وهو أكبر مؤسسة علمية بديار الشام منذ ذلك التاريخ، وأصبح رئيساً له منذ تأسيسه، وظلّ ينعم برياسته، إلى وفاته سنة ١٩٥٣م... وكان يكثر من محاضراته في المجمع العلمي، الذي استحال دار ندوة ثقافية كبرى للشباب السوري، ولأهل البحث والدراسة»^(٣).

(١) مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، المجلد ٨، ص ٢٥.

(٢) ضيف، شوقي: «في ذكرى الأستاذ محمد كرد علي»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق،

١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، المجلد (٧٩)، ج ١، ص ٥.

(٣) ضيف، شوقي: المرجع السابق، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، المجلد (٧٩)، ج ١، ص ٥.

قلت: إنَّ وصف العلامة شوقي ضيف لمجمع دمشق، بأنَّه أكبر مؤسسة علمية في بلاد الشام، وأنَّه أضحى دار ندوة ثقافية، ومركزاً للبحث والدراسة لا يمتري فيه اثنان، وهو من أدقِّ ما وصفت به جهود كرد وجهاده في سبيل المجمع، ولكنَّ عبارة «وظلَّ ينعم برياسته إلى وفاته سنة ١٩٥٣»^(١)، يجب التوقُّف عندها؛ لأنَّ رياسته كرد للمجمع لم تطرد، بل نُحِّي وأُقيل أكثر من مرة، وكان المجمع مهتداً بمحوه وإلغائه منذ تأسيسه، حتى وفاة قائده الذي أبدى الشيء العظيم من ضراوة المقاومة والاستبسال في الدفاع عن قلعة العربية، ومنع سقوطها، وعانى من ذلك ما عانى من دسائس السياسيين، وكيد الحاسدين، وعداوة الجاهلين، وكيد الأحزاب، وقاسى الآلام وتحمَّل الرزايا، وذاق مرارة العزل التعسُّفي، واكتوى بنار المنافسة غير الشريفة.

وقد أشار كرد علي في كلمته التي ألقاها في دار الحكومة بدمشق بتاريخ ١/٩/١٩٢٠م، بمناسبة تكريم الشيخ سعيد الكرمي في غضون حديثه عن دور الكرمي في خدمة المجمع، وعن إنجازات المجمع وأعماله، على الرغم من كثرة العراقيل التي أقامها خصوم المجمع، يقول: «... خدمة اللغة العربية في علومها وآدابها... والمحاضرات التي يلقيها كلَّ أسبوع أعضاءه ورجال العلم... كلَّ ذلك من الأعمال التي قام بها مجمعنا، على كثرة المقاومين في مبدأ أمره...»^(٢).

والناظر فيما تقدَّم من فصول يدرك العقبات التي تصدَّى لها كرد، وحاول تذليلها حتى تستقيم مسيرة المجمع. ولكنَّ كرد علي وهو الرجل الصلب في الدفاع عن لغة أمته، تحمَّل كلَّ ذلك، وبقي مسدداً على هدفه، حتى يحقِّق الإصابة المباشرة له، وهدفه الشريف السامي هو بقاء المجمع، ونجاحه ونهوضه وازدهاره، يقول كرد مشهداً الله على نفسه: «وشهد الله أنني كنت أفكّر في أنجع الطرق، لإنجاحه ليل نهار، مدة توليتي

(١) المرجع السابق، المجلد (٧٩)، ج ١، ص ٥.

(٢) الخطيب، عدنان: المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً)، ط ١، مطبعة الترقى، دمشق، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م، ص ٦٥.

رياسته، وما رأيت باباً يوصلني إلى النهوض به إلا طرفته، ولطالما بذلتُ ماء وجهي
لأناسٍ ما كنت أتنازلُ للسلام عليهم من قبل...»^(١).

وعرض شوقي ضيف دور كرد علي في تأسيس مجمع اللغة العربية في القاهرة،
فقال: «ولمّا تأسس مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٣٢م، كان الأستاذ الجليل
محمد كرد علي من أوائل الأعضاء العرب الذي شملهم المرسوم الأول، بإنشائه سنة
١٩٣٢ للميلاد، فهو أحد العشرة الأولى التي ضمت إلى العشرة المصريين المؤسسين
لمجمع اللغة العربية المصري، وبذلك كان من كبار أعلام العرب اللغويين المؤسسين
للمجمع، وبعد سنتين من إنشاء المجمع اللغوي يحييه الأستاذ محمد كرد علي تحيةً
رائعةً، جاء في صدرها: «سادتي: بتوفيق الله أتم هذا المجمع دور الرضاعة، حولين
كاملين، واليوم داخل في دور الحضانة، يتعهد أولياؤه ببليغ العناية، ويربونه على نحو
ما يُربى الطفل في خير البيئات؛ لأنّ حياته ممّا يهّم خمسة وستين مليوناً من العرب»^(٢).

وممّا لا شكّ فيه، أنّ دور كرد علي في تأسيس مجمع القاهرة، كان كبيراً وعظيماً،
ويكفي أن نعلم أنّ مجمع دمشق الذي أسسه كرد، قد سبق مجمع القاهرة بثلاثة عشر
عاماً في الأقل، فكان بذلك قدوة ونبراساً، وباعثاً ومحفزاً لأولي الأمر، وأصحاب
العلم بمصر، على تبني فكرة المجمع وتأسيسه، علماً بأن كرد علي كان متصلاً بحكّام
مصر، وعلمائها وأدبائها الذين أفاد من علمهم ومؤازرتهم في دعم مجمع دمشق، ولا
سيما أحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا، وغيرهم من العلماء.

وكان كرد دائم الاعتراف بما لمصر من فضل السبق في العلم، إذ كانت أكثر البلاد
العربية تقدماً وازدهاراً في الصحافة والتعليم، والعمران والاقتصاد وغيرها، ولذلك
كان كرد يردّ بقرّة على من ينكرون ذلك، ويدّعون أنّ المهاجرين اللبنانيين هم أصحاب
الفضل في تقدم مصر.

(١) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢) ضيف، شوقي: «في ذكرى الأستاذ محمد كرد علي»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق،
١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، المجلد (٧٩)، ج ١، ص ٦.

أمّا ذكر شوقي ضيف للتحية الرائعة، التي حيّا بها كرد علي مجمع القاهرة، فإنّها ذات دلالات تاريخية خبرها كرد، وعاشها مجمع دمشق الذي لم يتمّ نصفَ حولٍ من الرضاة، حتى أمرَ بفضّه، وقلبت له الحكومة العربية ظهر المجن، وتخلّت عنه، ولم تفلح محاولة كرد وجهوده المضنية في إعادته للعمل.

وبدا كرد متفائلاً بمستقبل زاهر لمجمع القاهرة الذي أتمّ رضاة حولين، ثم دخل في طور الحضانة والرعاية آملاً من أولي الأمر بمصر عانيتهم التامة بهذه المؤسسة العظيمة، التي هي مشروع أمة لا قطر، ويمكن لهذا المجمع الوليد أن يخدم أمة العرب كلّها، وذلك بإحياء لغتها، وجعلها لغةً قادرةً على نقل علوم العصر ومصطلحاته، وقادرةً على اللحاق بلغات العصر التي أصبحت تهدّدها في عُقر دارها، وتتغوّل عليها في معاهدها وجامعاتها ومدارسها.

ومن رؤساء المجمع الذين شاركوا في الحفل التذكاري الذي أقيم بدمشق سنة ٢٠٠٣م بمناسبة مرور نصف قرن على وفاة كرد علي - شاعر الفحّام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق، يقول: «... الأستاذ الرئيس محمّد كرد علي مؤسس المجمع، والرائد المصلح، الذي وقف حياته وقلمه يستحثّ الشعب للنهوض، والمشاركة الجادّة في مسيرة العلم والثقافة، واللحاق بركب الحضارة... ويؤلّف الكتب المتنوعة في موضوعات شتى، ترمي كلّها إلى تبيان مميزات الحضارة العربية الإسلامية، وتحريك الجماهير لتستأنف نشاطها الثقافي والعلمي، والإفصاح عن خصائص اللغة العربية المميّنة، التي يجب التمسك بها، والدفاع عنها...»^(١).

ويضيف الفحّام أن محمّد كرد علي هو «مؤسس المجمع، الذي أرسى قواعده وجعل منه منارة هادية... وكان مجمع دمشق أول المجمع العربية، واستطاع أن يشارك المشاركة الجادة في تعريب التعليم العالي والدواوين، ودوائر الحكومة،

(١) الفحّام، شاعر: «العلامة الجليل الأستاذ محمّد كرد علي»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، م (٧٩)، ج ١، ص ٥١٣.

والسجلات الرسمية، ولغة المدارس، والصحافة، وما يتصل بذلك، وبذل جهوده لسلامة اللغة، ونفي العامي والدخيل منها. وقد نجح في عمله نجاحاً واسعاً؛ لأنَّ المؤسسات التربوية والتعليمية والرسمية، وأبناء الشعب، كانوا صفّاً واحداً في هذا الاتجاه، وهذا سرُّ التعريب السريع الذي رافق الاستقلال دون تباطؤ، فعلمت الجامعة بكلّيتها: الطبّ والحقوق، وهما الوحيدتان آنذاك، منذ العام الأول ١٩١٩م، باللغة العربية، وعرّبت الدواوين والمؤسسات في مدة وجيزة، وكذلك المدارس»^(١).

قلت: إنَّ ما ذكره الفحّام أعلاه، عن نجاحات المجمع الباهرة، التي جاءت نتيجةً لتضافر الجهود الشعبية والرسمية، ممّا أدى إلى تسريع عملية التعريب، ونجاحها في دواوين الدولة، والكليات العلمية والمدارس، كلُّ ذلك له أسبابه التي يجب أن نستذكرها دائماً عند الحكم على المجامع العربية، ومدى ما تحقّق على يديها من أعمال وإنجازات.

وسرّ نجاح مجمع دمشق الذي قام بترسيخ العربية، لغةً رسميَّةً في تدريس العلوم الحديثة في الجامعات السورية، خلافاً لبقية البلاد العربية، التي ما زالت في مجادلات عقيمة، وهرج ومرج، حول مدى صلاحية العربية لتدريس العلوم، وهو أمرٌ بدهي لا يمتري فيه عاقلان، ولكنّها التبعية والخنوع لإملاءات الغزاة والمستعمرين، الذين ما زالوا يهدمون، ولهم منّا معينون ومناصرون!!

ويبدو لكاتب هذه السطور أنّ نجاح مجمع دمشق في معركة التعريب يرجع إلى الأسباب التالية:

أولاً: معاناة العربية في بلاد الشام من سياسة التتريك التي فرضتها جمعية الاتحاد والترقي؛

قامت جمعية الاتحاد والترقي الطورانية العلمانية الحاقدة، بمحاربة اللغة العربية وحاربتها، وأحلت اللغة التركية محلّها في الإدارة والمحاكم، والمدارس والكليات

(١) المرجع السابق، ص ١٤-٢٢.

الجامعية، مما أدى إلى مطالبة كلّ الجمعيات السرية العربية، وكلّ الأحرار العرب، والجماهير الشعبية، بأن تكون العربية هي اللغة الرسمية في الولايات المتحدة.

ثانياً: دور الملك فيصل بن الحسين الذي أقام الحكومة العربية بدمشق:

حكمت الحكومة الفيصلية مدةً تقلّ عن عامين ١٩١٨-١٩٢٠م، قبل الاحتلال الفرنسي الذي سلب هذه الدولة العربية استقلالها، فقد كان الملك فيصل داعية نهضة، وداعية استقلال، وداعية وحدة عربية تقوم على أساس اللغة والتاريخ، ولقيت العربية منه تشجيعاً عظيماً في الصحافة والحكومة، والنوادي الأدبية والثقافية والتعليم.

يقول: (... وسنهتم بإغناء خزائن علومنا بترجمة كتب العلوم والفنون الحديثة، والاستفادة من المعارف الغربية)^(١). وكان له الفضل في عودة كرد علي من تركيا، وإعانتته على إصدار جريدته (المقتبس)، ثم تعيينه في مناصب الحكومة العربية، ومنها المجمع العلمي، والقارئ المنصف لتاريخ هذا الملك العربي، يجد أنّ التعريب ونهضة الأمة ووحدتها من العقائد الراسخة في فكر هذا الرجل.

وفوق ذلك، فإنّ محمد كرد علي يؤكّد لنا على الدور التاريخي الذي أدّاه فيصل للقضية العربية، يقول واصفاً إنجازاته: «أسمع صوت العرب الغرب، وعرف السياسيين بأنّ للشعوب العربية مطالب يثرون من أجل تحقيقها، وأنهم أمة ذات ماضٍ مجيد، يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار، نشأت بذلك مسألة اسمها المسألة العربية»^(٢).

ثالثاً: عقيدة التعريب الراسخة عند رجال الدولة:

وأهمّ رجال الدولة في هذا المضمار، هو الفريق علي رضا الركابي الحاكم العسكري للحكومة العربية، ثم رئيس وزرائها فيما بعد، فقد شكّل لجاناً للتعريب

(١) قدرتي: مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٩٣.

(٢) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١٣٦.

والترجمة، منذ الشهر الأول لقيام الدولة سنة ١٩١٨ م، وألزم العسكريين بتعريب لغة الجيش، ومقرراته التعليمية، وطلب من موظفي الدولة تعلّم العربية، والالتزام بها في دواوين الدولة، وعدم قبول المعاملات المرفوعة إليها باللغة العامية أو التركية، وهدّد المخالفين والمتهاونين في أمر العربية بتسريحهم من العمل.

وكان الركابي ذا سطوة ومهابة، يفعل ما يقول، فكانت تعليماته تُنفذ بسرعة، فسارع الموظفون إلى تعلّم العربية وإتقانها، وإلاّ فقدوا وظائفهم، وما فعله الملك فيصل والركابي يدلّ على أنّ سياسة الدولة وتوجهاتها هي العمود الفقري في قضية التعريب، وأنّه لا تعريبَ في الدولة بلا دعم من أعلى رجال الدولة وحكّامها.

رابعاً: توعية الشعب بأهمية اللغة العربية ودورها في النهضة والتقدم:

فقد قام المجمع عند تأسيسه، وفي جلساته الأولى، التي بدأت في نهاية تموز ١٩١٩ م، بتشكيل لجنة يرأسها مرشد خاطر مهمتها الأساسية تعريف المواطنين بأهمية اللغة العربية، والسعي إلى نشرها بين طلاب المعاهد العليا^(١)، علماً بأنّ (مرشد خاطر) له دور كبير في ترجمة الكتب الطبية، ووضع المصطلحات العلمية الحديثة في اللغة العربية، وتأليف المعاجم الطبية فيها.

خامساً: التصديّ للغزو اللغوي الفرنسي لبلاد الشام:

فقد كانت الفرنسية في بلاد الشام تُعلّم في مدارس الإرساليات التبشيرية في لبنان منذ بداية القرن التاسع عشر، وكان انتشارها قليلاً خارج المؤسسات التبشيرية، ولكنها - وبعد فرض الانتداب الفرنسي - بدأت تزحف على مناطق أخرى في بلاد الشام، وأخذت تحلّ محلّ اللغة العربية في بعض المؤسسات الوطنية، وجعلت لغة رسميّة للمحاماة في لبنان، وأدرك الوطنيون من العرب مدى خطورة الأمر، بعد أن تفاقمت

(١) انظر: البوّاب، مروان: أعلام مجمع اللغة العربية في دمشق في مئة عام. مراجعة: محمّد مكي الحسيني، مازن المبارك، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٤١ هـ/ ٢٠١٩ م، ص ٦١.

ظاهرة الرطانة بالفرنسية والإنجليزية، وغيرها من لغات الغرب، وعدّوا التراطن بغير العربية طعنًا في الوطنية وفي الاستقلال، وكانت الخشية كبيرةً من أن تصبح الفرنسية لغة للتعليم العالي في الحكومة العربية، التي سارعت إلى تعريب الكليات العلمية الجامعية.

يقول فؤاد خوري الذي نشرت مقالته الموسومة بـ(وطنيتنا) في الجريدة الرسمية للحكومة العربية: «كم يحيا استقلالنا، وكم تصان وطنيتنا، ونحن نعبثُ بأمتن دعائمها: بلغة البلاد والجدود، بلغة المولد والمنشأ، فإن احتاج أن يتكلّم بها أحد ناشئنا المتفرنجين - وما أكثرهم - أسمعك من الألفاظ المختلطة من لغات متعددة، ما يُضحك ويسيء معاً، إذا رأينا الأجنبي يحبُّ لغته فأحببناها لرقبها، وكثرة محاسنها، فلا يكن ذلك سبباً لهجر لغتنا، بل وسيلة للتشبه به، والسعي في تحسينها وترقيتها»^(١).

سادساً: التزام الحكومة العربية للمجمع ومؤازرته في تحقيق أهدافه أدبياً ورسمياً:

إذ التزمت الحكومة بعدم إصدارها للقوانين والأنظمة، إلا بعد إجازة المجمع لها، وموافقته عليها من الجانب اللغوي، وكذلك الأمر بالنسبة للكتب المدرسية، التي لا تُجازُ للطباعة، إلا بعد مراجعة لغوية يقوم بها أحد علماء المجمع^(٢).

وبناءً على ما سبق، فإنّ نجاح المجمع، وسرعة إنجازاته في تعريب لغة الدواوين، والجيش، والتعليم المدرسي والعالي، ما كان ليتم لولا سياسة الحكومة العربية الوطنية الواعية، وقراراتها الحاسمة، واستجابة المجمع لذلك، وقيام رئيسه ورفصاؤه من المجمعيين بالعمل الدؤوب والمتواصل والمكثّف، الذي كان يومياً ومستمرّاً على مدى ستة أشهر، فأثمرت جهوده عن نتائج باهرة، وإنجازات كبيرة، قد يحتاج إنجازها إلى بضعة أعوام في غيره من المجامع شبه المحنّطة.

(١) جريدة «العاصمة»، سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م، السنة الأولى، العدد ٦٢، ص ٦.

(٢) انظر: الأفغاني، من حاضر اللغة العربية، ص ١٠٢-١٠٣.

وفوق ذلك، فإنَّ جهود المجمع المؤيَّدة بدعم الحكومة العربية، وملكيها، وحاكمها العسكري، قد أرسّت القواعد الثابتة، والأساسات المتينة، وأقامت الدعائم الشامخة للعربية في بلاد الشام، ولم يستطع المستعمر الفرنسي الذي اغتصب البلاد بعد ذلك بأشهر، هدمها أو اقتلاعها؛ لأنها أصبحت صخوراً ثوابت، وحجارة نوابت، وقلاعاً حصينة، وأبراجاً شامخة تستعصي على أدوات الاقتلاع أو الهدم أو التلغيم، وغير ذلك من الوسائل والذرائع المادية والمعنوية التي مارسها الغازي الفرنسي.

عوداً على بدء، وممّا أشار إليه شاكر الفخّام في الحفل التذكارى بمناسبة مرور خمسين عاماً على رحيل محمّد كرد علي، قوة نشاط المجمع، وديناميكية حركته التي تردّ إلى قائده وموجّهه، يقول: «وفي الحق أن الأستاذ الرئيس كان حركة المجمع العلمي الدائبة، كما كان راعيه وموجّهه، حتى أقام هذا الصرح الشامخ، الذي شهد ميلاد المجمع العربية الشقيقة، مجامع: مصر (١٩٣٢م)، والعراق (١٩٤٧م)، والأردن (١٩٧٦م)»^(١).

قلت: إنَّ ما تفضّل به الفخّام على درجة كبيرة من الصحة، ولكننا يجب ألا ننسى الجهود الجبّارة التي بذلها أعضاء المجمع، الذين كان كرد علي دائم الإشادة بجهودهم، وتفانيهم في خدمة المجمع، وفي الدفاع عنه، ورفع راياته بأعمالهم العلمية، ومواظبتهم على حضور جلساته، وبفعاليتهم في لجانه، وهم يعترفون لكرد بأحقيته في تولي رئاسة المجمع، التي وجدوا أنّه أصلح الرجال وأكفأهم لقيادته، ورفع شأنه بين المجمع العلمية العالمية والعربية.

أمّا قضية أوليّة مجمع دمشق، وسبقه للمجمع الأخرى، فإنها لم تقتصر على مجرد شهادته لميلاد المجمع العربية في القاهرة، وبغداد، وعمّان، بل الصواب أن يُقال: إنّ مجمع دمشق كان أباً روحياً لكلّ المجمع العربية، التي اقتفت أنموذجه الرفيع، وسارت على خطاه الواسعة، وأفادت من تجربته الثرة، ولولا ميلاد مجمع دمشق

(١) الفخّام: «العلامة الجليل محمّد كرد علي»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ٧٩م، ص ٢٢.

في تلك البيئة المناسبة سياسياً وعلمياً وتاريخياً، لربما تأخر ميلاد المجامع العربية عقوداً؛ لأنَّ مجمع دمشق أصبح مجعماً ترعاه الدولة، ومجمعاً يستمدُّ عزيمته من حضارة الأمة، ومن تاريخها الزاهر، وتوفَّرت له كوكبة من العلماء والأدباء واللغويين، الذين أُشربت أرواحهم بحبِّ هذه اللغة، وامتلأت نفوسهم شوقاً إلى ردها إلى غابر مجدها، عندما كانت لغة العلم والحضارة لبضعة قرون.

ومن باب تصحيح الحقائق التاريخية أن نقول: إنَّ ما ذكره الفحَّام عن تاريخ قيام المجمع الأردني في سنة (١٩٧٦م) هو أمر صحيح، ولكن يجب ألا ننسى أنَّ المجمع الأردني المؤسَّس في هذا التاريخ (١٩٧٦م) هو امتداد للمجمع الذي أُسِّس في الأردن سنة ١٩٢٣م من ناحية، كما أنَّ الوقوف على تاريخ هذا المجمع، ومعرفة الظروف التي مهَّدت له، والجهة الراعية له، يدلُّنا على أنَّه يمكن أن يُعدَّ امتداداً طبيعياً للمجمع العلمي العربي بدمشق، الذي أُسِّس في عهد الملك فيصل بن الحسين عام ١٩١٩م.

ويمكن عرض ذلك بإيجاز، فعندما وصل الأمير عبد الله بن الحسين إلى عمَّان سنة ١٩٢١م، وشكَّل رشيد بك طليح أول حكومة في شرقي الأردن، في أوائل نيسان من السنة المذكورة، ثم تلتها حكومة مظهر رسلان في منتصف آب من السنة نفسها، ثم وصل علي رضا الركابي إلى عمَّان، وشكَّل فيها حكومته الأولى في ١٢ آذار سنة ١٩٢٢م^(١).

ومع مجيء الركابي وفد إلى عمَّان كثيرٌ من موظفي ورجالات الحكومة العربية بدمشق، ومنهم الشيخ سعيد الكرمي الذي أصبح قاضياً للقضاة بعد أن أنهى عمله في المجمع العلمي العربي بدمشق. وفي السابع عشر من تموز سنة ١٩٢٣م في عهد حكومة مظهر باشا رسلان، صدرت إرادة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن الحسين بتأسيس (المجمع العلمي في الشرق العربي)، ويكون رئيسه الشيخ سعيد

(١) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، مكتبة الأسرة الأردنية، ٢٠١٨م، ص ١٧٨-١٨١.

الكرمي، وأعضاؤه: رضا توفيق بك، ومصطفى الغلاييني، ورشيد بقدونس، ومحمد الشريقي^(١)، ويكون مقرّ المجمع في عمّان.

واللافت للنظر، أنّ ثلاثةً من أعضاء المجمع الخمسة، هم من الأعضاء أو العاملين في مجمع دمشق: الكرمي، وبقدونس، والشريقي الذي كان أميناً عاماً للمجمع العلمي العربي بدمشق. وفوق ذلك، فإنّ أهداف مجمع عمّان^(٢) ومهامه هي قريبة جداً ممّا هدف إليه، وقام به مجمع دمشق، فكلاهما يشرف على الآثار، ودار الكتب الوطنية، ويعمل على إحياء اللغة العربية وخدمتها وترقيتها، ولكلّ من المجمعين مجلة، ولهما أعضاء عاملون، وأعضاء مؤازرون في الأقطار العربية^(٣)، وسنفضّل الحديث «مجمع الشرق العربي» الذي أسّسه الأمير عبد الله بن الحسين في عام ١٩٢٣م في الجزء الثالث من كتابنا هذا.

وتوالت بعد ذلك المجامع في القاهرة، وبغداد، وعمّان، وفي بعض البلدان العربية، مقتدياً بمجمع دمشق، الذي بذر البذرة الصالحة لنهضة العربية في أرضها.

(١) انظر: الخطيب، عدنان، المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً)، ص ٦٦؛ جريدة الشرق العربي (الجريدة الرسمية لحكومة شرقي الأردن)، ٩ ذي الحجة ١٣٤١هـ/ ٢٣ تموز ١٩٢٣م، العدد (٩)، ص ٢، مجمع اللغة العربية الأردني في أربعين عاماً، ط ١، مجمع اللغة العربية الأردني، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ٢٦-٢٨.

(٢) انظر: محافظة، علي، تاريخ الأردن في عهد الإمارة، ص ١٤٧-١٤٨.

(٣) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٢٤م، ص ٤٦.

المبحث الثالث

أهمّ نتائج البحث

بعد الرجوع إلى ما أمكننا الوقوف عليه من مصادر البحث، وتناول مادته العلمية بالبحث والتحليل، خلصنا إلى الآتي:

أولاً: دخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق في مطلع تشرين الأول من عام ١٩١٨م، ويُعدُّ دخوله بداية للحكومة العربية السورية (الفيصلية)، التي أخذت على عاتقها المطالبة بالاستقلال، وإنجاز الوَحدة لبلاد الشام والعراق، وعَيَّنَ الجنرال اللنبي قائد قوات الحلفاء في الشرق، علي رضا باشا الركابي حاكماً عسكرياً على المنطقة الشرقية، بعد أن قَسَمَ الحلفاء الشام إلى عدة مناطق، وأخذت الحكومة العربية تُدير المنطقة الشرقية التي تضمُّ المناطق الداخلية من بلاد الشام، أمَّا الساحل الشامي فكان بيد الفرنسيين والإنجليز.

ثانياً: اتبع الركابي سياسةً واضحةً، هدفها الإسراع في محو آثار التتريك في التعليم والإدارة والجيش، فأنشأ عدة لجان أو شُعب، أبرزها الشعبة الأولى للترجمة والتأليف، والشعبة الثالثة لشؤون المعارف والمقررات الدراسية في المدارس، ومنع الحديث باللغة التركية في دواوين الدولة، وعُربَّت المصطلحات والمقررات العسكرية في جيش الدولة الوليدة، ثم استدعى الأمير فيصل كرد علي الذي كان في الأستانة، وعَيَّنَه رئيساً لديوان المعارف، الذي أصبح مسؤولاً عن أعمال شعبة الترجمة وشعبة المعارف، وذلك في الثاني عشر من شباط سنة ١٩١٩م.

ثالثاً: نهض كرد علي بديوان المعارف، وشكّل له مجلساً من كبار العلماء، وبدأ الديوان بتأسيس دار للآثار، وأشرف على المكتبة الظاهرية، إضافةً إلى ما يقوم به من أعمال الترجمة، وتأليف الكتب المدرسية، وإصلاح لغة التعليم والإدارة،

وأصبح مجلس المعارف الذي يرأسه كرد، كأنه مجمع مصغّر، ولكن يحمل اسم مجلس المعارف، الذي كان بمثابة الأساس المتين الذي بُني عليه المجمع.

رابعاً: أدى قدوم ساطع الحصري بعد ثلاثة أشهر تقريباً من تشكيل مجلس المعارف إلى دمشق، وتعيينه مديراً للمعارف وبمساع من جمعية العربية الفتاة السرية، إلى تخلي كرد عن مجلس المعارف، لكن الركابي أصرَّ على كرد أن يبقى في الحكومة، فقبل بشرط أن ينقلب مجلس المعارف إلى مجمع علمي يرتبط بالدولة وبالحاكم العسكري مباشرةً، فوافق الركابي على ذلك، وأصدر قرار تأسيس المجمع في الثامن من حزيران سنة ١٩١٩، ولذا فإن كرد هو من فكّر في المجمع، وخطّط له، واقترحه على الركابي رجل الدولة القوي، المؤمن بضرورة تعريب الدولة لغّة وإدارة وعسكريّة.

خامساً: إن فكرة إنشاء مجمع علمي عربي، يخدم اللغة العربية، ليست فكرة دخيلة على فكر كرد بعد اتصاله بالغرب، واطلاعه على مجامعها وجامعاتها، بل إن هذه الفكرة ترجع في جذورها إلى النهضة اللغوية في بلاد الشام، على يد الشدياق واليازجيين والبستاني، والشيخ يوسف الأسير، والشيخ طاهر الجزائري، وغيرهم من الأدباء واللغويين، وإلى إقامة كرد في مصر، وعمله في الصحافة المصرية، وتلمذه على الشيخ محمّد عبده، وتعرّفه على نخبة العلماء في المجتمع المصري، وما فيه من دعوات لإنشاء المجامع اللغوية، إضافة إلى اطلاعه الواسع على الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها، ولذا فإن الرافد الغربي كان واحداً من الجذور المعرفية التي أنبتت في ذهنه غرسة المجمع المباركة، التي زواج فيها بين الحضارة الإسلامية العريقة، وبين ما لدى الغرب من تقدّم في المدنية والمعارف، وتقاليده في المجامع.

سادساً: حدّد المجمع أهدافه من خلال منشوره الذي نشره في المجامع اللغوية في العالم، وفي مؤسسات الدولة، وفي الصحف المحلية والعربية، وفي الجامعات،

وأهم هذه الأهداف: النهوض باللغة العربية، ووضع الألفاظ والمصطلحات التي تفتقر إليها العربية، والدفاع عن حضارتها، وجمع تراثها المخطوطاً والعمل على إحيائه، وتنقيح الكتب المدرسية والمقررات الجامعية، وترجمة الكتب العلمية إلى لغة العرب، والتواصل مع المجامع العلمية في كل أرجاء العالم، ونشر اللغة العربية الفصحى في بلاد الشام عن طريق المحاضرات والمؤتمرات، والنادي والمطبوعات، وإصلاح لغة الصحافة، وجمع آثار بلاد الشام التي نُهب كثيرٌ منها، وهُرِّب للخارج بواسطة التجَّار، وسُرِّق الآثار، والبعثات الأثرية التي أرسلها المستشرقون.

سابعاً: عُمر المجمع في العهد الفيصلي مدة لا تزيد على بضعة أشهر، تمكَّن خلالها من إنجازات كبيرة، وكان تخبُّره لمقرِّ المجمع في المدرسة العادلية، التي بدأ نور الدين زنكي بناءها، وأتمَّها العادل الأيوبي شقيق صلاح الدين، وابنه الملك المعظم عيسى. ومن أهمِّ إنجازات المجمع، إضافة إلى تأسيس دارٍ للآثار في مقرِّ المجمع، وإثراء المكتبة الظاهرية المقابلة لمبنى المجمع بكنوز المخطوطات والإشراف عليها، وجعل منها دار كتب عامة، وتأسيس مكتبة خاصة للمجمع، وعرب كثيرًا من الألفاظ الأعجمية، ووضع مسميات عربية للمصطلحات الأجنبية، وأصلح لغة الإدارة والصحافة، ودقَّق الكتب المدرسية وصحَّحها، وعقد عشرات الجلسات العلمية، وأخذ قرارات لغوية تخدم سياسة التعريب التي تبنتها الحكومة العربية.

ثامناً: تمَّ فضُّ المجمع وتوقيفه بعد عمره القصير؛ بحُجَّة قلة الموارد المالية في الدولة، وبذريعة إسراف المجمع في شراء العاديات والآثار، واقتناء المخطوطات، والقيام بالترميمات لمقرِّه، وقد فنَّدنا هذه الدعاوى، وثبت لنا عدم صحَّتها، ولم يقمَّ عليها دليلٌ مقنعٌ، وأنَّ دعوى الإسراف المالي ممَّا تمَّ اختلاقه وتضخيمه لوقف العمل في المجمع، ممَّا أدى إلى تنحية رئيسه وستة من أعضائه.

تاسعاً: ثبت لدى التدقيق في المصادر، أن أسباباً سياسية كانت وراء وقف المجمع، إذ كان كرد على خلاف سياسي عميق مع الأحزاب السياسية، ذات السطوة والنفوذ في الحكومة العربية، وبخاصة جمعية العربية الفتاة السرية، وحزب الاستقلال الذي كان واجهة علنية لها، وخصوصاً أن كرد علي لم يمثل لأوامر هذه الأحزاب، ولم يستجب لطلب الملك فيصل في طلب الانتداب البريطاني، ولم يذهب إلى لجنة كرين الأمريكية بهذا الخصوص، إلى غير ذلك من المواقف. واتخذ كرد موقفاً حيادياً، مُعلنًا رفضه للانتداب جملة، فَعُدَّ ذلك مأخذاً كبيراً عليه، مما كان له أسوأ الآثار على حياة المجمع، ومن غير المستبعد أن يكون كرد انتدابياً فرنسياً لا إنجليزياً، والرجل لا يخفي إعجابه بالمدنية الفرنسية.

عاشراً: لم يتسرّب اليأس إلى نفس كرد علي عندما أوقف المجمع، وبقي رافعاً لرايته، ومدافعاً عنيداً عن قلعته، فتمكّن من عرض مشروع إعادة المجمع للعمل على وزارة المعارف، في أيام حكومة هاشم الأتاسي في منتصف ١٩٢٠م تقريباً، لكنّ هذا المشروع قوبل بمقاومة عنيدة من قبل عبد الرحمن الشهبندر وزير الخارجية، ولم يمرّ مشروع المجمع من مجلس الوزراء بحجّة الاقتصاد في النفقات، فردّ عليه كرد برسالة عنيفة كشفت لنا عن الدوافع الحقيقية لمقاومة الشهبندر للمجمع.

حادي عشر: عتب كرد عتباً كبيراً على الملك فيصل، الذي وعد بأنّه سيعزز لحكومة الأتاسي بإعادة المجمع، ولكنّه لم يفِ بوعدّه، وتبيّن لنا أنّ الظروف السياسية، والأوضاع الداخلية، والتهديدات الخارجية، وظهور أمارات العدوان الفرنسي الوشيك، جعلت الملك في أضعف أحواله في أخريات عهده، إذ لم يجد نصيراً من القوى الدولية، ووجد معاندةً من بعض وزراء الحكومة.

ثاني عشر: كشف لنا البحث عن خطورة الدور الذي قام به ساطع الحصري من وراء الكواليس، في عرقلة مسيرة المجمع، فساطع الذي كان من كبار الزعماء والمفكرين

للعثمينة، وأمضى حياته الإدارية في رحاب حزب الاتحاد والترقي، الذي فرض سياسة التتريك على العرب، وحاربهم في لغتهم، وعمل على طمس شخصيتهم القومية.

ولم ينتسب ساطع للحركات العربية المطالبة بحرية العرب واستقلال بلادهم عن الترك، ثم جاء بعد ذلك ليصبح وزيراً للمعارف وهو لا يعرف العربية، بعد أن جاوز الأربعين من عمره، وكان مدعوماً من الأحزاب، وقد عانى ساطع من عقدة العربية ومجمعها، وعندما تمّ وقف المجمع، أنشأ لجنة للترجمة وتعريب المصطلحات، لا تختلف في مقاصدها وأعمالها عما كان ينهض به المجمع، وربما كان ذلك مكابدةً منه للمجمع، وقد تجاهل المجمع وهو مما نميل إليه فيما كتبه فيما بعد - على كثرة ما كتب وألف - ورجحنا أنّ خلافه مع كرد كان أيديولوجياً، فساطع من دعاة العلمنة، واقتلاع الدين من التعليم، ومؤسسات الدولة والمجتمع، وكرد كان يؤمن بأهمية الدين، ودوره في نهضة الأمة وحضارتها، وكان مؤمناً بالعروبة لغةً وحضارةً وتاريخاً وفكراً.

ثالث عشر: تبين لنا في نهاية البحث الدور العظيم الذي أسداه كرد لأُمَّته، بتأسيس أول مجمع لغوي رسمي لها في القرن العشرين، على الرغم من كثرة المحاولات السابقة، ولكنّ كرداً نجح في طرح مشروع المجمع على الحكومة العربية، التي استجابت له، وسرعان ما وضع الأهداف والخطط، متخذاً من دمشق عاصمة بني أمية، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، حاضنةً وأماً رؤوماً لمجمع العربية.

وقد اعترف بفضل كرد وجهوده العظيمة رؤساء المجامع العربية، وكبار المجمعين والمفكرين، والأدباء والمستشرقون، وأنه كان سباقاً وبانياً لواحدٍ من أهمّ المجامع

اللغوية العربية في عصرنا، وكان إنجازها بمؤازرة زملائه - خلال أشهر - ممّا تعجز عنه المجماع في سنوات، وأصبح مجمع دمشق قدوة ونبراساً، وإماماً ومثالاً، وعلامات وصوى في الطريق، لكلّ المجماع العربية التي أُسست على غراره، ودرجت على دربه، وترسّمت خطاه في الأهداف والعمل.

رابع عشر: إنّ كرد علي قد خاض ملحمة الكبرى، ودافع عن المجمع دفاع أبي الشبل عن ابنه، وتصدّى له الخصوم اللد، ونُسجت حوله الدسائس والمفتريات، قبل قرن من الزمان، وفي مثل هذه الأيام تقريباً، ولكنّه لم يتخلّ عن الدفاع عن رسالة المجمع، وبقي رافعاً لرايته بكلّ ما أوتي من قوة، ولنا في ذلك عبرة عظيمة؛ لأنّ كرد علي تقبّل الحكمة الذهبية التي علّمه إيّاها أستاذه العظيم طاهر الجزائري، وعمل بمقتضاها، والجزائري من أكبر دعاة النهضة والإصلاح في بلاد الشام، عندما قال له: «إذا أحببت النجاح... فلا تلقِ بأذنك لما يُقال فيك، من خير أو شرّ، ولا تلتفت ذات اليمين، ولا ذات الشمال، وإذا وضع لك واضعٌ حجراً في طريقك، فتنحّ عنه، وعُدْ إلى سلوك محجّتك»^(١).

لقد سار كرد يحث الخطى نحو هدفه النبيل، فلم يلتقِ سلاحه، ولم يترجّل عن فرسه، ولم يرفع الرايات البيض استسلاماً أو تخلياً عن قضية المجمع، وهي قضية الأمة الأولى التي تراجعت لغتها أربعة قرون، وسرعان ما تعيَّرت الظروف السياسية - وإن لم يكن هذا التغيير ممّا تهشّ له النفوس - وأصبح كرد وزيراً للمعارف مع بداية عهد الانتداب الفرنسي البغيض، الذي ينضح بالشروع والآثام، وسفك الدماء وهتك الأعراس، وقتل العباد، ونهب خيرات البلاد.

وأعاد كرد المجمع إلى سابق عهده، بل ارتقى به في معارج الرقي والتقدم، وقدمّ للأمة خدمات عظيمة في أحلك ظروفها، حينما أصبحت لغتها تواجه تحديات خطيرة

(١) كرد علي، مذكرات، ج ١، ص ٢١٣.

بدخول لغة المحتلّين، وفرضها لغة رسمية إلى جانب العربية، ثم بعد ربع قرن زال الغزاة، وخرجوا مذمومين مخذولين مدحورين، وطُردت لغتهم، وأصبحت العربية اللغة الرسمية الوحيدة في بلاد الشام، وبقي مجمعها وحصنها خالداً - بحول الله - علماً بأنّه قد قدّم الكثير من الجهود المشكورة لصدّ هجوم لغة الغزاة، وهذا ما سنعمل على تقديمه في بحثنا الذي هو في طور الإعداد والعمل عن المجمع العلمي في عهد الانتداب الفرنسي، بعون من الله.

فهرست

المصادر والمراجع

الأثري، محمّد بهجة:

- «خطاب محمّد بهجة»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي». ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

أحمد مختار الدين:

- «الأستاذ محمّد كرد علي والهند»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي». ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٧م.

أسكاورس، توفيق:

- «معهد مصر العلمي ومجلس المعارف المصري». مجلة الهلال، ١٩١٣م، سنة ٢١.

أرسلان، شكيب:

- سيرة ذاتية. ط ١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م.

- «كوارث سورية في سنوات الحرب». مجلة المنار، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م.

الأرناووط، محمّد:

- «علماء دمشق والحكومة الفيصلية». مقالة منشورة في كتاب: بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سوريا والعراق)، دار الثقافة، عمان، الأردن، ٢٠١٨م.

الأفغاني، سعيد:

- من حاضر اللغة العربية. ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٧١م.

آقبيق، عزة علي:

- «رشيد بقدونس الفارس الذي ترجّل بصمت» <https://syrmh.com>

آل جندي، أدهم:

- شهداء الحرب العالمية الكبرى. ط ١، مطبعة العروبة، دمشق، ١٩٦٠ م.

الألوسي، جمال الدين:

- محمد كرد علي. ط ٢، وزارة الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦ م.

البارودي، فخري:

- «مدرستان ضروريتان - إلى التجار والمزارعين-». جريدة العاصمة، ١٠ آذار، ١٩١٩ م، العدد ٧.

- مذكرات البادروي. دمشق، ١٩٥١ م.

البخيت، محمد عدنان:

- العام لمجموعة بلاغات المالية العامة لسنة ١٩٢٠ م في الحكومة العربية بدمشق. ط ١. البنك الأهلي الأردني، عمان، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م.

بلعيد، صالح:

- «دور مجامع اللغة العربية في تيسير العربية». مجمع اللغة العربية بدمشق، المؤتمر السنوي الثاني (اللغة العربية في مواجهة المخاطر)، عقد بمقر المجمع بدمشق، في: ٢٤-٢٧ شعبان، الموافق: ٢٠-٢٣ أكتوبر ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

البوّاب، مروان:

- أعلام مجمع اللغة العربية في دمشق في مئة عام. مراجعة: محمد مكي الحسني، مازن المبارك، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٤١ هـ/ ٢٠١٩ م.

تراسك، ر.ل:

- لماذا تتغير اللغات. ترجمة: محمّد مازن جلال، ط ١، جامعة الملك سعود، الرياض،
١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.

تماري، سليم:

- عام الجراد (الحرب العظمى ومحي الماضي العثماني من فلسطين). ط ١، مؤسسة
الدراسات الفلسطينية المقدسية، القدس، ٢٠٠٨م.

تيخونوفا:

- ساطع رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي. ترجمة: توفيق سلوم، ط ١، دار
التقدم، موسكو، ١٩٨٧م.

الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م):

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار. تحقيق: عبدالرحيم عبدالرحمن، مكتبة الأسرة،
القاهرة، ٢٠٠٣م، ج ٥.

جبري، شفيق:

- محاضرات عن محمّد كرد علي. ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

ابن جبير، محمّد بن أحمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م):

- رحلة ابن جبير. دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

جريدة العاصمة (جريدة الحكومة الرسمية). سنة ١٩١٩-١٩٢٠م.

الجرجاني، علي بن عبدالعزيز:

- الوساطة بين المتنبّي وخصومه. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي،
عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بلا تاريخ.

ابن الجزري، شمس الدّين أبو الخير محمّد بن محمّد (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م):

- غاية النهاية في طبقات القراء. عني بنشره: ج. برجستراسر، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٩٩م، ج ٢.

الجميل، سيار:

- «الملك فيصل الأول والتأسيس العلمي الحديث (جامعة آل البيت في العراق ١٩٢٤ - ١٩٣٠م)». بحث منشور ضمن كتاب: بناء الدولة العربية الحديثة تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق. تحرير: هند أبو الشعر، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠١٨م، ج ١.

الجندي، أنور:

- المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة. دار المعرفة، القاهرة، بلا تاريخ.

الجواهري، محمّد مهدي:

- ذكرياتي. ط ١، دار الرافدين، دمشق، ١٩٨٨م.

الحداد، جرجي:

- تاريخ وفضائع ديوان التفتيش في البرتغال وإسبانيا. ط ١، سان باولو- برازيل، ١٩١٣م.

الحراشنة، ونس:

- فكر محمّد كرد علي ودعوته الإصلاحية. ط ١، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠٠٦م.

حسين، محمّد محمّد:

- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ط ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ/
١٩٨٠م.

الحصري، ساطع:

- الأعمال القومية. ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩م، ق ٤.

- مذكراتي في العراق. ط ١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧م.

- يوم ميسلون. طبعة جديدة، دار الاتحاد، بيروت، بلا تاريخ.

الحصري، محمود:

- «تعريب الأسماء الأعجمية». مجلة المقتطف، آذار، المجلد الثالث والثلاثون،
١٩٠٨م.

الحفار، لطفي:

- ذكريات (منتخابات من خطب وأحاديث ومقالات). عني بجمعها ونشرها: وجيه
بيضون، ط ١، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

الحكيم، حسن:

- صفحة في حياة الشهبندر. ط ١، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الأردن، ١٩٩٤م.

الحكيم، يوسف:

- سوريا في العهد الفيصلي. ط ٢، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م.

حلبي، سعيد أحمد:

- النشاط اليهودي في الدولة العثمانية. ط ١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١١م.

الحمزاوي، محمّد رشاد:

- مجمع اللغة العربية بدمشق والنهوض بالعربية. ط ١، دار التركي للنشر، تونس،
١٩٨٨ م.

الخطيب، عدنان:

- المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً). ط ١، مطبعة
الترقي، دمشق، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م.

- محمّد كرد علي الرائد المجمع في الوطن العربي. ط ١، مجمع اللغة العربية
بدمشق، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.

الخطيب، محب الدين:

- سيرة جيل. مخطوط، نقلاً عن الريماوي: الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد
الفيصلي، ط ١، الأردن، ١٩٩٨ م.

- «قوميتنا العربية». جريدة العاصمة، ٧ أغسطس، ١٩١٩ م، عدد ٤٨.

ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمّد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م):

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من
ذوي السلطان الأكبر، الكتاب الأول (المقدمة). تحقيق: إبراهيم شبوح، إحسان
عباس، ط ١، دار القيروان، تونس، ٢٠٠٦ م.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمّد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت،
١٩٧٩ م.

- الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية ١٥٠٨-١٥٦٨ م.
ترجمة: أحمد بوشرب، ط١، كرسي الأمير سلمان بن عبد العزيز، الرياض،
١٤٣٣هـ/٢٠١٢ م.

خليفة، عبدالكريم:

- «خطاب عبدالكريم خليفة»، ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي
العربي». ط١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ م.

- اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث. ط١، منشورات مجمع اللغة العربية
الأردني، عمان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م.

داغر، أسعد:

- مذكراتي على هامش القضية العربية. مكان وتاريخ النشر غير مذكورين.

داغرون، شانتال:

- عربي، هل قلت عربي؟ ترجمة: فقيهي الصحراوي، ط١، أفريقيا الشرق، ١٩٩٨ م.

الدروبي، سمير:

- الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي. ط١، مركز الملك فيصل،
الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧ م.

- «خزائن الكتب الموقوفة بجامع بني أمية في دمشق من القرن (٦-١٢هـ/١٠-١٦م)».

بحث منشور ضمن وقائع المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام وهو بعنوان:

الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين،

تحرير: محمّد عدنان البخيت، ط١، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة

الأردنية، عمان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩ م.

- «الرعاية وأثرها في تحقيق النصوص المترجمة في العصر العباسي»، بحث منشور ضمن وقائع مؤتمر تحقيق التراث الذي عقد في مؤسسة الفرقان، لندن، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

- ابن طولون الصالحي وفن المقامات. ط ١، جامعة مؤتة، الأردن، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- مقدمة في دراسة الترجمة والتراجمة في ديوان الإنشاء المملوكي. ط ١، أمانة عمان، الأردن، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٧م.

دروزة، محمد عزة:

- مذكرات محمد عزة دروزة. ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

- نشأة الحركة العربية الحديثة. ط ١، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٤٩م.

الدسوقي، عمر:

- في الأدب الحديث. ط ٨، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.

الدّهان، سامي:

- محمد كرد علي (حياته وآثاره). مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

دهمان، محمد أحمد:

- «المدرسة العادلية الكبرى تقوم برعاية اللغة العربية منذ سبعة قرون ونصف». مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ع ٢٩.

راشد، أحمد إسماعيل:

- «الثورة العربية الكبرى المقدمات والأهداف والمؤامرة الدولية». ضمن كتاب: الثورة

العربية الكبرى (ثورة أمة في سبيل الحرية والنهضة)، أوراق عمل ملتقى عمان الثقافي، الرابع عشر، منشورات عمان عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٧م، عمان، الأردن.

رضا، محمد رشيد:

- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ج ١.

- «الرحلة السورية الثانية». منشور ضمن مجلة المنار، سنة ١٩٢٢م، الجزء الرابع، المجلد ٢٣.

ريسler، جاك:

- الحضارة العربية. تعريب: خليل أحمد خليل، ط ١، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٩٣.

الريماوي، سهيلة:

- الحكم الحزبي أيام العهد الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠م. ط ١، مكتبة مجدلاوي، عمان، ١٩٩٧م.

الزركلي، خير الدين:

- الأعلام. ط ٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

الزواهرة، تيسير:

- تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠-١٨٦٤م. ط ١، جامعة مؤتة، الأردن، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

الزبيق، إبراهيم:

- العلامة اللغوي عبد القادر المبارك. ط ١، مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠١١م.

زيدان، جرجي:

- تاريخ آداب اللغة العربية. دار الهلال، القاهرة، بلا تاريخ.

سبح، حسني:

- «خطاب حسني سبح» ضمن كتاب: «محمد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت ٦٥٤هـ/١٢٤٧م):

- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان. تحقيق: محمد بركات، كامل الخراط، عمّار ربحاوي، ط ١، الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

السفاح، أحمد جمال باشا:

- مذكرات جمال باشا السفاح. تعريب: علي أحمد سليمان شكري، ط ١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

السفرجلاني، محمد حمدي:

- «اللغة العربية وأبنائها». جريدة العاصمة، سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م، السنة الأولى، العدد (٥٢).

سكوت، جون:

- موسوعة علم الاجتماع. ترجمة: محمد الجوهري، محمود الرشيد، محمد محيي الدين، ط ١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م.

السيد، محمود:

- «التمكين للغة العربية: آفاق وحلول». مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٢٨هـ/
٢٠٠٨م.

السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١،
عيسى البابي، القاهرة، ١٩٦٤م.

شاتليه. أ. ل:

- الغارة على العالم الإسلامي. لخصها ونقلها إلى العربية: محب الدين الخطيب،
مساعد اليافي، ط ٤، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م):

- المذيل على الروضتين تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط ١، دار الرسالة العالمية، بيروت،
١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط ١،
مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الشدياق، أحمد فارس (ت ١٨٨٧م):

- كنز الرغائب في منتخبات الجوائب. ط ١، مطبعة الجوائب، الأستانة، ١٨٧٧م.

أبو الشعر، هند:

- «التنظيمات الإدارية للحكومة العربية الفيصلية». ضمن كتاب بناء الدولة العربية
الحديثة، إعداد وتحرير: هند أبو الشعر، مكتبة الأسرة الأردنية، عمان، ٢٠١٨م.

- ذاكرة الثورة العربية الكبرى ونهضة العرب. ط ١، مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

شهيد، عبدالله واثق:

- «المجامع». بحث منشور في «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق»، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، المجلد (٨١).

صابر، محيي الدين:

- «خطاب محيي الدين صابر». ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

صالح، سليمان:

- الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد. ط ١، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩٧م. صالحية، محمّد عيسى:

- تغريب التراث العربي بين الدبلوماسية والتجارة. ط ١، دار الحدائث، بيروت، ١٩٨٥م. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

- مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق. دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٢م.

الصيرفي، حسن كامل:

- «محمّد كرد علي نموذج فريد في ريادة تحقيق التراث». ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي»، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٧م.

ضيف، شوقي:

- العصر الإسلامي. ط ٥، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣ م.

- «في ذكرى الأستاذ محمّد كرد علي». مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، م (٧٩).

الطنطاوي، علي:

- ذكريات. ط ١، دار المنارة، جدة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩ م.

طوران، مصطفى:

- أسرار الانقلاب العثماني. ترجمة: كمال خوصة، ط ٤، دار السلام، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م.

ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمّد (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م):

- حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام (٩٢٦-٩٥١هـ). تحقيق أحمد أيّش، ط ١، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠٢ م.

- القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، تحقيق: محمّد أحمد دهمان، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ق ٢.

- مفاكهة الخلان. تحقيق: محمّد مصطفى، ط ١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، ج ٢.

الطيب، عبد المجيد:

- منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية. ط ٣، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام، مكة المكرمة، ١٤٣٩هـ.

ظبيان، محمّد تيسير:

- «ذكريات وانطباعات عن كرد علي». ضمن كتاب: محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- مختارات من أعماله المطبوعة والمخطوطة. إعداد وتحرير: أسامة يوسف شهاب، ط ١، اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية، الأردن، ٢٠٠٢م.

عازوري، نجيب:

- يقظة الأمة العربية. نقله إلى العربية وقدم له: أحمد أبو ملحّم، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٨م.

العاني، سامي مكّي:

- الإسلام والشعر. ط ١، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

عباس، إحسان:

- غربة الراعي (سيرة ذاتية). ط ١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م.

العجلوني، محمّد علي:

- ذكريات عن الثورة العربية الكبرى. ط ١، مكتبة الحرية، عمان، بلا تاريخ.

العش، يوسف:

- دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. ترجمة: نزار أباطة ومحمّد صباغ، ط ١، دار الفكر، سورية، دمشق، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م):

- عُرف التعريف في المكاتبات (أول دستور في الألقاب التشريفية في لغة العرب). دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، ط ١، وزارة الثقافة، الأردن، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨ م.

الفاصي، محمّد:

- «خطاب محمّد الفاسي». ضمن كتاب: «محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي». ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م.

الفتيح، أحمد:

- تاريخ المجمع العلمي العربي. ط ١، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦ م.

الفحّام، شاكر:

- «العلامة الجليل الأستاذ محمّد كرد علي». مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م، م (٧٩).

فيصل، شكري:

- «محمّد كرد علي من خلال المقتبس». ضمن كتاب «كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي». ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م.

القاسمي، صلاح الدين:

- صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين. ط ١، المطبعة السلفية، ١٩٥٩ م.

القاسمي، ظافر:

- مكتب عنبر. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بلا تاريخ.

قاسمية، خيرية:

- الحكومة العربية في دمشق. وزارة الثقافة، عمان، ٢٠١٧م.

- «لمحات من الحياة التعليمية والثقافية في ظل حكومة فيصل في دمشق ١٩١٨-

١٩٢٠م». بحث منشور ضمن كتاب: بناء الدولة العربية الحديثة، تحرير: هند

أبو الشعر، ط ١، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠١٨م.

ابن قاضي شهبة الدمشقي، أبو بكر أحمد بن محمّد (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م):

- الكواكب الدرّية في السيرة النورية. تحقيق: محمود زايد، ط ١، دار الكتاب الجديد،

بيروت، ١٩٧١م.

قدري، أحمد:

- مذكراتي عن الثورة العربية. ط ١، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

قلعجي، قدري:

- الثورة العربية الكبرى. ط ١، شركة المطبوعات، بيروت، ١٩٩٣م.

القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. وزارة الثقافة، القاهرة، بلا تاريخ.

قندلفت، متري:

- «وصف بعض العاديات». مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، السنة ١٩٢١م،

المجلد ١.

كرد علي، محمّد:

- «إبراهيم اليازجي». مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، المجلد ٢٨.
- «أعمال المجمع العلمي العربي». مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ط ٢، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، المجلد ٢.
- «الشيخ طاهر الجزائري». مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٢١م، المجلد ١.
- تاريخ الأستاذ محمّد عبده. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٣٢م، المجلد ١٢.
- «غابر الأندلس وحاضرها». مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، مجلد ٢.
- الإسلام والحضارة العربية. ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ١.
- خطط الشام. ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج ٦.
- غرائب الغرب. ط ٢، المكتبة الأهلية بمصر، ١٣٤١هـ/١٩٢٣م.
- القديم والحديث. ط ١، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.
- كنوز الأجداد. أضواء السلف، الرياض، ٢٠١٠م.
- مجلة المجمع العلمي العربي. ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، مجلد ٢.
- المذكرات، طبعة مصوّرة، دار أضواء السلف، الرياض، بلا تاريخ.
- «منشور المجمع للمجلات والمجامع». مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٣٩هـ/١٩١٩م.

- «المجمع العلمي العربي». مجلة المجمع العلمي العربي، ١٩٢١م، المجلد ١.
كرومر، اللورد:
- مصر الحديثة. ترجمة: صبري محمّد حسن، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة،
٢٠١٥م.
- كوثراني، وجيه:
- بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية). ط٢،
المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، قطر، ١٩٨٤م.
- المبارك، مازن عبد القادر:
- مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٣٧هـ / ١٩١٩م). ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق،
٢٠٠٩م.
- «من تاريخ التعريب». مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ربيع الأول ١٤٢٨هـ/
نيسان ٢٠٠٧م، المجلد الثاني والثمانون.
- مجلة المجمع العلمي العربي:
- «إصلاح لغة الدواوين». دمشق، ١٣٣٩هـ / ١٩٢١م، المجلد ١.
مجلة المقتطف:
- «باب الأخبار العلمية». مارس، المجلد الثالث والثلاثون، ١٩٠٨م.
محافظة، علي:
- تاريخ الأردن المعاصر. ط٢، مركز الكتاب الأردني، عمان، ١٩٨٩م.
محيي الدين، عبد الرزاق:

- «خطاب عبدالرزاق محيي الدين». ضمن كتاب: محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي، ط ١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

مذكور، إبراهيم:

- «خطاب الدكتور إبراهيم مذكور رئيس اتحاد المجمع اللغوية العربية». ضمن كتاب: محمّد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م):

- التنبيه والإشراف. دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

المطوي، محمّد الهادي:

- أحمد فارس الشدياق (حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة). ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩م.

المعلوف، عيسى إسكندر:

- «المجامع العلمية في العالم». مجلة المجتمع العلمي العربي، ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، مجلد ١.

ابن منظور، جمال الدين محمّد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م):

- لسان العرب. دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

الموسوعة الفلسطينية،

- «نخلة جريس زريق: (١٨٦١-١٩٢١م)». ط ١، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤م، ج ٤.

الموسى، سليمان:

- مذكرات الأمير زيد. ط ٣، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠١١ م.

مؤلف مجهول:

- ثورة العرب الكبرى ١٩١٩. منشورات وزارة الثقافة، عمان، ط ٢، ١٩٩١ م.

النديم، محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠ م):

- الفهرست. تحقيق: رضا تجدد، بيروت، بلا تاريخ.

- الفهرست. قابله على أصوله: أيمن فؤاد السيد، ط ١، مؤسسة الفرقان، لندن، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م، المجلد الأول.

نويهض، عجاج:

- ستون عاماً مع القافلة العربية. إعداد: بيان نويهض الحوت، ط ١، دار الاستقلال للدراسات، بيروت.

هاريسون، ديفيد:

- عندما تموت اللغات. ترجمة: محمد مازن جلال، ط ١، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م.

للاطلاع على قائمة منشورات وأخبار الوزارة
يُرجى زيارة العناوين التالية :



موقع وزارة الثقافة الإلكتروني
www.culture.gov.jo



رابط صفحة وزارة الثقافة على الفيس بوك
www.facebook.com/culture.gov.jo

مجامع اللغة العربية

في دمشق وعمّان في عهد الهاشميين

(١٣٣٨ - ١٤٤٣ هـ / ١٩١٨ - ٢٠٢١ م)

تنطلق إصدارات مثنوية تأسيس الدولة الأردنية للعام 2021، بمجموعة من الكتب القيمة التي توفر مادة معرفية وأدبية وفكرية خلال مثنوية التأسيس، وضمن أربعة محاور الأول: سلسلة المؤسسات والقطاعات في مئة عام، وترصد تطور القطاعات والمؤسسات وفق مختلف المراحل ودورها التنموي والنهضوي، الثاني: سلسلة الأعلام والشخصيات الأردنية، وتسمى إلى التعريف بشخصيات وطنية أسهمت في بناء الدولة وتأسيسها، وبالنهضة الوطنية والبناء الديمقراطي، الثالث: سلسلة الرواد من الكتاب والمثقفين والمبدعين الأردنيين، وتتناول إسهامات رواد الكتابة والإبداع ودورهم في التنمية في مجال تخصصاتهم الإبداعية والفنية والفكرية، الرابع: سلسلة موضوعات متخصصة في التاريخ والشؤون العامة، وتوثق بشكل منهجي لعدد من الأحداث المفصلية الكبرى في تاريخ الدولة الأردنية من خلال جمع الأرشيف الخاص بهذه الأحداث، من وثائق وصور، وتحويله إلى مادة علمية على شكل كتب.



9 789957 946517

